

عباس محمود العقاد

الفصول

مجموعه مقالات أدبية واجتماعية وخطرات وشذور

مَقْدَمَةٌ وَإِهْدَاءٌ

في سبيل الحق والجمال والقوة أحياناً ، وفي سبيل الحق والجمال والقوة أكتب
وعلى مذبح الحق والجمال والقوة أضع هذه الأوراق المخضلة بدم فكر ومهجة
قلب ، قريانياً إلى تلك الأقانيم العلوية ، وهدية من السحاب إلى العباب .

في الدنيا الحق . ولو كان كل ما نشهد من الدنيا باطلاً لوجب أن يكون
وراء هذا الباطل المموء شيء صحيح لا تمويه فيه ، وهذا الشيء هو جوهر
الحياة : نصيب كل امرئ من الحياة على قدر نصيبه منه ، وهو الحق ، فمن
عرفه لا يسعه أن يعرض عنه ، ومن لم يعرفه فهو من هاوية الهلاك عنصره وإلى
غير الساء قبلته . وكل ما لم يقصد به وجه هذا الحق فهو من قشور الحياة
المنبوذة لا من لبابها المدخر .

وفي الدنيا الجمال . لا بل الجمال غاية الدنيا التي لا غاية بعدها ، قد نعرف
لكل شيء نفعاً يرمى إليه ولسنا نعرف للوجود نفسه نفعاً نبتغيه من ورائه ،
ولا غاية نخلص إليها بعد مفارقتة . كلا لا نفع ولا غاية وراء الوجود غير
العدم !! وإنما هو أمنية تمنناها لذاتها ، وحالة نتطلع منها ولكن إلى صفة أخرى
من صفاتها ، إنما هو صورة تملأها النفس لأنها تهواها ، وليس بسعة تطليها
لأنها تفتقر إليها . والكون كله ما كنهه وما ميسمه ؟؟ أهو آية صانع مبتدع أم
مسعاة كادح منتفع ؟؟ كذلك خير ما في النفوس ما كان جمالياً كهذا الكون ولم
يكن نفعياً كعروضه ، لأن النفع عرضي ينتهي بغايته ، وأما الجمال فأبدي
لا نهاية له .

نظرات في فلسفة المعري

١

مذهب النشوء^(١) :

إن مذهب دارون حديث ولكن تنازع البقاء قديم شعر به الناس منذ وجدوا وصرح به حكماؤهم وشعراؤهم في الأمثال والأشعار كل على طريقته ومنواله . فمنهم من وصفه ولم يفتن إليه ومنهم من فطن إليه ولم يعممهم ومنهم من شعر به شعور المتألم منه المنكر عليه . ولعل أشد شعراء الأمم تسمية على تنازع البقاء وذكرًا له في نظمه ونثره أبو العلاء المعري . ولا عجب في ذلك . فإن المعري نزل إلى معترك هذه الحياة انصيب عزلا من الأسلحة المنتجة فيه . نزل إليه يتيمًا فقيرًا سوداوي المزاج مفرطًا في الحس . وكان أرفع خلقًا من أن يسف إلى منافسة أمثاله الشعراء على ما يتكسبون به . وكان رحيماً رحمة كادت تكون مرضاً . وناهيك بمن يشفق على البرغوث أن يقتل وعلى النحل أن يشتر عسله . وليس بواحدة من هذه الخلال يحمد المرء غب تنازع البقاء أو يكون ممن يغفلون عن وطأته وينظرون إليه بعين الرضا والارتياح وهو ما هو عنفاً وقسوة وأثرة وخداعاً وانتهاكاً في معظم الأحيان لحرمان الاخلاق الفاضلة والمبادئ الرفيعة . فلذلك شعر به المعري شعور المقاتل الأعزل بهزيمة وأوحى الألم والإشفاق إلى وجدانه قبل تسعة قرون ما أوحاه الاطلاع والاستقصاء والتنقيب إلى فكر دارون في الزمن الأخير .

ولو كانت إشارة المعري إلى تنازع البقاء كلمة بنت لحظة ابتعتها الأمم فسطرها القلم لما كان في هذه الإشارة ما يميز لنا أن نقرن اسمه بتنازع البقاء .

(١) نشرت هذه المقالة والتي بعدها في عددي سبتمبر ونوفمبر من منتظف سنة ١٩١٦ .

في الدنيا القوة ، لا بل هما شيء واحد . فما ضمنت الدنيا قط إلا قوة ، وما عرفت الدنيا قط ضعفاً ، لأن الضعف ما كان سبباً إلى فناء ، ولا فناء على الحقيقة في هذا العالم الباقي . إنما يشكو الضعف من يعرض له الفناء بصورة من الصور ، ومن تتغير به الحال من حين إلى حين .

قد تختصم القوة الصغيرة والحق الصغير . وقد يختلف الجمال المحدود والحق المحدود . ولكن القوة الكبرى والحق الأكبر لا يختصمان . والجمال الشامل والحق الخالد لا يختلفان . على أنه لا حق وراء هذه الحدود يتفرد عن قوة ولا جمال ، ولكنها كلها عناوين شتى لقدرة واحدة : هي القدرة التي يبدأ منها كل شيء وإليها يعود .

فإلى تلك القدرة أتوجه بقرباني ليكون لها نصيب من عملي ، وعسى أن يكون لعملي نصيب منها

عباس محمود العقاد

وفصل هذا القانون العام في عدة مواضع من لزمياته فقال :

يفادر غابه الضرغام كيما ينازع ظبي رمل في كناس
سجايا كلها غدر وخبث توارثها أناس عن أناس
وقال :

تدرى الحمامة حين تهتف بالضحي أن الأجادل لا تطيل جدالها
وقال وفيه إلماع إلى توارث الخوف بين الحيوانات :

تتبع آثار الرياض حمامة ويعجبها فيما تنزوله النسر
تهم بنهض ثم تثني برغبة فم شعرت حتى أتيح لها صقر
وهو لا يفرق بين الأقوياء والضعفاء في هذا النزاع بل يشملهم به جميعاً كما
جاء في قوله :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي
ومن كلامه ما يصح أن يعد تلميحاً إلى غاية هذا النزاع وهي بقاء الأصلح
وانتفاع الغالب برجحانه على المغلوب كما يؤخذ من قوله :

ولو علمتم بدء الذنب من سغب إذن لساحتم بالثاة للذئب
ومثله قوله :

ولولا حاجة بالذئب تدعو لصيد الوحش ما اقتنص الغزال
ومثله أيضاً :

وسخط الأطباء بما نالها تولد منه رضى الحابل
وأحياناً يتجاوز القول بتنازع البقاء وبقاء الأصلح إلى تقرير هذا الرأي
الذي قرره النشويون حديثاً وهو أن لكل حي على الأرض سلاحاً خاصاً يتقى
به عدوه ويكدح به لنفسه . وليس أصرح في هذا الرأي من هذا البيت :
وما جعلت لأسود العري من أظافير إلا ابتغاء الظفر

ولكان الأخرى بتلك الإشارة أن تردد في معرض الاستسهاد كغيرها من الخواطر
الشعرية . ولكن إشارات المعرى في هذا المعنى كانت أشبه بالتدقيق العلمي منها
باللمحة الشعرية وأقرب إلى التأمل الدائم المتسلسل منها إلى النظرة العارضة
التي لا تبدأ في الخلد حتى تنتهي وينطوي أثرها . فإنك لا تقلب صفحة من
اللزوميات أو غيرها إلا سمعت منها أنه أو أنات يتغير موضوعها ومبناها
ولا يختلف مضمونها وفحواها وكلها نعي وتبكيك للعالمين على ظلمهم وتنافرهم
ومكر بعضهم ببعض . وكأن الآلام المبرحة التي يعرفها المخدول في كل حرب
ويجهلها الظافر قد جسمت هذه الحالة له وغلظتها فأحاط بدقائقها البعيدة ولم
تخف عليه خافية من وجوهها المختلفة بين أنواع المخلوقات ، فبدأ بالشكوى
من التنازع بين الناس ولحظه على حقيقته ، وهو أقرب الأشياء إلى أذهان الناس
لو التفتوا إليه ، ولكنك على كثرة الشعراء لا تقرؤه ممثلاً في شعر أحد كما هو
يمثل في شعر المعرى ، فمن قوله في ذلك :

أما لكمو بنى الدنيا عقول تصد عن التنافس والتعادي
أداة من صديق أو عدو فيؤسأ للأصاقد والأعداى
وأوضح منه في هذا المعنى قوله :

تنازع في الدنيا سواك وماله ولا لك شيء في الحقيقة فيها
ولم تحظ في ذاك النزاع بطائل فمتفقوها مثل مختلفيها
وأوضح من قوليه هذين قوله :

تساهبت العيش النفوس بقوة فإن كنت تستطيع النهاب فناهب
وزاد على ذلك فيين ضرورة هذا الخلاف فقال :

لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل ولم تقن أرماح وأسياف
وأحسبه استطرد من النظر في أطوار الإنسان إلى النظر في أطوار المخلوقات
كافة فأجل الحكم عليها في هذا البيت الجامع :

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد

وتعميم المعرى الحكم على الإنسان والحيوان معاً كلما نسب إلى الإنسان خلقاً من الأخلاق طريقة ذهنية عجيبة لا نستطيع تأويلها إلا إذا قلنا بأن الرجل كان يعتقد أن الإنسان والحيوان من عنصر واحد وأنه كان في صميم نفسه نشوئياً بالغريرة وإن لم يعلم بذلك فكره علماً يصح الاستدلال به .

في التشاؤم :

على أن هذا الارتباط بين الشعور بتنازع البقاء والشعور بحب البقاء يفسر لنا سر فلسفة المغالين في التشاؤم المبالغين في النعمة على الوجود ، فليسوا هم بأشد الناس كرهاً للحياة كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى ولكنهم أشد الناس حباً لها وضئاً بها . وهم لا يسبون الحياة سب المحتقر المزدري بل سب الرجل المرأة التي يتوله بها ويعبدها ثم لا يحظى بطائل منها ولا يجد عندها صدى غرامه بها .

وقد انتهى النظر في هذا المعترك الضروس بالمعرى كما انتهى بعده بإمام المشائمين آرثر شوبنهاور إلى نهاية واحدة ، فكلاهما يقول لك ما خلاصته : « ما دامت الدنيا كفاً لا راحة فيها وما دام الغالب اليوم يغلب غداً والموت يهلك الغالب وانغلوب على السواء فالحياة وقر فادح والعيش عبث والعدم أفضل من الوجود » . إلى آخر ما اتفق عليه مزاجهما من إيثار العزلة والاستئناس بالحيوان والقول بإرادة الحياة مع التنفير منها واحتقار النساء وتحريم الزواج . ومن هنا يظهر خطأ الاتنين بل خطأ المشائمين جميعاً في التعقيب على تنازع البقاء . إذ لا تنك أنه لو وقعت هذه الخواطر لأناس ذوي مزاج مختلف عن مزاجهم لما استخلصوا منها هذه النتيجة ولرأوا أن الأولى بهم أن يقولوا : « ما دامت الدنيا غلاباً فكن أنت الغالب وما دام الموت قضاء لا مفر منه فلا يهملك أمره وليهممك أن تنال من الحياة أقصى ما ينال فلان ، يدرك الموت سيئاً خيراً من أن يدركك مسوداً » . وليس العجيب أن يتفاوت حكم الناس في المسألة الواحدة من النقيض إلى النقيض ولكن العجيب أن نعلم بما للدنيا من ألوان لا عداد لها وبما للناس من حالات وميول لا يحصرها الفكر ثم

وأقل منه صراحة في ذلك البيتان :

إذا كف صل أفعاون فماله سوى بيته يقتات ما عمر الترابها
ولو ذهبت عيننا هزبر مساور لما راغ ضأننا في المراتع أو سربا
فإذا واجعت الأبيات المتقدمة مع كثير من أمثالها التي اكتنظت بها دواوين المعرى أممكتك أن تجزم بأن الرجل سبق أسبق المتأخرين إلى إدراك تنازع البقاء وما يلابسه من الأفكار . أدركه متكرراً جامعاً لا متفرقاً طارئاً . فإذا قيل إن دارون واضع المذهب في عالم ساغ لنا أن نقول والمعرى واضعه في عالم الأدب والشعر .

ويظهر أن فرط الشعور بتنازع البقاء لا ينفك عن فرط الشعور بالمحافظة على الذات . وهذا أمر طبيعي معقول . ولا يعرف قيمة الشيء كمن يعرف مقدار التزاحم عليه . ولذا كثر كلام المعرى في حب الحياة والافتتان بالدنيا كما كثر كلامه في التنافس والتباغض . فهو يردده في قصائده ولا يبرئ منه نفسه ويتهم من يظهر خلاف ذلك بالكذب والمراء كما قال في لزومياته :

شقيننا بدنيانا على طول ودّها فدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضم عشقها
وكما قال أيضاً :

ومن العجائب أن كلاً راغب في أم دفر وهو من عياها
إلى كثير غير ذلك . وهو لا يكتفى هنا أيضاً بالحكم على الإنسان فحسب بل يشمل بحكمه الأحياء جميعاً فيقول :

أرى حيوان الأرض يهرب حتفه ويفزعه رعد ويطمعه برق
ويقول كذلك :

تسريح كفك برغوئاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا

نطالبهم بالاتفاق على الكيائز والصغار أو تقدر مثلًا في فلسفة المشائين لأنهم يرون الحياة من جانبها المظلم ونحن لا نراها إلا من الجانب الأبيض المنير . ومن الخطأ أن يرفض النقاد فلسفة المشائين جملة بعد أصحابها عن حياة الأعمال الدنيوية ولا يذكروا أن هذه الدنيا غاصة بالتناقض وأن هناك جيلات أسرع إلى استكناه هذه التناقض من سواها ، وأنها ليست بطبيعة الحال جيلات أهل الأعمال لأن هؤلاء مصروفون بأعمالهم عن مشاهدة ما يقع حولهم - ومن أين للمقاتل النهيك في المعركة أن يحيط بما يجري في غضوناتها ؟

وإنما قلنا اتفق مزاج المعري وشوبنهاور ولم نقل عقلها لأننا نعتقد أن المشائين كلهم من مزاج واحد ، وأن هذا هو علة اتفاقهم في الأقيسة التي يذهب فيها الناس مذاهب شتى وإدراكهم المسائل على وتيرة واحدة وإن كانت مما تشعب فيه الأفكار . فقد اتفق المعري وشوبنهاور على كل رأى استدلوا به الإمام به ولو لم يكن من أصول فلسفة المشائين ، وإليك مثلاً إدراكها للزمان فإن المعري يتصوره كأنه نفس طائر في أثر نفس وكأنه أجزاء متفرقة يجمعها كل واحد فيراقبه مراقبة من لا يسهو عنه ويتبع كل نفس يمر بحسرة المشيع الأسف ومن هذا النحو قوله :

نفس بعد مثله يتفضى فتمسر الدهور والأحيان

وقوله :

همنى على ليلة رسوم تألفت منها الشهور

وقوله :

أما المكان فنابت لا ينطوى لكن زمانك ذاهب لا يثبت

ويلحق به قوله :

قدم الزمان وعمره إن قسمه فلدبه أعمار النور قصار

وكذلك يقول شوبنهاور مع الفرق بين الاسلوبين الشعري والفلسفي :

« الزمن هو ذلك الذي يقنأ يجعل الأشياء لا شيء في أيدينا فتتقد بذلك

قيمتها » ويقول « نحن نسلب يوماً كل مغرب شمس » ويقول : « إن وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما يبنى أبداً مشرباً طائراً فلا بد له . أي لوجودنا ، من أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في الوصول إلى الراحة التي ننشدها . مثلنا في ذلك مثل النحدر من جبل عال فهو يسقط إذا حاول الوقوف » .

ولا يشعر بالزمن هذا الشعور إلا الذي يحصى كل لحظة تمر به سائمة وإنما كأنه السائر المتعب يلتفت بعد كل خطوة بخطوة إلى المسافة التي خلفها ورائه والمسافة التي لا تزال أمامه . ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن إلا لمن يرى أن الحياة إن هي إلا زمن يمر لا تكوين يستتم قواه وجزء من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منه ، ولنا نقول إن الزمن ثابت والمشائين يخطئون إذ يتصورونه غير ذلك ، وإنما نقول إن تصورهم هذا خاص بزجاجهم . فكم من الناس حتى الفلاسفة والمفكرين والعلماء لا يشعرون بالوقت منزهلاً عن الحياة لأنهم يقسمون الحياة بحركاتهم التي هم مستغرقون فيها لا بحركات الأفلاك والسيارات . وكم من الناس في قرار وجدانهم لا يتصورون للوقت وجوداً فضلاً عن تصورهم أن الوجود مستقر عليه .

والمعري وشوبنهاور سيان في الرأفة بالحيوان واستطلاع أطواره وعاداته . ولقد رأينا كيف كان المعري يستعرض أخلاق الإنسان في طبائع الحيوان فانظر رأى شوبنهاور في ذلك . يقول هذا الفيلسوف « أي لذة تداخلنا عندما نرى حيواناً مطلقاً يدبر شؤونته بنفسه غير معترض ولا مسوق . تراه إما يتلمس طعامه أو يتعهد صفاره أو يخالط الحيوانات من جنسه إلى نحو ذلك . وإن هذا هو الذي ينبغي أن يكون وهو الذي لا يمكن أن يكون سواء . فإن كان ذلك الحيوان طائراً تمتعت نفسى بالنظر إليه برهة من الزمن لا بل فليكن قاراً مائياً أو ضفدعاً فذلك لا يتقص من سرورى بالنظر إليه . ويعظم سرورى به إن كان قنفذاً أو أو عظاة أو أيلاً أو غزالاً وما كان التأمل في أحوال الحيوانات ليسرنا لولا أننا نأنس فيها حياتنا مصفرة بسيطة » .

ولم يعد شوبنهاور الصراب هذا التعليل . إلا أننا لا نجد الناس كلهم

نظرات في فلسفة المَعْرِى

٢

زهد المَعْرِى في الدنيا واعتزل الناس لأنه كما أسلفنا لم يكن له في الدنيا حظ ولا بعامرة الناس طاقة . والعزلة مضادة لطبع الانسان بل لطبع كل حيوان أليف ، لأن الحيوانات الاجتماعية تحن بالرغم منها إلى رفاقها ولا تطيق الابتعاد عنها . حتى لقد توتر الوحدة في بيتها كما توتر فيها قطة العلف ومواصله الإجهاد . ولقد روى شارل مرسيه صاحب كتاب العقل والجنون وروايته مساعده محققة « أن الجلابيين العارفين بعبادات الماشية والانبام يذكرون أن البقرة العزولة لا تدبر اللبن ولا تسمن ولا تصلح لشيء مما تصلح له البقرة وسط الصرار » فالاجتماع ضرورة جسمية في الحيوان الأليف قبل أن يكون حاجة نفسية أو ميلاً قلبياً . ولن يلجأ إلى العزلة رجل متسق البنية متوازن القوى لأن انساق البنية يبقى من صاحبه استكمال ضروراته التي من أولها كما قدمنا الاجتماع والتآلف . وإنما يرغب في العزلة الشاذون عن استواء العقل إما ليتسكوا ويتخلوا أو ليقطعوا الطريق ويخرجوا على نظام الاجتماع شامري الحرب عليه وعلى أوضاعه . ويغلب في أهل النسك والتبتل أن يكونوا من ذوي المزارع السوداوى الذين يتقيضون عن عشرة الناس ويتقيض أهل العمل قدام عشرتهم ، لتباينهم عنهم في المشارب والأطوار ولأن أهل النظر وأهل العمل قدام يتفقون في الآراء والأفكار . ولا شك عندنا في كون المَعْرِى من أصحاب المزارع السوداوى لأن السوداء معروفة بأعراضها وهي الوجوم والمزمن الملح المجهول السيب والإكثار من ذكر الموت وسوء الظن بالناس وبالنفس أحياناً في أزمات النوبة التي تخرج المصدر وتقيم على العقل . أما الأعراض الأولى فقد طفق بها

يسرون بالتأمل في أحوال الحيوانات كما يُسر بذلك المشائمون . وتنظن هذا السرور آتياً من فرط إحساسهم بالحياة فلذلك يعطون على كل حي ويبحثون عن مظاهر الحياة في جميع طبقاتها . وسيطول بنا الشرح لو غادينا في القارئة بين المَعْرِى وشوشنهور على هذا النمط وما المقارنة بينها إلا بجانب تحليل لزاج واحد . ولكن لعل أصعب ما انتفا عليه وفازها لو دلليها وفاء لم نعهده في الفلاسفة الذين يقتضون بالحياة ولا يشكون غصصها ، فشوشنهور أعدى تَدْبِته « الدنيا كإرادة وفكرة » إلى والده وأتى عليه أطيب نساء في كلمة الإهداء والمَعْرِى رثى أباه أبليغ رثاء وهو القائل :

على الولد يحى والد ولو أنهم ملوك على أمصارهم خطيباه

شعر المعري ونثره فلا نستطيع أن نستشهد لها بيت من دواوينه دون بيت .
وأما سوء الظن بالنفس فقد جهر به المعري مراراً فقال :

إن مازت الناس أخلاق يعاش بها فإنهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الخلق حواء
رتال :

رويدك لا تغتر يا أخي م في فأنا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى بظهر الطريق م لم يلتقط مثلي اللاقط
وقال :

كلاب تعاوت أو تغاوت لجيفة واحسبي أصبحت الأمها كلبا
وقد يبلغ به اتهام نفسه أحياناً أن ينكر عليها العلم والعقل ويرى أنه امرؤ
لا نفع فيه لأحد إذ يقول :

ماذا تريدون لا مال تسر لي فيستباح ولا علم فيقتبس
أنا الشقي بأني لا أطيق لكم معونة وصروف الدهر تحبس

ولو كان ما يعلمه المعري من الفقه والفلسفة والأدب واللغة والسير في صدر
رجل آخر مبرأ من نوب السوداء لملا الأرض بعلمه غروراً وتطاولاً ، لأن غاية
العلم عنده أن يسأله الناس فيجيبهم وهم لا يسألون عن شيء لا جواب له
عنده . ولكن المعري القائل :

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

يرى للعلم أحياناً وظيفة أجل من الإجابة عن الأسئلة ويرى أن أقصى العلم
ينتهي بصاحبه إلى باب المجهول الأبدى الذي يرد كل طارق ولا يطرقة إلا كل
حائر ضللته ألباز الحياة وبهرته مصاعبها فترك الناس يحيون وذهب يبحث عن
مغزى الحياة وأسبابها وغاياتها فما استطاع أن يجيب نفسه وعلم أنه بالسكوت
عن إجابة غيره أولى . وقد يمكننا أن نتصور حالة التلاميذ الذين يسمعون من

أتسألون جهولاً أن يفيدكم وتحلبون سفياً خسرعها يبس
ما يعجب الناس إلا قول مختدع كأن قوماً إذا ما شرفوا أسوا

ولعمرى أن كلمة البخل بالعلم التي شاعت في العصور العربية المتوسطة
تدل على جهل الناس يومئذ بالعلم الحقيقي ولياب المعرفة لأن العلم الصميم هو
الذخيرة الفذة التي لا قبل لحاملها بالبخل بها . كما أنها تدل على نوع العلم
الذي كانوا يطلبونه في ذلك الزمن . عل غرضهم منه . وأحسبهم لم يستنبطوا
هذه الكلمة إلا بعد أن أصبح العلم تجارة يحملها العلماء إلى الأمراء متوخين فيها
مآربهم ومداركهم وأصبح للبخل بالعلم معنى بخل الصانع الحاذق بسر صنعته .
ولعل هذا أيضاً مما حجب العزلة الى المعري وأضجره من قاصديه الذين كانوا
يفدون إليه من أقاصى البلاد وأولعه بدم العلماء والتشهير بالمشعوذين
والسفطانية والمجربزين من المنجمين الذين يشغلون فراغ العلم إذا خلا منه
مكانه .

بيد أن السوداء لا تهدي إلى العزلة دائماً وقد تهدي إلى نقيضها فيكون
السوداوى خليعاً ماجناً مستهتراً بالشهوات مغلوباً على عقله بهواه ولكنه على
كل حال شبيه المعتزل في الشذوذ عن الحلقة العامة المعتدلة . وكثيراً ما تتقارب
العلل وتتباعد المظاهر في تقدير الناس . فأين التصوف والجذب مثلاً من
التهافت على المرأة والجنون بغرامها ؟ ولكنها في نظر الطب متشابهان في
مصدرهما إن لم نقل إن مصدرهما واحد عند بعض الأطباء . ومما يقوله مرسبيه
المتقدم ذكره بعد شرح طويل : « إن إنكار الذات أساس يلتقى عنده الهوى
الديني بالهوى الجنسي ولا يزال كل منها يشبه الآخر حتى بعد تكوينه ونضجه
فهما متماثلان في طبيعتهما الشاملة المتشعبة وهما يتماثلان قبل هذا التكون
والنضج في غموض الأوصاف والخصال . ولاتفاقهما في الأصل وتقاربهما في
الطبيعة يسهل أن يتحول أحدهما من مجراه إلى مجرى الآخر . ومن ثم نرى أن

اللغة وإن كان أحدهم أشبه بالآخر من القصد بالسرف مثلاً أو من القصد بالشح . هذا ، وهم يقولون إن القصد هو الحد الوسط بينها ، فكان ينبغي على هذا القول أن يكون أقرب إلى الطرفين من أحدهم إلى الآخر ، ولكنه بخلاف ذلك بعيد جداً عن الخلتين المذمومتين . أما هما فمن القرب والمساواة بحيث يكاد أحدهما يحل محل الثاني ، ويظهر هذا التقارب أوضح ظهور بين العائلات الشاذة في أخلاق أفرادها فإن شذوذ هؤلاء الأفراد لا يبرز لنا في وجهة واحدة بل يجمع فنونا مختلفة من البدوات والأخلاق فيكون الرجل غاية في التقدير وأخوه غاية في التبذير ، ويكون فيهم الزاهد المتحرج والجشع المتقمم . وقد يترهب أحدهم وله أخ أو تربيب قد خلع العذار وركب رأسه في الفجور والفحشاء . وقد ذكر (نسبت) صاحب كتاب جنون العبقريّة عائلات عدة من هذا القبيل - منها عائلة (ديجرين) التي قال عنها « إن الشره في هذه العائلة عرض من أعراض الخبل العصبي يلوح إلى جانب البخل والورع الشديد » . وكذلك الطمع ضد بذل المال ولاسيما البذل في سبيل البر ولكنها في حكم الطب فرعان من شجرة واحدة أو كما يقول نسبت أيضاً « أن الطمع وحب البر حالة جسمانية لايزال ارتباطها بالاضطراب في النخاع الشوكي بادياً جلياً » ولاستواء هذه الخلال المتعارضة في التذوّد تقترب أحياناً بشذوذ العبقريّة فيقل في العبقريين الاعتدال ويكثر فيهم الطرفان أي التبذير والشح ، ولا حاجة بنا إلى عد العبقريين المبذرين لأنهم الفريق الغالب بينهم . أما الأشحاء فعندنا جماعة تذكر منهم جريراً وسهل بن هارون وأبا العتاهية والبحترى ومروان بن أبي حفصة والمتنبى وأبا الفرج الأصبهاني . وهم من فحول شعرائنا وكتابتنا . ومن ذكرهم (نسبت) عائلة اقترنت فيها العبقريّة في القانون والشعر والموسيقى والأدب بالحذق في تدبير المال ، وهي عائلة نورث الشهيرة . فبعد أن ألمع إلى علاقة الحرص بالعبقريّة استطرده فقال « لقد كان فرنسيز نورث خازن جيمس الثاني أحد إخوة خمسة لهم أخت واحدة وكان أبو هذه العائلة يقرض الشعر ويباشر المسائل المالية فورث عنه أبنائه هذه الملكة الأخيرة وظهرت فيهم مظاهر شتى ، فمنهم هذا الخازن وكان أديباً مدبراً وقد وصفه ماكولى بالأنثرة والجبن وخسة النفس . . . » ومضى يسرد أسماء الإخوة ويصفهم بما لايجرح عن مفاد هذه

إنكار الذات والمفاداة بالنفس اللذين يحتملها العاشق عن طيب خاطر مرضاة لعشوقه ظاهراً في عاشق الكنيسة يمثّل تلك الغيرة أو بأشد منها وإن كان ظهورها من شكل آخر . فكان الكنيسة حلت محل المعشوق في هذه الحالة . وكذلك متى استعصى على العاطفة أن تنحصر في فرد واحد اتسع نطاقها فأعربت عن نفسها في أعمال البر وخدمة البشر . ولكن لا بد من دخول عنصر المفاداة بالنفس في هذه الأعمال أو تظل العاطفة متطلعة غير مقتنعة ويظل الإعراب عنها ناقصاً . وهذا هو السر في ما نشاهده من أن أعمال البر القائمة على الهوى الديني والتي تشتق مصدرها البعيد من الهوى الجنسي لا تزال تبدو بأساليب شتى كلها ينطوى على المفاداة بالنفس والإيثار عليها » .

وهذا قول بمنزلة البدائه عند أكثر الأطباء المشتغلين بطبائع العقل ، فلا نخال سواد القراء يستبعدونه لأن الوقائع التي تؤيده كثيرة ويندر ألا يرى أحدهم أناساً من الغالين في الدين انقلبوا إلى الغلو في اللهو أو أناساً من الغالين في اللهو انقلبوا إلى الغلو في الدين . يرون ذلك فيهم ولا يرونه في المعتدلين القاسطين إلا في الفرط القليل . وهم يعجبون لذلك ولكنهم يقولون غلبت عليه الشقوة أو تاب عليه الله ، وبعد فليس أشهر من رمز المتصوفة والزهاد إلى الجمال وكلفهم به إعجاباً بصنع الله ومزجهم بذلك بين حب الله وحب الجمال الإنساني . ومن الناس من تتعاوره الحالتان للغي آونة وللتقوى آونة أخرى . كأبي نواس الذي نظم في الوعظ ما يزجر المارد ونظم في الغواية ما يفسد العابد . وما كان في إحدى حالتيه مرانياً يعبر عما لا يشعر به ولكنه كان متقلباً لا يندم حتى يأتيه ولا يأتيه حتى يندم . وكأبي العتاهية الذي قضى شطر عمره الأول منغمساً في لذاته وصبواته ثم قضى شطراً من أيامه مبالغاً في التنطس والتكشف ثم حضرته الوفاة فكانت آخر حاجة له في الحياة أن يسمع غناء مخارق . ولقد كان أحرص الناس على عرض الدنيا وهو أكثرهم بياظها عرفاناً وأشدهم للموت ادكاًراً .

وينبغي لنا هنا أن نقول إنه قد مضى الوقت الذي كانوا يقارنون فيه الأخلاق والعادات بأسمائها في اللغة . فالهوى الديني والهوى الجنسي متناقضان أيما تناقض في عرفنا مع أنها متصلان في المنشأ كما رأينا . والسرف ضد الشح في

قد حجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا أن مصليك أتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول ما فيك لله أولياء

ولا نخالنا نغضب روح المعري إذا قلنا إنه لولا عماء وتربيته الأولى وبيت
العلم الذي نشأ فيه والكوارث التي نكبته في صباه والقلاقل التي فشت في زمانه
وشيء من ضعف البنية وما خلفه الجدرى في جسده منذ طفولته لما كان بعيداً أن
ينحو به المزاج السوداوى نحواً آخر غير الزهد والعزلة .

كراهته للبشر :

وقد يرتكب بعض نقاد الغرب مثل هذا الخطأ في تقسيم الشعراء إلى فئتين :
محبى البشر (Philanthropist) وكارهى البشر (Misanthrope) لأنهم يعدون من
كارهى البشر أولئك الشعراء الذين يسخطون على الناس ويتبرمون بهم
ويجتنبون مخالطتهم . وعلى هذا التقسيم يصح أن يعد المعري أكره الناس للناس
لقوله على الأقل :

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر فما بقوا لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس تبرجوا طهارتها إلا إذا زال عن آفاقها الأوس
والحقيقة أن أكره الناس للناس وأضرهم بهم ليسوا بمعزل عنهم ولكنهم هم
الذين يعيشون معهم حيث يصل إليهم أذاهم . وإذا استعملنا المجاز قلنا إنه
لا يقهر الناس إلا رجل يخوض معهم غمار هذا المعترك ويقاتلهم بسلاح أمضى
من سلاحهم . أما اشترم بهم المتتائى عنهم فكثيراً ما يكون رجلاً قليل الشر قد
طرح السلاح والتزهد موقف الحيدة . ولنعلم أن الإنسان لا ينفر من الناس لأنه
لم يستطع أن يكرههم وهو عائش بينهم بل لأنه لم يجد فيهم من يجبونه كما
يجبهم . ولكم كان المعري يعدل عن سوء ظنه بالناس ويسترسل إليهم فيرده
أذاهم إلى سوء الظن بهم ويعجب لنفسه كيف ذهل عن رأيه فيهم وهو القاتل في
ذلك :

الأوصاف . وأراد بهذا وما تقدمه أن يثبت أن للشذوذ أصلاً واحداً وإن تباينت
ألوانه واختلفت فيه آراء الناس فمدحوا بعضاً منه وذموا بعضاً .

ونحن لم نعرض لهذه الآراء لنبخس آراء المعري ونحط من قدر أخلاقه
وخصاله أو نسوى بين ما يمدحه الناس وما يشنأونه من الأخلاق الشاذة ، لأن
تقارب أسباب الشذوذ لا يمنع أن يحب الناس منه ما ينفعهم ويحسن عندهم
ويكرهوا ما يضرهم ويقبح في نظرهم . ولكننا رأينا فريقاً من الكتاب يتلمس
المشابهات بين فئات الشعراء من كل طريق غير طريق المشابهة في الأمزجة .
فبعضهم يقسم الشعراء حسب اختلاف العصور مع أن اختلاف سنى الولادة
لا يستلزم في معظم الأحيان الاختلاف في المشرب الشعري ، كما يلاحظ في شعر
عدى بن زيد المتوفى قبل مولد المعري بنحو خمسة قرون ، فإننا نجده أقرب إليه
في نحيبه على الشعوب المالكة ونعيبه على الدنيا من الشيف الرضى ومهيار
الدلمى وهما من شعراء عصره . وبعضهم يقسم حسب الأسلوب اللغوى وهو
تقسيم لا بأس به إذا كان الغرض منه لغوياً ولكنه لا يغنى في نقد الشعر وتقدير
الشاعر . وبعضهم يقسمهم حسب الموضوعات التي يتناولونها في أشعارهم وكان
الأحرى أن يعنوا بكيفية تناول تلك الموضوعات لا بمجرد تناولها . ومنهم من إذا
بحث في الأخلاق أغفل البواعث الباطنة وتمسك منها بعنواناتها المنكشفة . ومن
هؤلاء من قارن بين المعري وأبي العتاهية فأبعد البون بينها لأن أبا العتاهية كان
يكنز المال وهو يذم الدنيا ويذكر الناس بالموت ولم يكن المعري كذلك . ولعمرى
إن كنز أبا العتاهية للمال لأدل على صحة خوفه من الموت وأبين لمزاجه
السوداوى من القصد وتصديق القول بالعمل . والعجيب أننا كنا تناقش بعض
الأدباء في هذا الصدد فقال إن المعري نفسه كان يكره أن يقارن بأبي العتاهية
واستشهد بقوله فيه :

أبدي العتاهى نسكاً وتاب عن ذكر عتبه
والخوف ألزم سفيان أن يغرق كتبه

كان رأى الشاعر في نفسه حجة على الناس في النظر إليه ، وكان المعري كان
يحسن الظن بنسك أحد غير أبي العتاهية وهو الذى شمل الأتقياء جميعاً بقوله :

وقوله :

كيف لا يشرك المضيقين في النعم ممة قوم عليهم النعماء

وقوله :

ان شقا يلوح في باطن البيرة قسم بيني وبين الضعيف

نعم إن الاشتراكية لا تعتمد في حقوقها على الرحمة ولكنها لا تطلب من شعرائها أكثر مما قال المعري .

الجبر وتحريم اللحم :

وقد قصرنا الكلام إلى الآن على درس مزاج المعري لأننا لا نعود بفلسفة الرجل إلا إلى مرجع واحد وراء كل مرجع ، وهو مزاجه وما أضافه إليه تأثير البيئة والحوادث فكل ما يؤثر عنه من التقشف والتشاؤم والقول بتنازع البقاء والنهي عن الزواج إنما هو نتيجة خلق متأصل فيه لم يزد الاطلاع والتحصيل غير صيغة العبارة واصطلاحات العلم . وما قلناه عن هذه الآراء نقوله عن رأيه في الجبر وتحريم اللحوم . أما الجبر فهو سبيل كل رجل يشعر في نفسه بتضارب الإحساسات وتحكم الطبائع ويعلم بعد مكابحتها أنه لا حيلة له فيها يرضى أو فيها يأبى ، وأنه لا اختيار لعقله فيما ينوي وفيما يصنع ، وما كابد التضارب في الإحساس والفكر أحد كما كابده المعري فذاك هو الذي أمضه وأرهقه حتى انتهى به إلى الجزم بأن الإرادة مغلولة والأهواء مستبدة والعقول مسخرة فكان يقول :

وقد غلب الأحياء من كل وجهة هواهم وإن كانوا غطارفة غلباً

ويقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير

وعلى هذا فهو مبتكر في مذهب الجبر لا مقلد . أما تحريم اللحوم فليس أعجب من القول بأنه اقتفى فيه مذهب الهند أو غيرهم من المتدينين به !! ولو

طهارة مثل في التباعد عنكم وقربكم يدني همومي وأدناسي
وأعجب مني كيف أخطئ دائماً على أنني من أعرف الناس بالناس

وإنه لقول رجل لا يتمالك نفسه أن يتبسط بالمودة لأبناء جنسه ثم لا يلبث
طويلاً حتى ينقبض مكرهاً فيذوق لهذا الانقباض ألماً يجرى على لسانه سخطاً
وتذمراً . وما هو بسخط ولا تذم . وهل ترى في قوله :

إذا كان إكرامى صديقى واجباً فإكرام نفسى لا محالة أوجب
أو قوله :

إن ترد أن تحس حراً من الناس بخير فخص نفسك قبله

إلا قول رجل يرى أن الأنانية خلاف الواجب ولكنها أمر تدعو إليه
الضرورة ، وإلا مجاهدة منه لاقتناع نفسه بخلق جديد لا ترتاح إليه ؟ وهل قال
المعري في الحفيظة على الناس أكثر مما قال في الحفيظة على نفسه ؟ أو هل تمنى
هلاكهم أكثر مما تمنى هلاكه هو نفسه ؟ فهل يقال إذن أن المعري كاره لنفسه
بالمعنى المفهوم من كراهة الإنسان للبشر ؟ ولقد أوصى الإنس بالطير على حين
كان يحذر بعضهم من بعض فقال :

تصدَّق على الطير الغواذى بشرية من الماء واعددها أحق من الإنس
فما جنسها جانٍ عليك أذية بحال إذا ما خفت من ذلك الجنس
ومن هذا وأشباهه ترى أن الرحمة ثابتة في طباعه ولكنه ينتقل بها من موضع
إلى موضع كما ينتقل المرء بالهدية المردودة .

اشتراكيته :

على أن للمعري أحياناً في الرثاء لحال الفقراء كادت تسلكه في عداد شعراء
الاشتراكية كقوله :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معري أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة وبحرم قوتاً واحد وهو أحوج

من الدين ويتقيد به وكان أبو العلاء يستقى من الفلسفة ولا يتقيد بالدين وهذا الفرق ظاهر الأثر في شعر الرجلين . وخصلة أخرى لم تلتفت إليها دائرة المعارف وهي أن أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين في زهده الذى ملأ به ديوانه كان فاسقاً مستهتراً بالمجون بخلاف أبي العلاء الذى استملى الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة والإلحاد فإنه لم يميل إلى الهوى ولم يذهب مذهب المجون .

وترى الكاتب هنا يوافق دائرة المعارف ليخالف مرجليوث وسلمون ، ولكنه لم يشأ أن يوافق الدائرة كل الموافقة فذكر أنه التفت إلى شيء لم تلتفت إليه وهو مجون أبي العتاهية . على أنه عاد بعد ذلك ناقداً بالدائرة في مقارنتها بين المعري وأبيقور وقال :

« أبو العلاء يرى رأى أبيقور هذا كما تدل عليه اللزوميات في مواضع كثيرة نجتزئ منها بقوله :

ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عنى خسنه
فليس من الغريب بعد ذلك أن يشير أبو العلاء بالاشتراكية في النساء الخ »
فكيف إذن تكون مجازاة اللذات روح فلسفة المعري الأخلاقية ولا يكون ثمة شبه بين شعره وشعر أبي العتاهية لأن هذا ماجن مستهتر باللذات ؟ أما نحن فلا يسعنا إلا أن نعجب برأى دائرة المعارف الإسلامية وأن نسوقه شاهداً على ما فضلناه قبل في تحليل أطوار المزاج السوداوى وما ينتاب أصحابه من الأطوار المتناقضة . ولا نقول كما قال الكاتب إن المنطق لا يقبل المتناقضات فيلزم من ذلك أن يكون كل عقل منطقياً في كل حالة من حالاته وأن يكون الطبع جاريماً على منهج العقل في أهوائه ورغباته . وهو خطأ ظاهر لا يقبله المنطق .

وقد حرص هذا الكاتب على أن يوصف بالتدقيق في استقصائه ومع هذا لا يبالي أن يزعم أن المعري « كان على مذهب الباحثين من علماء الإفرنج في هذه الأيام » أى أنه « يمنع أن يكون الناس مشتقين من سنخ واحد » ولا تعلم نحن أن هذا مذهب الباحثين من علماء الإفرنج وإنما هو خاطر مرجح عند طائفة منهم . ولا نحسب الكاتب كان يقبل أن ينسب إلى المعري رأياً كهذا لو أنه

أن المعري كان كاهناً يرهيباً مترعباً لما عجبنا للأمر لأنه إنما يخضع لسُلطان عقيدة دينية ويخشى عقاب قدرة إلهية . أما وهو رجل قد شك في الديانات وهزأ بشعائرها وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم أربعين سنة إلا الإيمان بمذهب البراهمة . وعندنا أن المعري كان لا يشتهى اللحم بطبعه وكان فقيراً مع رحمة مفرطة فيه . وكان به ميل إلى تعذيب النفس كما هو شأن بعض أصحاب الأمراض العصبية في رأى ماكس نوردو وغيره من الأطباء ، ولم يفده عرفانه بمذهب الهنود البراهمة إلا إخراج هذه الميول في صبغة مذهب فلسفى . ولهذا بدأنا مقالنا ونختمه بالقول بأن مفتاح البحث في فلسفة المعري إنما هو درس مزاجه ورد أفكاره وخواصره إلى خواص هذا المزاج التى ساعدتها البيئة على الظهور .

خاتمة :

وقبل أن نختم هذا البحث نستحسن أن ننبه إلى بعض مآخذ لاحظناها على أحد أشياخنا الكاتبين عن المعري بياناً للفرق بين النقد النظرى والنقد الاستقرائى . ونقول إن ذلك الكاتب ، مع عنايته بتتبع الآثار التاريخية وشرح أحوال العصر الذى عاش فيه المعري ، لم يوفق إلى إنصاف المترجمين له ولم يقدر آراءهم قدرها .

فمن ذلك أنه أشار إلى ما ارتآه جورجى زيدان من أن سبب سخط المعري على الدنيا هو عسر الهضم فتعجل برفضه وقرر استحالته ، ولا برهان لديه ينقضه ، ولا ندرى نحن لماذا يستحيل عسر الهضم على رجل دائم الكتابة سوداوى المزاج مدمن لأكل البقول ملازم داره لا يبرحها . وأنه قارن بين أبي العلاء وأبي العتاهية فقال « مرجليوث اجتهد في أنه يقارن بين أبي العلاء وأبي العتاهية في هذا الشعر الفلسفى فزعم أن بين الرجلين تشابهاً وتابعه على ذلك سلمون . ولقد كنا نحب أن نجتهد في بيان هذا الوهم الذى وقع فيه هذان العالمان لولا أن دائرة المعارف الإسلامية التى يكتبها المستشرقون سبقت إلى هذا فجعلت قياس أبي العلاء إلى أبي العتاهية ظلماً وحيثاً إذ كان أبو العتاهية يستقى

السلوى

نعمة من أنعم الله الكبرى^(١) - وترياق للنفس الحزينة مركب في الطباع ترهب إليه في بلواها كما يرجع الجمل إلى سنامه يعتدى منه كلها طال عليه السغب ومسه الضر وأقفرت من حوله الديار . وخير الدواء ما كان من مكنم الداء منبته ومن مادة النفس عنصره ومن جرثومة الشكوى طبيعته . لا يعرف صدق ذلك أحد كما يعرفه أطباء الاجسام والأرواح أو أشباه الأطباء ممن عاجلوا في أنفسهم ما يعالجه الأطباء في أنفس الآخرين . قال ابن الرومي :

إن من ساءه الزمان بشيء لجدير إذن بأن يتسلى
وما أظنه جديراً بالسلوى فحسب فإنما هو مفتقر إليها ومرغم عليها وغير مصروف بأى صارف عنها . وإلا فماذا تراه صانعاً ان لم تشب نفسه إلى أمل في السلوى أو إلى سلوى في الأمل ؟ إنه لن يصنع خيراً من هذين شيئاً .

ولتد تقارب الشبه بين الأمل والسلوى حتى لقد حسبتها أخته أو حسبته توأمها على خلاف المؤلف في التوائم . وإن كان لا بد من نسب فأبوهما الفقدان وأمهما الرغبة . أخذت هي من خشوع أبيها أكثر مما أخذت من جمال أمها . وأخذ هو من جمال أمه أكثر مما أخذ من خشوع أبيه . وكما أن من الأمل أملاً صادقاً وآخر كاذباً كذلك السلوى منها الصحيح المقبول ومنها الزائف المغشوش . فأما السلوى الصحيحة فهي التي تغني صاحبها عما فقدته إلى أن يجد سواه أو يجد ما هو خير منه . وأما السلوى الزائفة فهي التي لا يزال صاحبها فاقداً خاسراً ولا ينتقل بها من خيبة إلا إلى خيبة أفدح منها فهو يتسلى عما ليس يملكه بما ليس يملكه . ليس في دفتره حساب ، بل ليس له دفتر يصلح للمحو والإثبات بل هو نفسه مضاف على حساب الخسارة في دفتر هذا الوجود .

(١) نشرت هذه المقالة في العدد الثامن من صحيفة الرجاء .

قاس درجة العلم في عصره قياساً دقيقاً .

أولاً : لأن القائلين بهذا الرأي من علماء اليوم لم يعمدوا إليه إلا بعد إنعامهم الطويل في درس مسألة الأنواع والأجناس درساً علمياً استقرانياً .

وثانياً : لأن كلام المعري كله خلو من كلمة أخرى تسنده . ولعله لم يرد بقوله :

وما آدم في مذهب العقل واحد ولكنه عند القياس أودم
إلا أن آدم هذا المذكور في الكتب الدينية ليس بأقدم آباء البشر - يفسر هذا المعنى قوله في بيت آخر :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم
فليس الخلاف بين المعري . والمتدينة خلافاً على عدد أصول النوع البشري ولكن على قدم أولها . وأين هذا من رأى تلك الطائفة من علماء اليوم ؟ ونكتفى بهذا القدر إذ كنا لا نقصد إلى نقد الكتاب وإنما مررنا منه بما له مساس بموضوعنا .

غير هذا الخلق . فإننا نرى كثيراً من الضعفاء والأقوياء يبهظهم أن ينهضوا بحصتهم من الأثقال ، ويشق عليهم ما يسهم من الشدائد والأهوال ، فكيف بهم لو ألقيت عليهم مع حصتهم حصص الخلق جميعاً - فأصبح كل ميت عزيز لسواهم كأنه ميت عزيز عليهم ، وكل أمنية يفقدها أحد كأنها هي أمنية ضائعة منهم ، وأصبح ما يشكى العالمين فرداً فرداً يشكيهم على السواء في لذعة الحزن وحرارة الأسف ؟ إذن تقتل الهموم ذوبها وغير ذوبها ثم لا يجدون من يكشف عنهم غمتها ويسرى لوعتها .

وليس بنا من حاجة إلى أن ترهق الناس أعبأنا كما ترهقنا ، وإنما حاجتنا إلى أن يشعروا بأعبائنا ويتلطفوا في تهوين وقعها علينا . وهل تراهم يفعلون ذلك إلا حين يجدونها خفيفة شائعة من حيث نجدتها نحن جسيمة نادرة . أر حين يكونون أقل منا جزعاً لها ودهشة من طروقها ؟؟ ولعل أحب أصدقائنا إلينا هو الذي يكون مع عطفه وخلوص نيته أفدر على تلطيف آلامنا ساعة نحمد له ذلك ، وإن بدا منه في تلك الساعة أنها لا تؤلمه كما تؤلمنا ولا هو يكبرها كما أكبرناها .

أعرف صاحباً ظريفاً كان إذا رُوح عن مهموم أو عاد مريضاً يمزح فيظهر العجب ممن يجزعون من الهم أو يشتكون المرض ويتأفون منه ، ويقول إني والله لأحسب المرض سميراً مسلماً ورفيقاً مؤنساً ، وكأننا مع الإنسان شخص آخر في إهابه يناجيه ويتسمع له ويتحرى رضاه فيلطفه بالطعام المنتخب والشراب الموصى عليه وينفرد به في ليله ونهاره . وكنا نقول له : وما رأيك في مرارة العقار وحبسة الدار والإقصار عن الأوطار ؟؟ فكان يقول : وماذا في هذا . أليس لكل صداقة قيود ؟؟

وأملت بصاحبنا هذا ضائقة فأفرط في الاهتمام لها والاشتغال بها . وقطعته عن عاداته من الدعابة والتبسط في الحديث . وأردنا العبث به فقلنا له : لشد ما احتفتيت بصاحبك هذا الجديد فعساك تحمد عشرته ؟؟ فاستلقتي ضاحكاً وقال : قاتل الله الأصدقاء !! ما بقي في الدنيا صاحب موافق قط .

والسلوى كالأمن دليل غنى النفس وغزارة مواردها ووفرة ذخيرتها واستكمال عدتها لملاقاة الخطوب ومنازلة الحوادث . فمن كانت ذخيرته من السلوى ناضبة كان كالتاجر الفقير الذي تعصف برأس ماله أول صدمة من صدمات السوق ثم يقعد بعدها خاوي الوفاض منقطع الأسباب . وليس كذلك التاجر العامر فإنه لن يعدم من ماله أو من الثقة به حيلة يتلافى بها خسارته ويصلح شأنه ويترق . من ورائها الريح الجزيل ، بما يكون له منه سداد لدينه وعوض ينسيه ما فاته .

على أن الأمل لا يؤذن له في كل مكان تدخله السلوى . وقد يكمل الأمل عن غاية من الغايات فيقف دونها أو يحجب عنها وتبلغها السلوى فتنزله فيها بين الرضى والحفاوة . وماذا يجدى الأمل شيئاً فانياً فجوع في وحيد له أودعه من الدنيا كل أمله وغاية مطامعه ؟ أو ماذا يجدى الأمل مكفوفاً ذهب عنه بصره إلى حيث لا يرده عليه طب ولا مال ولا يرجو له معجزة تخرق نظام الحياة من أجله ؟ أو ماذا يجدى الأمل ملكاً خلع عن عرشه وأبعد عن ملكه إلى حيث لا نجاة ولا رجعة لغير التراب ؟ عند السلوى لهؤلاء ومن شاكلهم زاد كثير وليس لهم شيء عند الأمل . فليتبلغوا بزاد السلوى إذا ارتد عنهم الأمل يائساً . وويل للنفس إذا يثتت منها السلوى بعد يأس الأمل منها ، فإنها تكون قد نضبت وأصفر نصيبها من الدنيا فلم يبق لها إلا الموت أو الجنون . وطوبى للنفس السالية فإن المصائب لن تأخذ منها كل ما يؤخذ من النفوس .

ومن الغرائب البينة في خيال الناس أنه مها توالى من تجربة الإنسان لحوادث الأيام ، وبالغة ما بلغت خبرته بلواعج الحزن فإنه لا يبرح يستخف حمل المصائب البعيدة عنه ولا يتمثلها على حقيقتها ولا يشعر بالألم في نفس غيره كما يشعر به في نفسه . قال روشفكول : « كلنا أولو قدرة كافية على حمل مصائب سوانا » . وكأني به يعيب على الناس هذا الخلق وما به من عيب ، ألسنا نحب أن نخف عن عاتقنا مصائبنا ؟؟ فما بالنا نطلب أن نتقل علينا مصائب غيرنا ؟؟

ولو فكرنا قليلاً لرأينا الطامة الكبرى التي تحيق بالناس لو أنهم طبعوا على

آراء في الأساطير

المذهب التشخيصي اللغوي^(١) :

الرأى التشخيصى هو أصوب الآراء فى تعليل منشأ الأساطير وأقربها إلى الإقناع وأجمعها لأوجه التطبيق والتأويل . وفحوى هذا الرأى أن من ديدن الإنسان أن يخلع شخصيته على الموجودات ويتمثل ذاته فى القوى والعناصر المجردة فىرى لها عامداً أو غير عامد شخصاً كشخصه ونية كنيته وحياة كحياته ، وإن هذا الوهم الذى لا يحصى للمرء عنه يظهر أشد الظهور فى الطفل والرجل الشرس السيئ الخلق ؛ فترى الطفل يضاحك الأشياء ويفاضبها ويحنق عليها والرجل الشرس يصيح بها وسبها ويقتص منها كأنها تفهم ما يقول أو تقصد ما تعمل . وقد يظهر فى الرجل الرشيد إذا ملكه الحزن أو الغيظ فيخاطب ما لا يعقل خطاب العقلاء . ومنذ زمن لا عهد لنا بمبدئه وصفت اللغات الأشياء بصفات الأدميين ونحلتها أعضاءهم وأفعالهم وحمدت منها أو ذمت ما يحمد أو يذم من الناس وقسمت ما ليست له ذكورة ولا أنوثة إلى ذكر وأنثى . ولولا غريزة التشخيص لما سميت بعض الأشياء بأسماء المذكر وبعضها بأسماء المؤنث حسب ما يتصوره فيها الإنسان مما يقابل صفة الرجل عنده أو صفة المرأة - وقد أسهب فى تحليل هذه الغريزة الأستاذ الإيطالى تيتو فينولى^(٢) فى رسالته الموسومة (بالخرافة والعلم) ولخصها فى قوله : « لم يفتأ علماء الناس وجهلاؤهم يتكلمون عن الجمادات كأنها تعقل وتشعر وفى ذلك إشارة إلى الأصل البعيد للمذهب القائل بتشخيص الإنسان لجميع المواد الطبيعية كما فيه إشارة إلى أن عقولنا لم تنخلص بعد من هذه العادة . ولذلك

(١) من كتاب « ساعات بين الكتب » .

(٢) Myth and Science by Tito Vignoli

وعندى أن المرء يغبط على هذا المزاج الذى لا يعين صاحبه أن يتخذ من الهموم والسقام رفقاء وسامراً يحفظ عهدهم وإن لم يحفظوا عهده ويأبى رقدهم وهم يطلبون رفته . وليس كلامنا هنا إلا على الذين يحتاجون إلى السلوى ، فأما الذين لحظتهم العناية وحالفتهم الجود المقبلة فأصبحوا يتقلبون فى حياتهم من نصر إلى نصر ومن نجاح إلى نجاح لا يقفون لحساب خسارة ولا للتدبير بموعظة ، فأولئك يغنيهم الله عن صداقة الأوصاب والشجون ، ومشاورة الأحقاب والقرون ، وأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والضر ، ويعتقدون أنها تتغذى مثلهم وتنكح وتشتهى من متع العيش ما يشتهي الأحياء فيتقربون إليها بما يرضيها ويدفنون النساء مع الهالكين ليلحقن بهم . وإن قوماً من هؤلاء الأجداد كانوا يدعون باسم الشمس والقمر والعناصر الطبيعية ثم يموتون وينسى الناس تواريخهم وأشخاصهم فينسون ما حفظوه عنهم من النوادر والأخبار إلى مسمياتهم ، يعنى الشمس والقمر والعناصر الطبيعية ، فيقولون الشمس أحبت والقمر صنع كذا وكذا . والحقيقة أن الرجل الذى كان اسمه القمر أو الشمس هو الفاعل الأول لتلك الأفعال .

وهذا رأى وجيه سهل به تعليل كثير من الأساطير الهمجية ولكنه لا يعارض الرأى التشخيصى ولا ينفى أن الانسان قد جُبل على أن يفترض للكائنات شخصاً يرسمه فى مخيلته على مثال شخصه ، ويجعل لها إرادة ورغبة مثل إرادته ورغبته ، ويأنس بها ويحاذرها أحياناً . ومتى كان مجبولاً على ذلك فلماذا يستغرب منه اختراع تلك الأساطير ثم الإيمان بها ، ولا سيما إذا عرفنا أن الغريزة التشخيصية عريقة فى الحيوان قبل الإنسان ؟؟ ونحن نعرف ذلك لأنه ظاهر من عدة مشاهدات ملحوظة نسوق منها ما قصه دارون فى كتابه أصل الإنسان عن كلبه حيث يقول : « كان الكلب راقداً على العشب فى يوم قانظ وعلى مسافة قريبة منه مظلة مفتوحة هبت عليها نسمة رخيمة فحركتها حركة كان لا يلتفت إليها الكلب لو أنه أبصر بجانب المظلة إنساناً ولكنه كان كلما اهتزت المظلة عوى عواء شديداً ، وأظنه خطر له بسرعة وعلى وجه غير محسوس أن الاهتزاز يغير محرك ظاهر يشير إلى وجود فاعل خفى » واستنتج دارون من ذلك أن للحيوانات إلهاماً بالأرواح ، وهو بعيد ، وكل ما يؤخذ من عمل الكلب أن الحيوان يوجس من الجماد إذا اضطرب أو تقلقل لأنه لا يسهه الحكم باستحالة صدور الأذى منه . وقيل أن تلجأ إلى استنتاج داروين ينبغى أن نتأكد من أن بديهية الحيوان تفصل بين طبيعته الحياه والجمود . فهل هذا معقول ؟ ومن منام ير سنوراً يعبت بالخرق والريش كما يعبت بالفأر ؟ أو ير جواداً يجفل من الأغصان كما يجفل من الثعبان أو يتحاشى بعض الأشجار كلما دنا منها كأنه يتوقع عندها مكيدة ؟؟ وقد أورد صاحب كتاب الخرافة والعلم مشاهدات كهذه

تردد الكلمات عفواً على ألسنتنا فى سياقها العتيق فنسمعنا نقول : جو طيب وجو ردى ، وريح خرقاء أو هوجاء ، ويحر غدار ، وصخر عنيد إذا صعب علينا تحريكه . وقد نعتف الموانع والعراقل كأنها تسمعنا . ونقول فصل متقلب أو خداع وأن الشمس كئيبة لا تشاء أن تضىئ وأن السماء تنوع بالثلج وهذا نبات قد خنقه الحر وهذه تربة عصية وتلك تربة ليست بالمستوحشة أى أنها تصلح للزراع . والأرض تضحك خصباً وإيناعاً رشتال زهواً وإمراعاً ، ويقال نهر سوء وبركة تبتلع الناس وصعيد عطشان يترشف الماء وإن النبات يخاف البرد - ويقول أهل بستوجا إن بعض أشجار الزيتون لا تتوجع للضرب ولا تخاف كيت وكيت أو أنها تعيش ولا تأبه لمر السنين . ويقولون أيضاً إن شجر الزيتون لا يهاب المناجل ويلتذ قطعها فيه إذا أعملتها يد ماهرة . وغير هذا ألوف من الأمثلة يمكن إيرادها . فمن رام التوسع من قراننا فعليه بكتاب جيليانى (اللغة التوسكانية الحية) .

« ولا نقنع بأن ننحل الأشياء أفعالنا وشعورنا بل ننحلها كذلك هيئاتنا وجوارحنا فنقول رأس الجبل وكتفه وخلفه وقدمه وأضراسه وأحشاؤه ، ونقول ذراع من البحر ولسان من الأرض وثمر المرقأ أو الكهف أو البركان ووجه المنزل وقرن الهوة وعين السماء وشريان المنجم ، وإن جبال الألب صلعاء أى جرداء والثرى أجد ، وهذا شىء ميمون الطالع أو منحوسه وجبل عملاق أو قزم الخ الخ » .

ومن هذه الغريزة تولدت الاساطير والحكايات التى يروها القدماء عن الكواكب والأشجار والبحار وما ينسبونه إليها من خلائق الإنسان كالغرام والولادة والانتقام ورغبات أخرى مما لا يحصل من غير بنى آدم .

مذهب سينسر :

وللفيلسوف الانكليزى هربرت سينسر رأى غير الرأى التشخيصى فى منشأ الخرافات والأساطير . فعنده أنها ترجع إلى عبادة الموق ، وتفسير ذلك أن الهمج كانوا يعبدون أرواح أسلافهم وأبائهم ويعزون إليها ما يصيبهم من الخير

مثلاً (أنا أحب الفضيلة) لم تقترن بكلمة الفضيلة أية صورة لأن الفضيلة ليست كائنًا ولا هي بحال من الشخصية أو القالب أو الصورة الخارجية . وليس لها هيئة تؤثر في عقولنا أثرًا ملموسًا وإنما هي تعبير مختزل من جملة طويلة . وأول ما قال قائل أحب الفضيلة فإنما كان يعنى : أحب كل شيء فاضل . وقال مولر أيضًا : « ليس في طاقتنا أن نستحضر في أخلادنا العاطفة التي بها كان ينظر الأقدمون إلى آيات الطبيعة إذ كل شيء عندنا بقانون قاهر وحسبان مقدور ، وفي استطاعتنا أن نحصر قوة الجو العكسية ونذرع مد الفجر في كل سماء ، وشروق الشمس عندنا حقيقة نحن لا نشك فيها إلا كما نشك في أن اثنين واثنين أربعة . ولكن هب أننا استطعنا أن نعود كأسلافنا فنؤمن بأن في الشمس ربا على مثالنا وأن في الفجر روحًا يشاطرنا العاطفة واستطعنا برهة أن نتخيلها كائنات مطلقة من ربة النواميس ، معبودة كما تعبد الآلهة ، فما أشد ما يتغير إحساسنا بيزوغ النهار .

« فاعلم أن قولنا أن الشمس ستشرق حتى جزم لم يفهمه الأقدمون من عباد الطبيعة . وإذا طرأ عليهم شبهة من انتظام الشمس والأفلاك في دورانها فما أن يزالون يحسبون أنها أسرى مغلولة إلى أجل مسخرة في طاعة قدرة أعلى وأكمل . ولسوف يخلى عنها في يوم من الأيام كما سيخلى عن هرقل فترقى إلى المقام الأسنى . وقد يلوح لنا من السذاجة الصبانية ما نقرأه أحيانا في (الفيدا) من أمثال هذه الأسئلة : ترى هل تطلع الشمس غدًا ؟؟ أيرجع صاحبنا القديم الفجر ؟؟ أيلظف إله النور بجنود الظلام ؟؟ ومتى ذر حاجب الشمس عجيبوا لها كيف تقوى في المهد على تجديد أفاعى الليل وكيف تطيق الوليدة عبور السماء . وسألوا ما بال طريقها نقيه من الغبار وكيف لا تنقلب فتسقط . ثم لا يلبثون أن يجيها تحية الشاعر العصري « مرحبا أيها الظافر الشرقي بالليل العيوس » إلخ إلخ .

وخلاصة هذه الآراء أن الإنسان مشخص برغمه ، فهو إذا تمثل قوة مجردة أو محسة وهبها زيه وبسط عليها زواله ونحلها أعماله .

شهدها في بعض الحيوانات لا حاجة بنا إلى إيرادها لكونها مألوفة مسلمة . على هذا درج الإدراك الحيواني مشخصًا في العجاوات قبل الإنسان ، فلا داعى إلى القول بأن ما يتحدث به من أساطير الأقمار والكواكب والعناصر منقول عن رجال عرفوا بأسمائها في الزمن القديم ، وليس من الجائز أن يكون الإنسان قد تبطن كنه الأجرام السماوية حين عهد موتاه فعرّفها تام المعرفة ولم ينظر إليها نظرة إلى الحى الذى يريد ويعمل ويناط به السعد والنحس . وعلى أن تسمية الناس بأسماء الكواكب يشهد بصحة المذهب التشخيصى وعمق مصدره من المخيلة . وإلا فهل كان الهمج يسمون زعماءهم بأسمائها أو يسمونهم بسيمائها إن كان ليس لها في نفوسهم شخصية وليس بينها وبين زعمانهم مشاكلة ؟؟ .

المذهب اللغوى :

ورأى ثالث في منشأ الأساطير للبحانة اللغوى ماكس مولر . يقول هذا البحاثة « إن وصف الكائنات بصفات الإنسان ضرورة أوجبها ضيق اللغة في الأيام الفارطة . فكانوا إذا جعلوا الشمس أما فعلى سبيل الاستعارة كقولنا مثلاً إن إيطاليا أم الفنون ، ولكنهم لضيق اللغة كانوا يعممون ذلك في حديثهم فيسرى منه إلى المخيلة عفوًا وعلى غير قصد ، وهذا القول من المذاهب المعول عليها في تفسير طائفة من الأساطير الإغريقية والهندية . إذ لا ريب أن الاستعارة اللغوية أصل وشيخ من أساطير الأمم نابت بعضها من بعض كما يقول مولر . ولكن ضيق اللغة إذا جاز أن يكون سببًا لتسمية الجمادات بأسماء الإنسان فيما هو بمنزلة في تأويل خوفه منها وتأميله فيها فضلًا عن تأويل ذلك في أطفال لا يتكلمون وفي عجاوات لا تعوزها اللغة ، ومولر نفسه قد أتى في عرض كلامه على مقابلة الأساطير بشذرات هي مؤدى المذهب التشخيصى برمته فقال : « كيفما صرفنا اللغة لم نجد كلمة مجردة إلا وجدنا أنها في أصل اشتقاقها كانت حفة ثم صارت أسبًا . وإن من أعسر المسائل على الذهن أن يدرك الصفة في هيئة ما مجردة إن لم نقل أن ذلك محال من الوجهة المنطقية . فإذا قال قائل

أساطير العرب :

وعسيث تقول : إن كان هذا هكذا فملكة الأساطير مستقرة في كل نفس ، مشاعة في كل جنس . فما بال أمم نراها لا تلزم بالأساطير حدا ، وأمم أخرى كالعرب مثلا تنزر بينها جدًا ؛ وتعد فيها مشخصات الطبيعة عدًا ؟؟

تقول : إن هذه الملكة وإن كانت من الملكات المشاعة إلا أن ظواهر الطبيعة التي بها تلبس الأساطير وعليها تدور حوادثها لا تتراعى في كل إقليم على وتيرة واحدة ولا تطرق خيال الأمم على نسق فرد ، وإنما تتفق الملكة وتسخر على قدر ما يعرفها من هول : الظواهر وتوالى تطوارها عليها .

وما أحسن ما كتب المسعودي في هذا المعنى إذ يقول : « إن ما تذكره العرب وتكفي به من ذلك إنما يعرض لها من قبيل التوحيد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامه الموحشة لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن يوجد له تفكر ووجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية الفاسدة فصورت له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهته المحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس - وقطب ذلك وأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى أو طريق مستقيم سليم ، لأن المتفرد في القفار مستشعر للمخاوف متوهم للمتائف متوقع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه فتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف . »

فهذا كلام سديد ولكنه شتان مخاوف البطحاء المكشوفة والأودية المعروفة ، ومخاوف بلاد كالهند مثلاً - بلاد تجللها الأسرار فكل ما فيها رائع فخم - فمن أطواد سامقة يعمر سفوحها الخراب ، وينقطع دون رؤوسها السحاب ، إلى آجام تمادى بها القدم حتى غاب من جذوعها في التاريخ أكثر مما غاب في التراب ، إلى بروق ورعود فيها من الوعيد أضعاف ما فيها من الوعود ، إلى تماسيح في الأنهار وتنانين في القفار ، إلى أسود وغور ، وبزاة ونسور ، وكهوف وصخور ، وطوفانات وبحور إلى غير ذلك مما يجسم الوهم الطفيف ، ويفسح للمخيلة مجال التصوير والتكليف .

ألم تر أن العرب لما ابتدعوا أساطيرهم كانت مما يجيء من قبل الحواس لا من قبل الخيال وكانت هواتف وأصداء وهاماً تسمعها الأذن ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة ؟؟ وما هكذا كانت أساطير الآريين الذين قد يصفون لك الشبح من أشباح الأساطير وصف العيان والتحقيق ، ويفصلون لك من سماتها كيف كانت أرؤسها وأبدانها ، وكيف أظافرها وأسنانها ، وكيف شياتها وألوانها . ثم يتلون عليك من الحوادث ما يوافق الملامح والمخايل مع براعة وقوة مستمدة من روح نباضة وطبيعة فياضة .

ولم نعرف في أساطير العرب روحاً جباراً يهيمن عن فلك من الأفلاك أو يشتمل على ظاهرة طبيعية رائعة مدهشة ، فحتى شياطينهم شياطين هينة يؤاكلونها ويذاملونها ، ولا يختلف خوفهم منها عن خوف الرجل من الفرس العائر أو الكلب العقور ، فكأنما هي فصيلة - داجنة من الجن .. وأما الغول والرخ والسعادين فهي إن كانت اختراعاً فلا تنطوي على رمز جليل ، وإن كانت مبالغة في جوارح وكواسر موجودة فللمخيلة فيها عمل ضئيل ، وهم خلا ذلك أفاويل في النجوم تشبه الأساطير كزعمهم في رواية ابن دريد « أن الشعريين أختا سهيل وكانت كلها مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانيا وتبعته الشعري اليمانية فعبرت البحر أو المجرة فسميت عبورا أو أقامت الغميصاء مكانها فبكت لفقدتها حتى غمضت عينها » أو أن العيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ولذلك سموا هذه النجوم القلاص « إلخ إلخ . فهذه الأفاويل على كونها من باب الحدس (Fancy) لا من باب الخيال (Imagination) ليست هي بالمستكثرة على العرب وهم ما هم ترصدًا للأجرام ومواقيتها وترقبًا للأنواء ومهائبها لما هم مضطرون إليه من متابعة الإسناد ومواصلة الارتباد .

وكالعرب في هذه الحصنة كل أمة تقطن السهول والدياميم القاحلة . لا فرق بين آريين وساميين . فالأمة الميدية - وهي أمة آرية - كانت قليلة الأساطير جدا ، ولم تكن في ديانتهم آلهة للشرا لقللة ما يرهبون من قوى الطبيعة وكانوا لا يلبسون معبوداتهم بالقوى الطبيعية ولا ينصبون لها نصباً وأصناماً ، وفي

الحبلى كما كان يفهم واضعو هذا الاسم ، وإذا قال إن الطبيعة تلد النبات والماء والحيوان عسر على الذهن أن يذهب إلى ذلك المجاز البعيد وسبق إليه أن صاحبة (العَلَم) أم حقيقية وأن هنالك أسرة أمها الطبيعة وأبناؤها وبناتها الأنهار والأشجار والأنعام . ثم تنشأ الأسطورة بهذا المعنى .

وثانيهما المترادفات - وذلك أنهم كانوا في إبان طفولة اللغة يسمون الشيء بأشهر أعماله وأظهر أوصافه فكان يقال نذخت (التى تحلب) لأن عملها في البيت حلب الماشية ويقال للأخ (الذى يحمل) لأنه يعاون أباه في حمل الأتقال ثم تنسى هذه الأعمال والأوصاف ولا تبقى منها إلا أعلام منوطة بسمياتها . فمن ذلك أنه كان للأرض في السنسكريتية واحد وعشرون علماً كلها صفات كالعظيمة والواسعة والعريضة الخ . ولما كانت الأشياء تتشابه في الصفات فقد كان يتفق أن يسمى الشيطان المختلفان باسم واحد . فإذا اتفق الأسد والشمس مثلاً في الاسم ألحق الناس بالشمس كل ما هو للأسد من الصفات فتسمع حينئذ بلبد الشمس وبراتها وبفرائسها وعريتها وتسمع بالشمس الفاتكة والشمس المزججة والشمس المرعبة ، ثم يتألف من ذلك قصص تسير مسير الأسطورة . ويتعدها الخيال فلا تزال حتى تخفى جذورها في فروعها .

ولترجع إلى الألفاظ المستعارة عند العرب . فقد نجد أنها في الغالب كلمات ما برح معنويها يمتزج بحسيها إلى الآن . ويندر بين مفرداتها كلمة تجردت لما استعيرت له دون ما استعيرت منه ، فأنت تقول خجل فلان من الفعل القبيح ثم تقول خجل في الثوب أى تعثر فيه ، وخجل البعير في الوحل أى تحير . وكتب القلوص أو كتب الكلمة قيدها . وهكذا لب اللبيب ولب الفاكهة ، وعقل الرجل وعقل الناقة ، وزاملت الرجل صادقته وزاملته أيضاً رافقته على الزاملة ، وبايعت الملك على الملك أو بايعت التاجر على السلعة . وتقول رجل محب وامرأة محب كقولك رجل محب أى بآرك لا ينهض كأنهم يكون عن حب المرأة وبإناخة الإبل عند خيبتها .

ونحن نقول الجمال أو العفاف ونعني بها شيئاً معنوياً والجمال عندهم مأخوذ من الجميل أى الشحم ، والعفاف من العفاة أى بقية اللبن .

زعمهم أن إلههم الأكبر يقيم بمكان بعيد عن هذه الأرض لا يدنو إليه أحد من الناس ويبسط إليهم منه بالوحى ملائكة يرون الناس من حيث لا يرونهم - تلك كانت عقائد الميدين في الإلهيات والعالم الأخير فهم والعرب في هذا المجال سواء .

وهناك سيبان آخران لندرة الأساطير عند العرب - أولها يظهر من تطبيق رأى سينسر والثاني من تطبيق رأى مولر - وهما رأيان لا يخفى أنها لا يرفضان كل الرفض - فسواء أخذنا بعبادة الموقى وهى رأى سينسر أو أخذنا بالاستعارة اللغوية وهى رأى مولر فالنتيجة واحدة ؛ وهى أن الأمة العربية لا تكون بحسب واحد من هذين الرأيين كثيرة الأساطير والحكايات التى تجرى مجراها .

فإذا أخذنا بتعليل عبادة الموقى فالعرب لم ينسوا حديث آبائهم الذين كانوا يعبدونهم ولم يزل معروهم إلى ما بعد الإسلام يذكرون أن اللات إحدى آلهتهم كانت في الأصل رجلاً صالحاً يلت السوق للحجاج فلما مات مثلوا له مثلاً وعبدوه ، وهذا ابن القيم يقول في كتابه إغاثة اللهفان : « فطائفة دعاهم الشيطان إلى عبادتها (الأصنام) من جهة تعظيم الموقى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما يروى عن هشام عن أبيه أنه قال : كان ودّ وسواع ويفوث ويعوق ونسر قومًا صالحين فماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو قرياهم فقال رجل من بنى قاييل يا قوم هل لكم أن تعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا ؟ قالوا نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول » ا هـ .

وأما الاستعارة اللغوية فعولر يبنى رأيه فيها على أساسين :

أولها قدم الاستعارة ، ونضرب لها مثلاً كلمة الطبيعة التى أصل معناها الحبلى - سموا الطبيعة بهذا الاسم لأنها أكثر الأشياء إنتاجاً وولادة ثم نسي سبب التسمية حتى صاروا إذا قال القائل (الطبيعة) لم تدل عند السامع على

لا تجود بها إلا قريحة يقظة جواله ، ولكنهم كانوا قبائل رحلا يؤمنون المدن في
مواسم تنقسمها العبادة والتجارة والخطابة فانتشر التاريخ والإقليم واللغة على أن
يكون العرب أمة بلا خيال ، وأهون بذلك لولا أن سعة الدنيا من سعة الخيال ،
وإن حلى الحياة إنما تصاغ من معادنه وكنوزه .

وحسبك أن الميول والعواطف والحقائق هي في اللغة العربية كلمات لم تغلب
عليها الصبغة المعنوية بعد فتسند إلى أنزه المعاني كما تسند إلى أكثف الأجسام .
بل إن الروح والنفس والنسمة لا تزال بين مدلولاتها وبين الهواء^(١) كأقدم
ما سميت به في لغة من اللغات ولم تكذباً تبدأ بينها الفوارق كما بدأت في اللغات
الأخرى .

وأما المترادفات في كلام العرب فما كان منها جامداً فهو منقول بحروفه عن
اللغات التي تفرعت منها اللغة العربية . وما كان مشتقاً فهو حتى اليوم صفات
شقي لاسم أو أكثر . خذ مثلاً لذلك مرادفات السيف اليماني والهندواني
والقساسي والحسام والمشطب والعضب والصارم والجرار إل آخرها ، فهل ترى
إلا أنها صفات مشتقة أو نسوبة ؟؟ وقس عليها أغلب المترادفات التي لم
تتغلغل في القدم بحيث تخفى أصولها فتتوالد منها الأساطير على نحو ما ألمع إليه
مولر . إذ كلها حديثة الاشتقاق لا يدخل البحث عن جذورها ومصادرها في
عمل الباحث اللغوي لأنه عمل يستطيعه النحويون والصرفيون .

ولو استبحر بالعرب الذين وصلت إلينا لغتهم عمران واستتب لهم مدن
وأمصار ورفعت لهم فيها البيع والهياكل تتلى فيها الصلوات بالغداة والعشي
ويصدر منها الكهنة إلى الناس بالأسرار والألقى ، لكان لهم على الأقل أساطير
وتخرصات على منوال الإسرائيليات التي عادوا فاقتبسوها بعد الإسلام ، وإن
كانت هي أدخل في باب الرؤى المباحة لكل نائم منها في باب الخيالات التي

(١) كان المتوحشون لا يفهمون من الروح إلا إنها هي النفس المتصاعد بين الزفر والنهيق لأنهم
يروون الواحد منهم بخير ما تنفس فإذا مات أو اغشى عليه سكن صدره . قال جرانت الن في كتابه (نشأة
العقيدة بالة) : « ما هو ذلك الجزء الذي يغادر الجسم وينأى عنه في الألام إلا أن يكون هو الروح
أو النفس الذي يرى الوحشي أنه شيء منفصل قائم بذاته . ثم إذا مات إنسان ألا يشاهد الوحشي أن
هذه الروح أو النفس يبتعد عنه ؟؟ وإذا جرح جرحاً بالغا ألا يتوارى وقتاً ما ثم يرتد إليه ؟؟ ثم ليست
هي تغل الجسد أو تعبت به أحياناً في حال الإغفاء والنشج وغيرها من الحالات الطارئة ؟؟ ولا حاجة بي
إلى الإفاضة في هذه الفكرة فقد فصلها المستر هربرت سنسر والدكتور تبلور . وبحسبنا أن الإنسان أخذ
يعتقد من تاريخ سحيق بأن الروح أو الحياة شيء مرتبط بالتنفس وأنها شيء يرح الجسم أو يحمل فيه
حسب مشيئته » .

الغريبة في الأعمال الاقتصادية والأدبية وغيرها . فقليل في هؤلاء الشبان من يحسب الحياة أوسع من هذه المعالم المطروقة التي يتناولها حساب الحيلة والتقية المحفوظة عن ظهر قلب . وعندهم أن المخاطرة في كل أحوالها شعبة من الجنون وضرب من الخطل إن أفلح فإنما هو الخطل المرفق . وأقرب ما نؤول به ذلك أن السلامة هي الفضيلة العليا عند هذا الفريق من الشبان وأن الدنيا برحبتها في رأيهم هي هذه الطرق المعبدة من العيش التي يسير فيها المرء مغمضاً كما يسير مفتوح العين بصيراً . وليس أدل على الجمود وركود العقل من غلبة هذا الاعتقاد لأن المخاطرة عامل لا يمكن إغفاله في باب من أبواب العمل . وروح المخاطرة عميقة في الحياة . لا بل الحياة نفسها مخاطرة في عالم مجهول . وكل فتح جديد فيها إنما هو مخاطرة جديدة . فمن لم يخاطر مختاراً بالإقدام على ما يخاف خاطر مكرهاً بالزهد في ما يطمح إليه وبهواه .

وقد يضحك ويكي أن تسمع رأي أولئك الشبان في المخاطرين الذين تصل إليهم أخبارهم على سبيل التفككة والتنادر بالغرائب . أذكر أن رجلاً أمريكياً كان من همه أن يحمل الناس على التحدث بعمل مدهش يقدم عليه قدخل في برميل من الحديد ودفع بنفسه في جنادل « نياجرا » ليعبرها من شط إلى شط ولم يكن على رهان ولا موعوداً بجائزة . فما كاد البرميل يمس الماء حتى تقاذفته اللجة فتحطم ومات الرجل . وهي ميتة قاسية لم يقدم عليها ذلك المخاطر إلا لأن النجاة منها كانت تعد أعجوبة في العالم من أندر الأعاجيب . ولا نشك في أن الأمريكيان أنفسهم استحمقوا الرجل ورموه بالسخف والجنون ولكننا لا نشك أيضاً في أنهم قد أدركوا جميعاً « مسوغاً » لتلك الحماقة وتمثل لهم حظ جميل كان ينتظر الرجل عند محبي الغرائب ومحباتها من أبناء أمريكا وبناتها . وفهموا أن هذا الولع بالمخاطر على شذوذه واعوجاجه ينتمى في النفس الإنسانية إلى عاطفة كريمة هي صاحبة الفضل في كل ما بلغه الناس من التقدم على أيدي المجازفين والشهداء . وإليها يجب أن ينسب كل معلوم كان مجهولاً ، وكل مألوف كان محذوراً ، وكل سهل كان صعباً ، وكل حق كان نهيًا ، وكل أرض كشفتها رحلة مرهوبة . وكل شر دلت عليه تجربة متلفة - بل كل دين أو رأي أو اختراع أنكره الناس قبل أن يسلموا به وذادوه قبل أن يذودوا عنه .

الألعاب الرياضية

إن حاجتنا^(١) إلى العناية بالألعاب الرياضية ليست مما يجوز أن يوضع موضع الخلاف إذ هي لا تقل في لزومها للتلامذة عن مواد التعليم نفسه ، ولا تكون مغالين إذا قلنا إنها مقدمة عليها في كثير من الاعتبارات . لأننا نعد الألعاب الرياضية الصحيحة تمرينا نفسيا عقليا قبل أن نعدنا تمرينا يعود صلاحه على الجسد ، وحده ، ولا نكاد نعرف أمة شعرت بالتقدم والتثاقف إلا رأينا فيها مع شعورها هذا شغفاً شديداً بالرياضة البدنية . وهذه إنجلترا واليابان شاهدان على ذلك في التاريخ الحديث فقد بلغ من اهتمام الإنجليز بالألعاب أن يترك أعضاء مجلس النواب الجلسة ليشهدوا إحدى مسابقاتها ، واشتهر من عادات أهل اليابان أنهم كلّفون بهذه الألعاب ولا سيما المصارعة بفنونها كلفاً لا يضاهيه كلف أمة أخرى في الشرق . ولا غرابة في انتباه الأمم الحية إلى مزية هذه التمرينات الجسدية فإن أول ما يحسه الإنسان من يقظة الحياة الميل إلى الحركة وطلب القوة . وقد يكون هذا الميل من دوافع النفس قبل أن يكون من دوافع الجسد لأننا كثيراً ما نرى في الشعوب الحاملة أناساً من أقوى الناس وأصحاءهم بدناً ولكنهم كسالى فاتروا وحس ثقال الطبع لا تلمح عليهم خفة الحياة وتفززها ، وربما رأينا العجاف الضعاف في أمم ناهضة تواقه إلى الكمال وكأنما نفوسهم تستحث أجسادهم إلى أكبر مما تطيقه من النشاط والمراح . فليس من التجوز البعيد أن نقول إن النشاط ملكة نفسية تستقر في طبائع الأخلاق قبل أن تشهد مستقرة في صلابة البنية ووثاقه التركيب .

ونحن نعزو إلى إهمال الرياضة البدنية غير قليل مما يعاب على معظم شباننا من كسل النفس وقلة الإقدام على المخاطر واقتحام المسالك النادرة والفتوح

(١) من مقال نشر في جريدة الأفكار يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

المواكب

قصيدة شعرية^(١) نظمها جبران أفندي خليل جبران من أدباء السوريين في أمريكا وطبعها في كتاب مستقل كبير الصفحات مزدان بالرسوم الرمزية ، ويظهر أنه جرى في وضعها وطبعها على أسلوب رباعيات الخيام لأنه وضعها في المعاني التي طرقتها الخيام وطبعها على الشكل الأنيق المصور الذي اختاره الناشر من 'إيليز والأمریکان لطبع رباعياته .

وللكتاب مقدمة بقلم نسيب أفندي عريضة نراها من أئزم المقدمات لأنها فسرت من أغراض القصيدة ما لم تفسره أبياتها ، ومنها قوله : « ليتصور القارئ قبل إقدامه على مطالعة الكتاب مرجحاً واسعاً في سفتح جبل . هنالك يتلاقى رجلان على غير ميعاد أحدهما شيخ والآخر فتى . الأول خرج من المدينة والثاني من الغاب . أما الشيخ فيسير بخطى ضعيفة متوكئاً على عصاه بيد مرتجفة وفي غضون وجهه وشعره الشائب المسترسل ما ينم على أنه عرك الدهر وعرف أسرار الحياة ومخباتها فذاق منها مرارة أوصلته إلى التشاؤم منها . يصل هذا الشيخ إلى المرج فيستلقى هنالك على العشب قصد الراحة ، وإذا فتى جميل غض الإهاب قد لوحث الشمس بشرته وأكسبته الحياة جذلاً وانسأطاً خرج من الغاب يحمل نايه فيسير حتى يصل إلى مكان راحة الشيخ فيضطجع بجانبه . فلا تمر دقيقة سكون إلا تراهما قد بدءا بالحديث فيأخذ الشيخ بإبداء نظراته في الحياة كما يراها طرفه المتشائم وخبرته المحنكة . فيرد عليه الفتى شارحاً عن الحياة كما تراها عينه الجدلة المتفائلة . »

هذا هو محور القصيدة كما فسره صاحب المقدمة . وقد أحسن كاتبها في مراعاة المقام لولا ما في كتابته من قليل الغلط النحوي والصرفي . وما يتخللها

(١) نشرت بجريدة الأهالي في مايو سنة ١٩١٩ .

فما كان شيء من ذلك ميسورا لو لم يتقدمنا مخاطر ون في كباتر الأمور وصغائرها وعاملون لا يستشيرون ذفر الریح والحسارة في كل خطوة بخطوتها . وأقرب هذه التجارب إلينا تجربة الطيران ، فهل تظنون أن أول مجازف بركوب طيارة كان أرجح حلماً (من وجهة النظر إلى السلامة) من صاحب برمیل نياجرا ؟؟ وهذا هو الذي لم يفهمه ظرفاؤنا الذين نما إليهم حديث ذلك الرجل فجعلوا يضحكون منه ما طاب لهم الضحك أو يصرفونه بكلمات تأفف يوشك أن يكون تباهاً بسلامة عقولهم وطهارة قلوبهم من خزي التورط في هذه المعاطب .. وكان أعذرهم للرجل من كان يسأل : ألم يطمع في ریح يجنيه من الاشتهار بالمخاطر ؟؟ ويجوز أنه كان طمع في شيء من هذا . ولكن ما سؤا لهم عن المال في علة هذا الخلق الذي أودى بحياته ؟ ما سؤا لهم عنه في البحث عن علة ولوعه بركوب انغرائب ؟؟ أن الفارس ليجازف في طلب الأسلاب وليس الحطام المسلوب هو علة شجاعته وفروسيته ومجازفته بحياته . والجبان كالشجاع في الشوق إلى لذة السلب .. فلماذا لم يكن كل الناس شجعاناً إذ كانوا كلهم طامعين ؟؟ والأمر الذي فات ظرفاءنا هو أن العاطفة إما أن توجد وفيها السليم والسقيم أو لا توجد بتاتاً . وإنه خير لنا أن يكون منا مجازفون متهوسون من أن لا يكون بيننا مجازفون على الإطلاق . فيقتلنا حب السلامة ونحسبنا ناجين وادعين ونحن في الحقيقة نعرض أنفسنا لأرذل الأخطار . وأي خطر أرذل من استكانة النفس وتقلصها في قشورها ؟؟

وسيعلمون لذة المجازفة الساحرة يوم يعلمون لذة الحياة الشريفة . فعلموهم كيف يلعبون فإنه لا أمل في الجدد القويم لمن لا يعرف اللعب القويم .

ألا ليت الطبيعة كذلك !! ولكنها في الحقيقة أم القيود والأغلال ، وما من عادة متحكمة في نفوسنا ولا غريزة غالبية أو شهوة متمكنة إلا وفي الطبيعة طرفاها وإليها مرجعها .

فإذا قال الناظم متغنياً بطلاقة الطبيعة وتسامحها :

ليس في الغابات دين لا ولا الكفر القبيح
فإذا البلب غنى لم يقل هذا الصحيح

قلنا على الرغم منا : حقا إن البلب لا يزعم أن غناه هو الصحيح وغناه غيره الشاذ السقيم ولكنه لسوء حظ العشاق - عشاق الطبيعة - يدين بالأنانية القاسية التي يدين بها المتعصب الزارى على معتقد غيره ويعمل في إطاعة هذه الأنانية كل ما يستطيع عمله من عبث وضر . ويؤيد قول المعرى :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي
وإذا قال الناظم في الإشادة بمساواة الطبيعة وعفتها :

ليس في الغابات حر لأولاد العبد الذميم
إنما الأبحاد سخف وفقاقيع تعوم
فإذا ما اللوز ألقى زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقير وأنا المولى الكريم

قلنا إنه لا يقول ولكنه يفعل . إنه يقتل كل شجرة ضعيفة تجسر على النمو إلى جانبه وتشرتب إلى مكانها من الفضاء والنور ، وكذلك نجد قيود الطبيعة وقوانينها ويجدها كل حي في هذا العالم المسخر ، فهي قيود أثقل وأظلم على من يشعر بها من قيود المدنية . وقوانين أشنع وآلام أثقل وأظلم على من يشعر بها من قيود المدنية . وقوانين أشنع وآلام عند من يشكوها من قوانين الإنسانية . وربما لظفت المدنية قيودها وزوقتها وصقلت جوانبها ولكن الطبيعة لا يعينها القيد ولا حامله ولا تلقى إليك قيدها إلا حديداً أسود كالحائم تضاعفه لك وقد لا تقبلك في حظيرتها إذا أنت حطمته أو زحزحته عنك .
فليس من الشعور الصحيح ولا من الإحساس العميق أن يعبر الإنسان عن

من روح النقد العتيقة التي احتدى بها أمرسون وأشباعه من متصوفة الأمريكان .

أما القصيدة فليس في استطاعتنا أن نسميها شعراً صحيحاً كما وصفها صاحب المقدمة وإن كنا نتبين منها أن ناظمها يفكر تفكير شاعر . وأول ما نشير إليه أن مبنى القصيدة ليس مما يوصف بالصحة لما فيها من الخطأ اللغوي وما يعتورها من ضعف التركيب وغلبة العبارة الثرية على النغمة الشعرية في أبياتها . وقد فتحنا الكتاب فوجدنا في أول شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل في قوله :

* الخير في الناس مصنوع إذا جبروا *

يريد أجبروا . ولم تنته من الصفحة إلا على خطأ ثان في قوله :
فأفضل الناس قطعان يسير بها صوت الرعاة ومن لم يمش يتدثر

والواجب جزم يتدثر في البيت . وهذا وليس في الصفحة إلا أربعة أبيات !! ولا نشك في أن ناظم القصيدة كان يحترس من الوقوع في مثل هذا الخطأ لو كتب بإحدى اللغات الغربية . فالاحتراس في الكتابة العربية أولى .

أما المعنى فمعيار صحته عندنا أن يكون موافقاً للفظرة الصحيحة والطبيعة الصادقة . ولا نرى معاني الناظم كذلك . نعم إن صاحب المقدمة يقول إنه - أى الناظم - متمرد على الحياة نفسها . ولكن التمرد على الحياة لا يدل في كل حالة على رغبة في حياة أسمى وأفضل وكثيراً ما يدل على انتصار المتمرد لجانب الموت والفوضى على جانب الحياة والمثل الأعلى . خصوصاً إذا لم يكن هذا التمرد مبنياً على أساس من الشعور الصميم بقوانين الحياة الراسخة في دخائل الطباع وأعماق الإحساس . ونرجح مما قرأناه في مواكب الناظم أن تمرده على الحياة من هذا النوع لأنه كما يقول صاحب المقدمة « يتمرد على كل قيد ويود الرجوع إلى الغاب » أما الغاب التي يقصدها في قصيدته فليست غاباً بمعناها الضيق بل هي الطبيعة بأسرها ،

- فمن قال إن الطبيعة تحل الإنسان من قيوده ??

الثقة بالناس

الثقة بالناس^(١) عقيدة كثير من حكماء الناس وبلهائهم . وهى إن أريد بها الثقة بما فى الإنسانية من خير مودع ، وآمال مرجوة ، مذهب لا سلطان لنا عليه ، ولا خوف علينا منه . ولا مطمع للرأى فى تفتيده لأنه هوى متمكن من فطر النفوس ، راسخ فى جيلاتها .

أما أن أريد منه الثقة بهؤلاء الناس الذين تبصر وجوههم ، ونسمع أصواتهم ونغدو ونروح معهم ، فلنا فيه قول قد لا يوافقنا عليه إلا الذين عجموا عود الناس كما عجمناه ، وبلوا من مواربة الإنسان بينه وبين غيره وبينه وبين نفسه ما قد بلوناه .

الناس أشرار أو أبرار . فأما الأشرار فحكمهم معروف . وأمرهم مفروغ منه .

وأما الأبرار فهم على الفضيلة طرائق وفى اجتناب الرذيلة مشارب .. فرجل طبيته جهل بالشر ، فلو عرفه لاندنع فيه .

ورجل طبيته عجز عن الشر ، فلو قدر عليه لما قعد عنه .

ورجل طبيته مغالية للشر ، فهو يصرع الشر والشر يصرعه . ويملك نفسه آناً ويخذه الطبع أحياناً . وأنت لا تعرف متى يكون غالباً فتأتمته وقت غلبته . ومتى يكون مغلوباً فتحدره وقت هزيمته .

ثق بالجاهل حتى يعرف الشر وبالعاجز حتى يقوى عليه ، وإياك أن تتق بمصارع الشر وإن كان هو أصوب من رفيقيه فكراً وأرحب منها نفساً ، فإنك إن وثقت به كنت كمن يخاطر على المعركة بغير بينة . وكنت كمن يصحب الغارة ليغنم فيصبح وهو فى يد الأعداء غنيمة .

(١) نشرت فى مؤيد ١ يونيو سنة ١٩١٤ .

أله من قيود المدنية هذا التعبير . أو يظن أن بساطة الحياة تنجو بالحى من أحكام الوجود ، وقد تكون المدنية شوهاً ولكن ليس معنى ذلك أن الحياة الهمجية مليحة الوجه حسناء .. أليست شياطين ساكن الغابات وأرواحه الخبيثة ترجأنا لوساوسه ومخاوفه ؟؟ أليس هو أسوأ ظناً بالطبيعة وقوانينها منا ؟؟ هذا وهو طفلها النازل فى كتفها ونحن عصاتها الخارجون عليها المتحصنون دونها فى حصون المدنية ؟؟

وبعد ، فنحن لا نغمط ناظم المواكب حقه إذا قلنا أن شعره ليس من الشعر الصحيح لهذا السبب . ولكننا لا ننسى أن نذكر أننا قرأنا فى مواكبها أبياتاً من أصدق الشعر وأحكمه مثل قوله :

وما السعادة فى الدنيا سوى شبح يرمى فإن صار جسماً مله البشر وكقوله فى العدل :

والعدل فى الأرض ييكى الجن « لو » سمعوا به ويستضحك الأموات لو نظروا فالسجن والموت للجانين إن صغروا والمجد والفخر والإثراء إن كبروا وقاتل الجسم مقتول بفعلة وقاتل الروح لا يدري به البشر وأصاب إذ قال « العدل فى الأرض » ولم يقصره على الناس . وقوله :

إنما الناس سطور كتبت لكن بماء وقوله :

والحب فى الناس أشكال وأكثرها كالعشب فى الحقل لازهر ولائمر وعندنا أنه لو طرق باب الشعر المنشور لكان ذلك أفسح مجالاً لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون . وحبذا لو أقل من المعانى الرمزية فإنها بقية من بقايا إبهام الكهان الأقدمين لا يقبلها فى العصور الحديثة إلا أشباه الكهان فيما تصرم من العصور .

معنى المجالس

قيل^(١) للجمل زمر فاعتذر قائلاً : « بماذا ؟؟ لا شفة ملمومة ولا أصابع مفسرة .. »

كذلك سمعنا الفلاحين يروون عن الجمل فإن كان ما يروون عنه صحيحاً فقد والله ظلمه العباس بن مرداس حين قال فيه :
لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير

فإن الجمل والحق يقال لهو إذن ألب وأكيس من هؤلاء الذين يحترفون الزمر والغناء وينسون أنهم من ذوى المشافر المشقوقة والأصابع المضمومة بل هو أعقل من كثير من أبناء آدم الذين يزمرون لك ويستبيحون أذنك من غير أن تقترح عليهم الزمر أو تدعوهم إليه ، وهو على الأقل أعقل من مغنينا الذى أنا محدثكم عنه فيما يلى ..

والجمل يحمل أوزارنا ، ويلم شملنا ، ويصبر على العطش لبروينا ، ويجود لنا بالوبر ليكسونا ؛ فليس من الضروري بعد هذا كله أن يكون له أيضاً مشاركة فى الفنون الجميلة . وحسبه هذه الفوائد التى لا يستغنى عنها ، ولكن أى فائدة لإنسان لا عمل له فى الدنيا غير الغناء وهو لا يحسن الغناء ؟؟ ..

دُعينا ليلة إلى مجلس سماع فوجدنا المغنى الذى سنسمعه قد سبقنا إليه وقد تولى عن صاحب الدار الترحيب بالمدعوين ومصاحبة القادمين إلى أماكنهم من المجلس . ولا عجب فهو صاحب الليلة ولا خسارة على صاحب الدار فى أن ينزل له عن زائريه ليلة من ليلته . فحيانا عند قدمنا وبش لنا وأجلسنا بالقرب من مكانه احتفاء بنا ، ورأيناه يتكلم وهو يتسم ويسكت وهو يتسم ويقعد ويقوم ويأسف ويعبس وهو يتسم ، وبالغ فى اللطف فكان يتسم للراح

(١) نشرت فى العدد التاسع والعشرين من صحيفة الرجاء .

وما ظنك بمعركة لا يعرف القلب الذى هو ميدانها كيف تدور الدائرة فيها ولا يدرى شاهدها موقف الخصمين منها إلا كما يدرى غائبها . وإنما هى حرب البراقع - ولو ظهر كلا العدوين لكان للحدس مجال وللتقدير حساب ولكنهم لا يظهرون إلا خلف قناع من العثير المثار . ولا يضربون بسلاح تعرفه إلا ريشا يتقلدون سلاحاً غيره قد تجهله .

ذلك أن « العارف » عرضة للشك وهدف للحيرة . ولا ينتاب الشك نفساً إلا زعزع أركانها . وأحال معالمها . فلا تدرى أيها جانب الشر وأيها جانب الخير .

فإن كان لا يد من الثقة بهذا فتق به حيث يكون نفعك نفعاً لك . وضرك راجعاً ولو بعضه إليه .

وإن أردت الأمان . فتق بالناس جميعاً وكن سئى حذر من الإنسان .

ويعد ، ألا يكون الرجل مازحاً ؟؟ إنها إحدى اثنتين : فإما أن يكون مازحاً أو مجنوناً . وإلا فإن رجلاً مسلم العقل في شناعة صوته ، وتبجح تلميحه ورداءة طريفته لا يعقل أن يمدح نفسه في الغناء ، وفي الغناء لا غير . فلقد كان أسهل له أن يدعى الإمارة من أن يدعى الغناء لأن بين الأمرين كثيراً ممن هم أقل كفاءة منه ، ولم أر من غير الغنيين من هو أشنع منه صوتاً وأقبح تلميحاً وأزاداً طريفة .

نرى لو سمع هذا المعنى مثل غنائه هذا من أحد الناس أكان يعطى على سمعه كما غطى عليه الآن فلا يفهم أن مثل ذلك الصوت ما لا يسمع سماعه ولا يحسن إيقاعه ، أم تراه كان يمدح فيه ويعبئه ؟؟ ما نطلبه إلا كان قادحاً فيه عابثاً به وربما كان استمداه على غيره بقدر اعتداده بنفسه . أما وهو ممن وليس يسمع فقد تغير الحكم وكان الواجب أن لا يتغير ، ولكن يظهر أن الإنسان قد أعطى حواسه ليدرك بها غيره ولم يعطها ليدرك نفسه . وصدق من قال إن الإنسان لا يرى وجهه بعينه .

وطبق الرجل يلحم دوراً يدور ويضرب لحناً يعد لمن ، وكلما قلنا قد انتهى إذا هو يتبدى أو قلنا (يتجلى) إذا هو يحلوك وظلم . ونحن بحال لا يعلمها إلا من ابتلى عقل بلبيبا في ليلة كان يظن أن سكنون من أسعد ليلابه فإذا هي كأنه من ما مر به من الليال . فلا نحن نسمع شيئاً يحسن السمكوت عليه ولا يحل بيننا وبين أنفسنا فتتسل عن السماع بالسر . ولا يشنا من سكنوته من لمن نفسه أوعزنا إلى أحد إخواننا أن ينازحه لعله يتصرف عن الغناء إلى المزاح فما زاد على أن رد مزحهه بإبتسامه ومضى في صريحه .. قلنا يا سوء ما دبرنا إن كان يتوى أن يقابل كل حيلة لنا بإبتسامه منه فإنه ليس أكثر لديه من الإبتسام . فأوعزنا إلى صاحب الدار أن يحفف عنا بعض ما قبضه لنا على غير قصد فيميل عليه بالراح لعلها تلجمه وتقل من غرب صوته فما زادته قائله الله إلا احتداداً واشتداداً كأنه الآلة البخارية يزيدها الماء وضواه وصرخاً . فلم يبق لنا من حيلة إلا أن نتفاحه مازحين أو جادين بطلب السمكوت فبعتنا إليه من يذكره سرا يضرب موالاة الغناء على المفاجى ويذكر له أننا ممن أصموا في أصواتهم لكثرة إجهادها وضئهم عليها بحفظها من الراحة ، فكان كانه لا يسمعه

وهي كما يقول الأفيشر « لوجه أجهها في الإناء قطوب » ولا تشتغل شفاء عن الإبتسام إلا بالترحيب أو السلام .

لا بأس بالإبتسام بيزيل الكلفة ويسط النفوس للمعرفة ، ونعم الترجية هو يسترعى الأبعصار ويستميل نوابي الأذان . وكأني من رجل يهد سبيله في الحياة بإبتسامه تلازم شفتيه فيملك بها القلوب ويفتح أذن الصدور . ولا تقطع منبينا اقتداره في هذه الصناعة الشقية فلقد أوتت في أكرنا إبتساماته أثر السحر أو أعظم فسططوا في يديه أسرى دمايته وروثان بشاشته ، وقال أحدنا : ما أطرف المعنى !! إنه واقة للظرف الجسد . وقال آخر ما أصبنا إلا نسمع الليلية ما لا أذن سممت وترى من مغنينا هذا ما لا عين رأت . ولا شك عندى في أنه ممكن في فنه ، بعيد العهد بجمارسته ، فأقل ما في الأمر أنه أطال مصاحبة أهل الفن حتى اقتبس منهم وتأدب بأدبهم وهدى إشاراته ، وأدابه في الترجية والملاطفة شاهد بذلك . وأهل الفن بصر كما تعلمون لطاق لطاق إلى النهاية في اللطافة - لطف الله بهم فأبهم ليكادون ببلاشون من اللطافة كما تتلاشى ألحانهم في الهواء .

ومضت بعد ذلك برهة في التسوف والانتظار ثم مضت برهة ثانية في التفر وإصلاح الآلات ، ومضت البرهة الثالثة ولا ندرى كيف مضت ، لأننا فوجئنا بزقعة هائلة لم نعلم أمن الساء جهجت أم من الأرض صعدت ، وصوت صارخة هي تعدد أم صوت قتل يستتجد . أستغفر الله بل لم نعلم أهي صوت إنسان أم عزيز طائفة من الجان . ولما ألقنا من غشيتنا وجدنا بعضنا ينظر إلى بعض وإذا بالمعنى يصيح : بالليل يا ليل ، فما شككنا في أنه ينادى ليلية الحشر أو أبعاد ليلية في ما وراء التاريخ وأيقنا أنه صاحب الزقعة الأولى .. يا ضيعة الأمل . أهدأ هو المعنى اللطيف ذو الشفة الملمومة والأصابع المنقرسة ؟ وانطلق الرجل يعزى ويترق ويصهل وقوه ويثغو ويتفق ويصيح بصوت كل حيوان مزعج في الأرض - أهي بدعة جديدة في الغناء المعزى وهذا الرجل صاحب مذهب في الموسيقى قد أراد أن يقلد صياح هذه الحيوانات وحاكاة لأصوات الطبيعة ؟؟ لا ! فقد كنا نسمع منه صوت الإنسان مرة على الأقل في هذه المحاكاة .

أن تسمع وتنعك الحديث مع من تحب أن تحدث ، وليس أقدر من الغنى المشرق على أن يجعل مجمع الأخلاء ويجلس الأصفياء شراً من العزلة والانفراد . ولقد أتمنا - هرتنا فطاب لنا ما بقى منها بفضل التبادل والحبال بعد أن أبت أن تطيب لنا على يديه بفضل المازف والمزامر ، ثم تركناه على تلك الحالة لا يقدر على أن ينس بكلمة أو يحرك يده بنعمة وخرجنا واحداً بعد واحد ويودنا لو ننظر إلى مواضع ابتساماته تحت تلك الأريطة الكثيفة !! ولكننا كنا ننظر فنتق أنه كان يشتمنا بعينيه شتماً لا يقل عما يعاقب عليه قانون العقوبات .

وكأنما حال زعيقه بينه وبين أذنه التي في رأسه كما حال بين أفواهنا وأذاننا فلم يصغ إليه ولا أبه له . ولما لم يُجد تذكيراً إياه بواجب الرأفة بنفسه لم نرُ بداً من أن نذكره بواجب الرأفة بنا . فقال له أهدنا : أيها الشيخ .. إن كنت لا تعلم ماذا صنعت بنا فاعلم أنك قد أفسدت علينا الهواء وضيقت بنا رجب الفضاء . وقال الثاني : نعم وقد أضجرتنا .. وقال الثالث : وقد أبرمتنا . وقال الرابع : وقد أزهدت أرواحنا .. وهكذا دار الدور بالماضرين فلم يته إلا وقد أتينا على جميع ألفاظ الضجر ومعانيه في اللغة العربية .

أما هو فإنه نظر إلينا هازناً وقال وهو كأهدأ ما يكون : « يا للأسف ما كنت أحسب أن يبلغ بك الجهل بأحكام الصناعة ما أرى . ولقد نسيتُ أيها السادة أنك لا تتقوتني أجراً على غنائى ، ولتعلموا بعد أننى لست متكفلاً بـسروركم وإني إنما أغنى لأسر نفسي فأتم وشأنكم » ثم عاد إلى ابتسامه وغنايه . أى وريك ، إنه ليس متكفلاً بـسرورنا كما قال ، وقد صدق ، ولكن أتراه كان متكفلاً بتغنيصنا ؟ ونحن لا نتفده أجراً ، وهذا صحيح فهل يكون في حل من مضايقتنا لأنه يضايقنا مجاناً ؟ كذلك قضى لنفسه علينا ذلك المشوم ولم يستمع لنا مراجعة ولا اعتراضاً فلا أراح الله أذاننا من صورته ملحنًا ومتكلمًا إن لم نرحها نحن بأنفسنا وإن لم نضغ له بأيدينا ما لم يصنعه به عقل رجح ولا ذوق سليم .

ولا تعلم به كنت قاضياً عليه أيها القارئ لو كنت في موضعنا من الابتلاء به ، ولكننا تعلم أن الأريطة والكماتم تكون قد خلقت في الدنيا عينا إن لم يكن لها نفع في كنف مثل هذه اليد عن التوقيع وكم مثل هذا الفم عن الصريح والتفريح . وكذلك صنعنا به فقد عمدنا إليه فكمننا فمه وربطنا يديه وأوتقناه بالمقعد الذي كان جالساً عليه ، واهه يعلم أننا لم نتل منه بهذه المثلة بعض ما نال منا ، فإنه ليس أخفى للنفس ولا أحق بالنقمة ممن يجبرك على سماع ما تكره

يهيب الليل بديلا مما يحتاج إليه من ضياء ، والرياء يصحب الغيرة صحبة الكلب
للكفوف ..

« فعطيل العبد وإياجو الخائن يأتمران بالبياض والظهر ، وأى شيء لعمري
أهول من ذلك ؟ إن هذين السبعين الضارين من سباع الظلمة يعلمون على
وفاق . إن هذين المظهرين المتقاربين من مظاهر الخسوف ليتالآن بين زنجرة من
أحدهما وتهاتف من الآخر على خنق فاجع للضياء .

« وتعال نسبر غور هذا الأمر العميق . إن عطيلًا هو الليل ، وإذا كان ليلا
وكان يريد أن يقتل فأى سلاح يا ترى يختاره لفعلة؟؟ السم ؟ الهراوة ؟
الفاأس ؟ المدية ؟ كلا . بل الوسادة .. فالقتل عنده هو أن يستهوى من يقتله
إلى الهجوع . ولعل شحسبير نفسه لم يقصد هذا الذى نشير إليه ، ولكن العقل
المبدع ينساق على غير إرادة منه فى معظم الأحيان إلى ما هو خليق بقاله ،
فيكون هذا القالب قوة . وعلى هذا النحو ماتت ديدمونة قرينة الليل مكظومة
الأنفاس تحت وسادتها التى تلقت عليها قبلتها الأولى ولفظت عليها النفس
الأخير .. »

انتهى ما أردنا نقله من كلام فكتور هيجو . نقلناه من كتابه على ويليام
شكسبير واخترنا هذه الكلمة بغير كثير بحث ولا مقارنة لأنها أجمع ما رأينا
لشأن ما يعاب على هذا الأديب فى شعره وكتابه ويكاد يتفق عليه أئمة النقاد
من أنصار المدرسة الحديثة . أما هذه العيوب على الجملة فهى إطنابه فى غير
ظائل ، وإيثاره القشور المموهة على اللباب المشمر ، والتفاته من الأشياء إلى
علاقاتها الوهمية دون علاقاتها الصحيحة ، وإنه عظيم الشغف بالأخيلة الضخمة
يستحضرها ويحتفل بتزيينها والتزويد منها تقديماً لونه الكلام فى السمع على مغزاه
فى الذهن ومسراه فى النفس ومصدره من القريحة المنزهة والسليقة الخالصة .
وترى هذه العيوب ظاهرة على هذه الكلمة فى طريقة تناوله لشخصية عطيل وفى
عكوفه على جانب واحد سطحي من هذه الشخصية ، وهو سواد لونه الذى
جعله محور وصفه ، وطفق يبدأ منه ويفتأ يعود إليه ، ويفتن فى تكريره ويدخله فى
ضروب شتى من المجاز والطباق واللعب بالألفاظ . وهكذا كان سواد الرجل هو
السر فى حبه لديدمونة وهو السر فى الصلة بين عطيل و « أياجو » وهو السر فى

بما يشاء من سباع الظلمة ..

كتاب البؤساء

نظرة فى أدب هيجو^(١)

« والآن ماذا يكون عطيل؟؟ إنه الليل . جرم شاسع رهيب . فالليل قد
أغرم بالنيار ، والظلمة تعشق الفجر ، والإفريقي يعبد المرأة البيشاء ، وعطيل
يكون له من ديدمونة نور وخيال مهيج ، ومن ثم فما أسهل ديبب الغيرة إليه ؟
إنه لعظيم وإنه لمبجل مهيب . إنه يسمو برأسه على جميع الرءوس ويمشى فى
حاشية من الشجاعة والحرب وقرع الطبول وألوية الوغى والصيت الذائع
والمجد الفاخر يتلأأ عليه عشرون انتصاراً وترصعه الدرارى فى حلته ، ولكنه
بعد أسود الأديم ، فما هو إلا أن تنفت الغيرة نفتتها فينقلب البطل وحشاً
والأسود عبداً ويتصل ما بين الليل والموت .

« وإلى جانب عطيل وهو الليل ، ترى « أياجو » وهو الشر ، وهل الشر
إلا صورة أخرى من صور الظلام ؟ على أن الليل ليل الدنيا وأما الشر فهو
ليل الروح . فما أعمق ظلمة الخيانة والنفاق .. لسواء كان ما يجرى فى خلال
العروق مداداً أسود أو غدراً ذمياً - فكلا هذين واحد . يعرف ذلك من قضى
عليه بمدافعة المين والبهتان ، فإن الإنسان ليخبط مع اللؤم فى ظلمة كظلمة
الأعمى . ولو أن الرياء أريق على طلعة الفجر لانطفأ منه نور الشمس ، وهذا
بعينه هو الذى يعرض لنور الله من أثر الديانات الكاذبة .

« إن « أياجو » بجانب عطيل لكاهلوية بجانب الجرف المنهار . يهمس فى
أذنه أن تقدم .. فإذا الفخ ناصح بالعمى ، وعاشق الظلام يقتاد الأسود والخداع

(١) نشرت بالعدد الصادر يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الأفكار .

أدب شكسبير حقاً؟ ليخيل إلينا أن النفي أول بأن يكون الجواب على هذا السؤال مع غرابته وصعوبة توجيهه . ولا فإن الذهن الذي يدرس شكسبير لا يتوقف به ولا يتفجع منه بما يزيح عن بصره غشاوة الفتنة بالظواهر والتخايل بالصنعة الباطلة والزخرف الملتق هو ذهن من أفضل الأذهان وأبعدها عن استقامة الفطرة في الفهم والأداء ، وليس ذهن هيجو من الاصوجاج والجهاء بهذه المنزلة لأننا نصير له وميضاً يحطف الأبصار أحياناً ويحد بين سطوره من براعة الفهم وحسن الإيجاء والإلham ما يوتق ومعجب . فكيف نوفق بين هذا الذكاء وبين هذا العجز عن الاستفادة والتصور عن الفطنة إلى مواطن الجمال الحقيقي ومزايا الأدب العالي؟؟ أم لعله ذكاء المنار الذي شبهه به نيتشه إذ يقول : إنه منار ولكنه مقام على أوقيانوس من الكلام الفارخ ؟

على أننا لا نحسب غلو نيتشه في النفا . لا نحسبه يعني كل ما يقوله . بل لانذهب مذهب الآخرين الذين يتهمون هيجو بالسرقة واصطياد جميع بحاسنه الأثرية من غيره . ونزجح أن الرجل لو أصاب من يفهمه شكسبير فهمًا جيدًا في شيا به لا تتفع به كثيرا .

وكيف كان الرأي في مواهب هيجو فسا لا شك فيه عندنا أنه حرم في كتابته مزيتين من مزايا الأدب الرفيع والمعقربة العالية : وهما مزية الفطنة إلى الجمال البسيط الصادق ومزية التعمق في الفكر . وليست هاتان المزييتان بضمدين كما يزعم بعض المثقلمين الآخذين بأطراف الآراء الواقفين عند القريب من حدودها . إذ نحن لا نفهم لماذا لا يكون الفكر العميق جميلًا ؟ ولكننا نفهم أن شهود الجمال والتصور بالتعب منه لا يتفان ولا يجتمعان في لحظة واحدة . وإن الجميل شيء غير التعب في النظر . فالذين يكدر رؤوسهم ورشق على بصائرهم أن يدركوا مواطن الأفكار الكبيرة يحق لهم أن يحسبوا الفكر العميق والجمال متناقضين وأن لا يروا بينها نسبة ولا صلة ، ولكن الذنب ذنبهم واللوم عليهم . وليس هذا العصور منهم جامع أحدًا من لهم قدرة في التبصر واستكناه حيايا الأمور أن يترشح أهل الجمال من أعماق الأفكار .

ولا بد من كلمة موجزة قبل الختام في التفرقة بين الجمال البسيط الصادق

اختيار الرسالة لقتل حبيته وهو القربة التي جلبت ذكر الحسوف وسباع الظلمة والنسر والدماد الأسود وكتب المكثف وكل ما أفاضه الشاعر على وصفه من كور خياله اللغوي بهذه الثروة الزائفة . فأي علاقة لهذه الأشياء كلها غير الروم والتمحل ؟ ولم تخل من المآخذ التي سردناها هنا كتابه لتفكير هيجو شعرًا كانت أو نثرًا ، إلا أنها تتفرق وتجمع وتقل وتكثر وتختلف حسنا وفيها حسنا يسعفه الحسب ويده اللفظ . ونظنه لا يقل منها إذا أقل إلا عن عوز إلى المادة وعلى أسف لئزابتها وضيق موردها وبعد بأس من توفيرها والإغراق فيها وليس ترتعًا عن هذا السفاسف أو كراهة لا فيه من عوار وتشويه .

ولو كان هيجو كتب تلك الكلمة في إبان حداثته لكان له شفيح من نزوات الصبا وما فطر عليه السباب من الاغترار ببهرج الأشياء ، وقلة التمهحص والكلف بأول زينة تطالعه وتجذب نظره دون التفتن إلى دخلتها أو البحث عن سر علاقتها وروابط معانيها ، ولكنه كنه بعد إذ نيف على الستين وبلغ غاية النضج . فالعيب في طبيعة مواهبه لا في غرارة سنه وحداثة تجاربه . كذلك لا نرى الاعتزاز له بتقديم زمنه وظلية الميل إلى الزخرفة في أهل جيله ، وإن الآداب كانت عند ظهوره متخلفة والعلوم قاصرة والنظريات الغلالية فاشية في أبحاث العلماء فتروها في قصائد الشعراء ورائثا ، البهلاء . فهذا عذر لا يجلى صاحبه من النقص ولا يبرئه من وصمة الزغل الذي انعكس فيه عصره ، وكأي من أديب مطروح ينبغ في عصر هيجو أو في عصره تائه ولم تؤخذ عليه هذه العيوب ، ولا قاربها كأنه صاحب البنية الثورية يعيش بين المرضى ولا تنتقل إليه عدواهم ؟ ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد بأدبائه الإنجليز والألمان والعلمانيان الذين عاصروا هيجو وشاركوه في فنون الكتابة وسلموا من عيوبه فإن في نشأة المثشى وسلامة شعره من سخط الصنعة ويرجح المحسنتات في إبان رواجها وعطفوان نشأتها ما ينبغي ويدل على أن النظرية الصاعدة تصمم صاحبها من مثل هذا الزلل أو تصده عن الإفعال فيه على الأقل أيا كان الوسط الذي يحيط به .

وأعجب ما في الأمر أن ترد العبارة التي اقتبسناها وعشرات من أمثالها في عرض كتاب عن شكسبير يتضمن نقد أدبه وتقدير فحولته - فهل درس هيجو

حافظ اليوم وصفه لفاتنين في مرضها وما يتخلل سياق الفصول أحياناً من تحليل السرائر وتعليل الخوارج والخواطر ، فإنه لم يفلح فيما تعمل له من هذا القبيل إلا نادراً وكان فلاحه فيه قريب المدى قليل الجدوى . فهل أصاب حافظ أو أخطأ في انتقائه هذا الكتاب للترجمة ؟ قد يقال إنه لم يخطئ لأنه أخرج لنا كتاباً من جنس الأدب الذي تعود قراؤنا أن يعجبوا به ولا سيما في العهد الذي ظهر فيه جزؤه الأول . وإنه إذا كان الشغف بالزخرف وخلاصة اللفظ مما يعاب على فكتور هيجو فإنه عيب لا ينكر من عيوب الأدب عندنا في الجيل الماضي ، ولسائل أن يسأل هل هذه وظيفة العربيين يا ترى ؟ وهل كل ما يطلب منهم أن ينقلوا إلينا ما هو قريب من عيوبنا موافق لأذواقنا وإن كانت على خطأ وضلال ؟ هذا هو موضع النظر : وقد يقال من ناحية أخرى إن حافظاً أخطأ خطأ مضاعفاً لأنه في هذا الوقت الذي أخذت فيه العقول تتفتح على الصواب وتفطن إلى فضائل الآداب الصحيحة وأصول النقد الحديث ، جاءنا بكتاب يضلل النشء ويدس في روعهم أن ما يعجب به المعجبون من آداب الغرب لا يختلف في روحه ومنهجه عما يعجبنا نحن من الآداب العتيقة وصنوف البلاغة الغثة المموجة فيختلط عليهم الأمر ولا يتبين لهم فاصل ظاهر المعالم بين الصدق والتنويه والأصالة والتقليد - قد يقال هذا وقد يقال ذاك ولا يخلو القولان من قسط من الصواب .

على أننا لا نغنى بهذا القول أن العمل ضار لا نفع فيه ولا أنه قليل النفع أو ضئيل فإن للكتاب محاسنه كما لا يخفى وفيه الجيد كما فيه الرديء . وليس من الصعب أن يتلافى خطأه بلفت النظر إليه وتصحيح وهم الواهين أنه مثال للأدب الأوروبي المختار وقدة يقتدى بها المحدثون من أنصار الأساليب العصرية . فإذا قرأه القارئون وهم على علم بما أخذه فقد لا ينسرب إليهم كثير من خطئه . ومن يدري فلعل هذا الخطأ لا يضرهم إلا ريث أن يشعروا به فيصلحهم وينفعهم . لأنهم على الأكثر بين غافل عنه لا يدقق في فهمه فهو مجزل عن خيره وشره ، وبين متنبه له فهو محترز منه . ومن هنا تهضمه المعدة القارئة وتستخلص منه ما يفيد مزوجاً بقليل من الضرر الذي لا يشعر به إلا ساعة التهيز للخلاص منه . ولكننا نعود فنقول إن غير هذا الكتاب قد كان أولى بالعناية والمشقة التي

وزخرف الصنعة الكاذبة . فما لا يقبل الجدل أن النفوس مجبولة على أن تطلب الجمال وأنها لا تكتفى بالنافع . ونحن لا نشرب اليوم في قعب من الخشب لأننا لا نقتصر في صنع أدواتنا على تحرى المنفعة البحتة منها . ولكننا نشرب في آنية تحمل الماء كما يحمله القعب مع جمال في اللون والصنعة والملمس والمنظر ، ولكن هل ترى أننا لو جننا بالقعب الأول ووشيناه بالحرير الناعم وحليناه بالذهب البراق وعلقنا على حواشيه من الجواهر النفيسة ما تغلو قيمة وتسرو رؤيته أنظنه يكون بهذه الحيلة المصطنعة أجمل رونقاً مع اعتباره آنية للشرب من كوب الزجاج المتقن البسيط ؟؟ كلا . وسبب ذلك أنه لم يعد قعباً ولا كوباً ولكنه عاد شيئاً مستعاراً له الجمال من غيره لتكلف الإعجاب والنفاسة ، وأما الكوب فهو بخلاف ذلك لأنه جميل وهو كوب لم يستعر له شيء من خارجه . وكذلك يجب أن تكون المعاني - جمالها في ذاتها وفيما تؤدي به وظيفتها وفيما تلزم به طبيعتها وليس فيما يضاف إليها من ألفاظ منمقة وأخيلة مستعارة متكلفة .

٢

ترجمة الجزء الثاني^(١)

وبعد ما بيناه من الرأي في أدب فكتور هيجو هل أحسن حافظ أو أساء بترجمته هذا الكتاب أو هذه الرواية - إن صح أنه رواية - وليس هو كذلك ؟ ولنعلم قبل البدء بالجواب أن كتاب البؤساء كسائر كتب هيجو محشو بما يؤخذ عليه من عيوب الصنعة والفكر وأنه في رأى كثير من النقاد أضعف مصنفات الشاعر من الوجهة الفنية ، إذ ليس فيه صورة شخصية واحدة كاملة الشكل صادقة التحليل ، وقل في ما يطابق الحقيقة من أوصاف النفوس وأطوار الفكر والجسد ، وأكثره مما لا يقره كتاب الطريقة « النفسية » ولا يرضى عنه الثقات من نقاد فن الروايات . ومن الأمثلة على أخطائه في هذا الجزء الذي أبرزه

(١) نشرت في العدد الصادر يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الأناكار .

حزن يعتريه من أثر ماضيه ، ويأن يرى شطر حياته الثاني على نقيض من شطرها الأول . فعاش في دعة . وقد عاودته الثقة واطمأن . ومن قوله في الصفحة الخامسة « على أنه لم يشهد مشهداً لهذا العراك كان أشد هولاً وأعظم مرأساً من ذلك الذي مر به حين دخل عليه جافير ولفظ أمامه ذلك الاسم الذي درج في أثناء النسيان فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذي عند سماعه وعجب لذلك الجد الذي لا يفارقه العثار » وأصلها : « وما ينبغي أن يقال إنه لم يعرض له عارض كهذا الذي مر به في حاضره . وما اشتد العراك بين الفكرتين المسيطرتين على ذلك الرجل المنكود الذي نصف عذابه كما اشتد بينها في ذلك الحين . وقد خطر له مذ لقيه جافير بكلماته الأولى عندما دخل عليه مكتبه . بعيد القرار ، حذر له مذ لقيه جافير بكلماته الأولى عندما دخل عليه مكتبه . فبهت حين فاه أمامه بذلك الاسم الذي تعمق في قبره . وكأنما أسكرته غرابة جده المنحوس » . ومنها وصفه للعجلة في صفحة (٤٨) فإنه حذف في ثلاثة أسطر أكثر من سطر مع لزوم ما حذفه من الوجهة التاريخية . ومنها قوله عن فانتين في صفحة (٦٦) : « لقد كان لتشويه خلقها أثر في تشويه خلقها » والذي يقوله هيجو : « إن ألم الجسد قد أتم ما بدأه ألم النفس » وقوله في صفحة (٨٠) : « وكان رئيس الجلسة في أراس ممن يعظمون مادلين وبيجلونه » والذي في الأصل أنه كان يسمع باسمه الميجل في كل مكان . وقوله عن حاجب الجلسة في الصفحة نفسها : « فسلم وانحنى حتى كاد يمس الأرض بجهته وحتى تبين مادلين أعظامه في حماليق عينيه » والذي في الأصل نقيض ذلك وهو أن مادلين سمع في ذهوله قائلاً يقول له الخ ولم يتبينه ولا أرى شيئاً في حماليق عينيه . وقد كان الواجب على المعرب أن يتنبه إلى هذا التصرف وليس عليه كبير حرج لأنه لم يمس جوهر المعنى في عمومته إلا في مواضع محصورة مما قابلناه . ولكنه سكت عن النتيجة وزاد على ذلك أن قال في هامش الصفحة الثامنة والثلاثين أنه في هذه الصفحة وحدها قد أضاف كلمات من عنده دعاء إليها حسن المقابلة في المعاني واطراد القول » وهذا خلاف الحقيقة كما ترى .

صبر عليها حافظ حتى ترجم ما ترجمه إلى الآن في جزأيه . وهو أقل من ثلثه . وليست اللغة الفرنسية بالفقيرة في مؤلفات أبنائها وغير أبنائها وليس قليلاً فيها من آثار العبقريّة ما يجمع بين الاقتدار والبلاغة واللذة الأدبية .

أما هذا الجزء الثاني من حيث هو ترجمة من عمل حافظ فلا خلاف في أنه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالي إذا قلنا أننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة في البلاغة من طبقة بعض التراجم الإنجليزية في لغتها وهنا نقف ..

نعم نقف هنا لأننا لا نستطيع أن نزيد على ذلك مزية أخرى للترجمة العربية ولا يسعنا أن نقول أنها تضاهي الترجمة الإنجليزية التي بين أيدينا في الدقة وضبط العبارة . واللوم في ذلك على حافظ لأنه اختار أن يتصرف بلا ضرورة تلجئه إلى التصرف سوى الاسترسال مع طنين الألفاظ أو تحاشي ما يحسبه نائياً عن السمع مناقرأً للاستطراد . وأول ما لفتنا من ذلك أننا قرأنا في الكتاب عبارة خيل إلينا أنها لا تكون في الأصل . وهي « فلم يكذب يلمح تلك التحايا لأنه وقع في ذهول قد افترس طائر حلمه » ولو أننا وجدناها في الأصل لما استغرنا كثيراً لأنها شبيهة بنمط هيجو في الكتابة . وخطر لنا أن تراجعها فلما رجعنا إلى الكتاب إذا هي زائدة لا أثر لها . فكان حافظاً لم يكفه ما في عبارة هيجو من هذه المجازات والاستعارات على وفرتها حتى أراد أن يتمها .. وليته وفق إلى صواب في زيادته . فإن الحلم يوصف بالرجاحة والوقار ولا يشبه بالطائر المستوفز الخفيف .

وقد راجعنا جملاً متفرقة هنا وهناك فألفينا بعض الحذف والتحريف في أكثر الفقرات التي بحثنا عنها اتفاقاً للمقابلة . ومنها هذه الجملة في الصفحة الرابعة وهي « وليث ماشاء الله يرى السعادة في يقظة الضمير ، فكان كلما يضع الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر في نفسه يوفر تلك السعادة ، ولقد تكفلت حسنات الشطر الثاني من حياته بغسل حويات الشطر الأول » وترجمتها نقلاً عن النسختين الفرنسية والانجليزية « وكان سعيداً بما كان يخامر ضميره من

ولأننا نأخذ على حافظ بعد ما سبق إلا مأخذين قد يسره أن يعاين عليه . وهما
الحرص على إرضاء الجامدين من بقايا المدرسة العتيقة واليبالغة في الخوف من
الابتدال حتى كاد هذا الخوف يكون جيناً أدبياً في بطلنا الجيدى القديم .

أما إرضاء الجامدين فإنه لم يظفر به ولن يظفر به بعد ما أعتته طلابه وأجهده
تحميه ولا نأخاهم يقولون له غثا . فقد تظ في بعض الأغلاط التي كان
لا يتنمدر عليه اجتنابها ، وسبحاسبونه عليها فلا يحسبون له ما تجاوزه من
الفردات والمبارات التي يتخرجون منها بلا حرج فيها غير المخرج الذي في
عقولهم والضيق الذي في حظائر نفوسهم .

وإننا لتعجب غاية العجب من رجل يمارس ترجمة صفحة واحدة من لغة
أجنبية ثم يأبه بعدها لتجني هؤلاء القاعدين المشددين الذين لا يحسبون ان
يكتبوا ولا يدعون غيرهم يكتب . وهل في لغة العرب كلها منذ ألف فيها
المؤلفون إلى اليوم كتاب واحد أو بعض كتاب وافق شرطهم في الكتابة أو خلا
من مأخذهم فيها ؟؟ أليس في القرآن الحكيم كلمات من جميع اللغات التي
عرفها العرب وحروف على غير القياس الذي اخترعه النحاة بعد ذلك ؟؟ بلى !
ولكن هؤلاء القاعدين المشددين لا يروقههم أن يكون في الكلام حرف أعجمي
أو وضع على خلاف السماع . فمن لحافظ إذن أو لغير حافظ بإرضائهم ؟ وماذا
يعنيه من رضاهم وغضبهم وإنهم لأحرى بالحجل بمن يعيون عليهم ؟؟ وهل
مماشاة سنة الأحياء في اللغات ونبد الجمود الذي لا تفر عليه حياة عيب يعاب !!

وأما الابتدال فقد أخطأ حافظ فهمه ونبهني أن نحاول تعريفه قبل أن نبين
وجه الخطأ في فهم معناه . فالابتدال عندنا هو أن تتكرر العبارة حتى تألفها
الأسماع فيفتقر أثرها في النفس ولا تنفضى إلى الذهن بالقوة التي كانت للمعنى في
جذته . ومن ثم فالابتدال مقصور على التراكيب ولا يصيب المفردات . وما دام
للكلمة معناها الذي يفهم منها ، وهي سرية مصونة ؛ فلن يتطرق إليها الابتدال
ولو طال تكرارها . وإلا فنيت اللغة وانقرضت جميع مفرداتها بعد جيل واحد .
وعلى هذا ليس مما يشكر عليه حافظ ولا مما يعد توقياً منه للابتدال أن

يستبدل « عابا » يعيب في قوله « وقد كان أسر عاب بها أنها حدباء » أو معناه
بمعنى في قوله « وهذان أيضاً لا معناه للإبقاء عليها » أو خرصت يظنتت في قوله
« ثم رفعت لى قرية فيسمتها فخرصت عليها أنها قرية رومانفيل » أو بسلا
بحرام في قوله : « بسل على أن تموت فانتين » إلى أمثال ذلك مما هو بالمدلقة
أشبه . وما عتازوك أن تسلم من ابتدال اللفظ فتقع في فكرة مبتذلة ؟؟

وإننا أن نلوم حافظاً على شيء آخر . ذلك انه حذف عذارين الفصول
وأدبجها كلها في فصل واحد فوزع من الكتاب ما قسمه صاحبه ، وقد أفسد عليه
هذا الولوج بالوصل الذي ظنه من لوازم الاسلوب العربي جملاً كثيرة سمعتها منه
ثم عدنا فقرأناها على وضع آخر . وإننا لنجد الجملة في وصف أهل الجلسة حين
قام بينهم سادلين يعترف على نفسه بالجرية « فذهب بأهل القاعة وحالوا إلى
عيون تنظر ، وأقندة تحقق ، فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح
أشراطاً ولا مدافعين - أنسى كل غرضه - نسي الرئيس أنه جاء للرئاسة
والمدعى أنه قام للاتهام والمحامي أنه مثل للدفع والحرس انهم أقيموا للحراسة »
فقد سمعنا منه هكذا ثم لج به وسواسه فأضاف (الواو وقد) قبل نسي فذهب
بما لفاجأة الاقتضاب من معنى بليغ في هذا القام . وغريب هذا منه مع أنه أحسن
الفصل في غير جملة من الكتاب .

ولكن لا ننسى أن حافظاً جهد لاجتناب النقص والحلل وأنه أراد خيراً وصنع
خيراً . فاستحق عذراً جميلاً وشكراً جزيلاً .

وإننا لعادروه وشكروه . وحامدون له ما أفاد به من فضل وعناية .

صفحة من أقطع الكبير . واسم الكتاب ينم على موضوعه فهو مخصص لنقض المذهب المادى وإيراد أقوال طائفة من كبار الفلاسفة والعلماء على بطلانه والدلالة على قصر نظر المتشبهين بالمادية البحتة يظنونها آخر ما يعرف من حقائق هذا العالم ويخيل إليهم أن « لا » التي يقولونها ليس بعدها « نعم » ولن يأتي بعدها جواب آخر . ويكاد يكون محور الكتاب معنى الجملة التي اقتبسناها من شوبنهاور وصدرونا بها هذا المقال .

وأقل ما لهذا السفر من الأثر هو أنه يعلم من له استعداد للتعلم كيف يشك في شكوكه وكيف يستضخم هذا الكون الأزلى الأبدى عن أن يكون له حل واحد بسيط يقنع بقبوله أو رفضه ثم يستريح منه بنعم أو بلا كما يستريح من حل مسألة حسابية عرف جوابها وروجع ميزانها . وجزى الله الأستاذ خير الجزاء على هذه الأريحية العلمية فإنه أراح طائفة أغرار الملحددين من النظر في عشرات الكتب النفيسة التي لاتصل إليها أيديهم ولا يظنونها تنفعهم شيئاً أو تحول نظرهم إلى اتجاه جديد بعد الحكم المبرم الذى أمضوه على هذا الوجود وفرغوا من شأنه . ولو سئلت رأى لأبيت إلا أن أكلفهم ثمن الإفاقة من هذا الغرور يكد عقولهم وتلظى نفوسهم . لأن الخروج من الجهل الذى أسبغوه على أنفسهم ليس بالمطلب السهل الرخيص المنال ، ألا تراهم يمينون على الناس بإيمانهم وتصحيح عقولهم ويجلسون بمجالس القضاء فيقولون : « إن العقائد التي رويتها لنا مشوبة بالأوهام والترهات والخطأ الظاهر للحس فلا حرج علينا من رفضها حتى يجيئنا من العقائد مايقوم البرهان على صحته » ؟؟ وإنه لقول ينبئ عن قصور في فهم الواجب على الباحث خاصة وعلى الناس عامة . إذ أى سلطان في الدنيا يلزم طائفة من الناس واجب التنقيب عن الأدلة المثبتة للعقائد الصحيحة وي طرح عبء هذا الواجب عن الطائفة الأخرى ؟؟ ولماذا تنتظر هذه الفئة من أغرار الملحددين في مكانها كأنها الشارى في الحانوت يجلس على كرسيه ويقوم البائع بعرض السلع عليه واحدة بعد واحدة فيقبل ويرفض وهو متكئ في موضعه ؟؟ لم يكون هذا البحث واجب ذلك البائع ولا يكون واجبها ؟؟ لم تنتظر أن يجيئها اليقين من غيرها ولا تعمل لاستخراجه من ذات نفسها ؟؟ وهب كل

على أطلال المذهب المادى

« كلما انحط الإنسان في القوة العقلية قلت
ساير الوجود في نظره . فكل شيء عنده
يجعل معه تفسيراً لكيفية وجوده وسبب
حدوثه » .

(شوبنهاور)

للأستاذ^(١) البحاثة فريد وجدى فضيلة خاصة قل أن رأينا لأحد غيره من كتاب مصر وعلمائها في هذا العصر وهى فضيلة المثابرة على العمل وخلص النية للعلم والبحث . فهو لا يفرغ من تأليف مؤلفاته العديدة إلا ليشرع في تأليف جديد . وكفى من آثار هذه الخصلة النادرة أنه استطاع أن يتم دائرة معارفه في وقت لم يكن أصعب فيه من تأليف الكتب ، والمطول منها على الخصوص ، لأنه وقت الحرب . وناهيك بمشاق الطبع في ذلك الوقت واستجلاب كتب المراجعة وما هو أعظم من ذلك في عقبات الحياة الأدبية عندنا وهو ضيق الصدور وقلة صبر الناس على المطالعات الجدية المطولة وانكباب أكثرهم على القصص التافهة والموضوعات الفارغة التي لا يحصل لها من علم أو خلق أو ذوق . ويقيننا أن الأستاذ وجدى على تقدير الكثيرين بيننا لفضله وثنائهم على جده وإخلاصه وإعجابهم بنزاهته لا يزال مغموط الحق لا يستوفى حظه الواجب من الإنصاف وسيعرف له المستقبل عمله أكثر من معرفة الحاضر به .

والكتاب الذى بين أيدينا اليوم من مصنفاته الكثيرة الميمونة هو كتابه « على أطلال المذهب المادى » وهو سفر قيم في ثلاثة أجزاء تبلغ زهاء خمسين وثلاثمائة

(١) نشرت في يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٩٢٨ من جريدة الأفكار .

هرتهم المرعب من الفكر بل ربما كنا نحن أخف منهم بالرعب لأنهم كانوا يكفرون بالله ليؤمنوا بالله آخر وينبذون نحلة ليأخذوا بنحلة غيرها ، كانوا يكفرون بالسنتهم وقلوبهم مطربة على اليقين أما نحن فمن يكفر منا فقد أراد أن يجتث نفسه اجتناباً من شجرة الوجود وباه بلمعة دونها تلك اللعنة الموهودة في نثر الأقدمين . فإن كان الكافر منهم على نظرة من خسارة الحياة المقبلة فالكافر منا معجل العقوبة في الدنيا قبل الآخرة .

ولقد قلنا إن فائدة كتاب وجدى الرشيخ الأخلاقية أكبر من فائدته الدينية لأننا نعلم أننا لم نصب في نهجنا الروطية من ناحية أضر من ضعف اليقين وقلة الثقة بجادئ الأخلاق السامية . وهي عيوب في النفس قلنا قبل أن تكون عبرة في طرق التفكير . ولو لا هؤلاء الملائكة الذين ملأهم جهلهم حتى لم يبق فيهم فراغاً لجهل أو لعلم والذين لا غفلة عندهم إلا غفلة الاعتقاد بأن هذا الكون العظيم فيه ربح للنفس غير الغذاء والكساء وغلاظ الشهورات ، لا كانت حالتنا الآن ما ترى .

فعل هذه الفرائد المضاعفة تشكر الأستاذ الجليل راجين له التوفيق في جهاده الصادق ، ولنا بعد كلمة نطلبه على رأينا فيها وهي أن أخطر الشكوك ما داخل الفكر من ناحية العقائد الباطنة لا من ناحية المشاهدات الحسية . وإن أنجع البراهين ما يحسم شكوك النفس لا ما يقع ظاهر الحس . فالعناية بهذه البراهين العقلية النفسية مقدمة على العناية بما كان من قبيل تحضير الأرواح وما يروى عن أعمال المحضرين ولو كان كل ما يروى عنهم صحيحاً .

تقول ذلك لأننا ننتك في أكثر الروايات من هذا القبيل . غير أننا لا ننتك فيها تفليهاً للمادة وإكثاراً للمغيب المجهول كيمض الذين يتكرون الأرواح وتحضيرها ، وإنما يعترينا الشك من ناحية واحدة ؛ وهي تنزيه العالم للمغيب والناس الوحيدة والارتباط بين ما نستشقه من قوائمه وأغراضه وبين ما نراه من ظواهره التي يقع الحس عليها ، وقد يبدو لنا أن انتهاء البحث القديم المتصل في أمر الروح باظهار الروح نفسها للباحثين فيها لمو كالاختبار بامتحان يعطى فيه

دليل أتى به الناس من قبل على صحة آرائهم قد بطل وانقض فهل هذا مسقط عن أحد منهم فريضة التماس الهداية؟؟-أترى هذا الكون شركة مساهمة لسمسار أو سمسارة قد استأثروا بمصادره وموارده ليرجوا له ويقنعوا الناس بفلاحة وروبح أسهمه فيشترى منهم من يشاء ويعرض عنهم من يشاء؟؟ كلا ! فأنا الكون شركة الجميع ولكل من الناس حصته فيه وعلى كل منهم واجب البائع والشاري والزوج والراعي والماسر والوسط في آن واحد . فلنطلب الحقيقة كنا ولا ينجح أحد منا إلى زخرفتها وتزيينها فما هي بيعاعة لأحد . ألا ولكن قليلة أو كثيرة ومشوية أو خالصة ومرة أو عذبة وكرهة أو شبيهة ، فمن استغلها فليكرها ومن رأى فيها الزغل فليتها ومن عافها أو كرهها فليصالح منها ما عاف أو كره . وليس لاسرى أن يقول أروى أصل كونكم هذا لأقول لكم هل أصبتم أو أخطأتم وهل أفلمحتم أو حبط سميكم . بل تعال أنت فاعلم نفسك معنا فليس أحد منا يخادم لك ولا أنت بضيفنا في الكون فنعهد لك منه ما لا تريد أن تهبط بيدك .

ولكن الأستاذ وجدى مشتق على هؤلاء الأغرار يستصعب عليهم هذا الطعام القوي فيسرى لهم اللقمة ويجهزها للتناول ، فلملهم يزدودونها سائفة ولعما تنفعهم على سهولة متناولها ، ولو أدى هذا الكتاب الفروض المؤلف لأجله لكانت فائدته الروطية الأخلاقية أكبر من فائدته الدينية ، لأنى أعد إلهاد الطائفتين آفة في الأخلاق وطبيعة النفس ولمنة فادحة تعمور أعمال الانسان قبل أن يكون لها أثر في معتقده وفكره . إذ ما هو الكفر في معناه الحقيقي؟؟ إنه الارتباب في نظام الوجود . في حكمة الحياة . في نفس الإنسان . في غاية أعماله وأمراته . في حبه ويعضه وأمله وبأسه وسعادته وشقائه وشرقه وضعته وفي كل ما هو فيه وما هو خارج عنه . إنه وقفة الإنسان بين عوالم لا يأمنها على نفسه ولا يعطمئن منها إلى ملاذ قريه . فهو في ما بينها طرفه شريد غاضب مغضوب عليه . ولكن خطر لى - طول معنى الكفر في نفسى - أن الانسان لن يكون في طاقته أن يجحد الله صدقاً ولو قال ذلك بلسانه واعتقده في روعه كما ليس في طاقته أن يجحد نفسه ولو أنكرها بقوله واعتقد أنه كاره لها شيرم بوجودها ، ولم يحطى الأقدمون في

وحده فما تنقل من أسفل دركاتها إلى أعلاها حتى صلى منها ألوانا من العذاب لا يحصرها الوصف ، ثم وراء ذلك جهاده في التوحيد والتنزيه ، ووراء جملة تاريخ العقيدة الخاص بها تواريخ ضحايا أخرى هي ضحايا العلوم والفنون والصناعات وهي التي ساعدت على تصحيح النظر إلى الكون وتنقيف العقول وتهذيب المشاعر وتقويم الأديان ، ومن ثم امتزجت بتاريخ العقيدة الذي لا تاريخ للإنسان في الحقيقة سواء - فلو أنه كان ينفع الانسان أن يلقي سر الحياة بلمحة واحدة من العين أو بلفظة واحدة من الأذن وأن ينتقل من الجهل إلى المعرفة ومن الضلالة إلى الهدى بدفعة واحدة من قوة خارجية تدفعه كما تدفع الآلات وليس بجهد نفسه وعناء فكره لكان عبثاً طول ذلك الانتظار ولكان قسوة بالغة كل تلك الآلام والأخطار . وكان باطلاً ما اقترن بها ونشأ عنها من تجاذب في الأفكار ، وتفاوت في الأقدار ، وأنشأها وتباعد في الأقوام والأنصار .

نعم فجميع أولئك كانوا خلقاء أن يطلعوا على السر الأعظم بلمحة واحدة في لحظة واحدة . ولكن الله لم يشأ ذلك . وإنما شاء أن لا يرتقى الإنسان إلى درجة من المعرفة أو الدين ، حتى يستحقها بعمله واستعداده واعتماده على نفسه ، وما به جلت قدرته وتعالى حكمته من عجلة . فالأبد مديد وساحة التجربة واسعة والتكامل الحر المهتمدى في ظاهره بالاختيار دون الاضطرار جدير بضحاياه وبأكثر منها . ولاضحايا في الحقيقة . لأن التضحية هي الفقد ولا يفقد شيء في هذا الكون المحكم الرحيب .

على أن الناس إما مقلد يؤمن بالقُدوة أو مجتهد يؤمن بالبحث . فأى هذين يصلحه ظهور الأرواح له عياناً؟؟ فأما المقلد فإنه في غنى عن ظهور الأرواح لأن كلمة أئمة عنده كالبينة الملموسة أو أشد وقعاً ، وأما المجتهد فقد شككته أسباب لا يكون لإيمانه قيمة أو يقتنع ببطلانها ويتدارك علة الزيف فيها . والذي نعرفه أن الذين تظهر على أيديهم الأرواح ليس لسوادهم فضل يؤثر لا في الإيمان التقليدي ولا في الإيمان الاجتهادي ولا في الإيمان اللدني ، فما معنى اختصاصهم بهذه المقدرة؟؟

نص الجواب مع السؤال : أو كالفراغ من دست الشطرنج برفع الشاه ووضع في العلبة بدلاً من متابعة اللعب إلى النهاية . ولنفرض مثلاً أن رجلاً أمر أبناءه بالسفر في رحلة مجهولة وجعل على كل منهم مبلغاً من المال يكسبه لتصلب على العمل أجسامهم وتحصيف بزاولته عقولهم ، وليختبر بتحصيلهم ذلك المبلغ ما استفادوه من علم بمسالك الأقطار ومصاعب السفر وتقليب الأسعار والسلع . وإنهم لما تفرقوا عنه وانعوا من الرحلة عقبته ومن التجربة معضلتها أنفذ إلى كل منهم أن اذهب إلى مكان كيت وكيت تجد المبلغ الذي فرضته عليك فخذة واجمله إلى لتسرفي بنجاحك في ما أخرجتك من أجله . أو لا يكون ذلك غريباً؟؟ ألا نراه مبطلاً لغرض الرجل من تدبيره ، معطلاً لسعي أبنائه ، ملغياً لرحلتهم من مبدئها إلى معادها؟؟

وهذا العالم الإنساني قد درج في كل عهد من عهوده . وفي كل عهده من أعمار وحدانه وجماعاته على أن يمارس الحقائق ممارسة ولا يلقيها تلقيناً .

وما كشف سرا للطبيعة ولا اتقى لها ضرراً ولا استخدم قوة فيها ولا يفض الإغلاق عن أصغر قانون من قوانينها إلا بعد أهوال شداد وأغلاط تبدأ وتعاد وغصص تجرعها قطرة قطرة ثم توارثها فترة بعد فترة ، وليس بين تواريخ الإنسانية ذات الشعب والمناحي المختلفة ما هو أحفل بالضحايا والآلام من تاريخ العقيدة ونعني به تاريخ الروح الباطنة . أو تاريخ البحث عن الروح في الإنسان وفي الوجود . وباله من سجل دموى رهيب .

فلقد خاض الإنسان نار المحيم في معراجه إلى تلك السماء . فلوثته دماء القرايين الآدمية وشقى دهوراً بالمذابح والحروب الدينية واقترب أشنع الآتام وأبشع الفظائع وهو يزعمها هداية وصلاًحاً ويتقرب بها خاشعاً متبركاً ويرجو المثوبة عليها وهو في ظاهر الأمر بالعقوبة أولى . ففي أى شيء حمل تلك الجهالة وفي أى سبيل ذهبت تلك الضحايا؟؟ لقد كان يخوض جهنماً بعد جهنم من تلك التجارب لينتقل من عبادة خشبة إلى عبادة خشبة غيرها قد تكون مثلها من جميع الوجوه وقد تفضلها من وجهة نظر خفية بعيدة لاستحق في الظاهر كل هذا الشقاء والمطال . وكانت له صرعات تتكرر ومحن تتوالى في شوط الوثنية

ن حنة ربه ورجل لشم لنأ باوم اربن والسع لا حمالا سدكها قنصه ركب
هية حنة ربه ورجل لشم لنأ باوم اربن والسع لا حمالا سدكها قنصه ركب

الوضوح والغموض في الأساليب الشعرية

قرأت للأديب الحاذق^(١) « صدقي » مقاله في الهواء الطلق . واستوقفني منه إشارته إلى الفرق بين عبارات الإفهام وعبارات الشاعر وأراه على صواب بين في هذه التفرقة ، فإنه مما لا يقبل الجدل أن للعلميات وما نحا نحوها أساليب تختلف عن أساليب الشعرية وما يخرج من ينبوعها ويتولد من معدنها ، ولكل منها نمط من القول لا يساغ ولا يصلح في سواه . وهذا الذي أردت إجمال الكلام عليه في هذه الكلمة .

يقول الأديب : « ولربما يدين الريحاني بأن العبارة الواضحة المعتادة تخاطب الأفهام وأن الشاعر تخاطب بلغة أخرى ، وبهذه اللغة الأخرى نحن ندين ولكن غير مطموسة الرموز بل تترامى معانيها خلف نقاب من الشف لا هو يسترها إلى حد أن يخطئها العيان ولا هو يبديها إلى حد لا يعود معه لخيال القارئ عمل » .

وهذا صواب لاشية عليه ولا سيما الإلماغ إلى سبب استهجان الوضوح المفرط في عبارات الشاعر وهو أن يشل حركة الخيال ويبطل عمله - بيد أنه يجب ان يقال هنا إن رفع ذلك « النقاب الشفاف » واجب بل فرض مقضى على الشاعر كلما تسنى رفعه دون إخلال بالمعنى أو تعطيل لمتعة الخيال ، إذ ليس الفرق بين أسلوب العلم وأسلوب الشعر في درجات الوضوح والغموض وليس ذلك النقاب الشفاف بالمائل بين ماهو من سبيل العقل وماهو من سبيل الخواالج النفسية . وإنما الفرق الذي بينها أو المائل الذي يفصلها كائن في طبيعة الاشياء التي يتناولها كل من العقل والخيال وفي طريقة تناول وكيفيته . فلو أننا جئنا بدرس من كتاب الكيمياء فلفقناه بالغلائل والحجب وأطلقنا حوله من البخور والدخان

(١) نشرت في العدد السابع من صحيفة الرجاء .

تخطر لي هذه الخواطر فأشك في تحضير الأرواح ولكني لا أقطع الشك باليقين
لأننا قد نخطئ في استقصاء القياس من الماضي وقد نكون على أبواب طور
للإنسانية لا يقاس على ماسلف ، وكل ماهو مجهول فحجته فيه .

كل ماني جعبة الطلام والسحر لا صار شعراً . ولو أننا جتنا بفن من فنون الشعر فغمرناه في بحر من التور لا تخفى فيه خافية وبسطناه حتى لاموضع فيه لا لفتاة لا صار علما وإنما يبقى الأول علما غامضا ناقصا ويبقى الثاني شعرا مبتدلا ناقصا كذلك .

ولا أذكر أني قرأت بيتا أو جملة قط لفحل من فحول الشعر والبلاغة فأحسست للقاتل اختيارا في وضوح عبارته أو غموضها فإن المعنى إما أن يكون واضحا بطبيعته فلا يكون إغفائه للمبالغة والترويح إلا شعورة ينبو عنها بل يستحى منها كل طبع تزيه . وإما أن يكون غامضا بطبيعته فليس للشاعر أو الكاتب حيلة فيه ولا يقال حينئذ الذي يحتوش كلامه الغموض أنه ذاهب فيه مذهبا خاصا يقصده ويؤثره على سواه . وهذه آثار أئمة الشعر وفحول البلاغة في الشرق والغرب بين أيدينا فليبحث فيها من شاء فهل تظنونه يجيد في أطوائها معنى واحدا مما يعد من آياتهم وغرر أقوالهم وشواهد بلاغتهم حجبهه قصدا أو على غير قصد ؟؟ إن وجد فإنما يكون ذلك بين سقظهم الذي يعتبر له ويتمحل فيه التأويل لا في المميز المنتقى الذي يشاد به فضلهم وتذبح لأجله شهرتهم .

ولقد تقترن العبارة البليغة بعبان جمة لاتزال تسترسل في الذهن حتى يجتوبها الغموض في ظلال الفكر البعيدة وشعاب الخيال المستمرة ولكن لا يلزم من ذلك أن يكون لهذا الكلام البليغ نصيب من الغموض الذي لابد تنتهي إليه معانيه ذهابا مع الخيال ومطالعة لتداعى الخواطر وتلاحق الصور . انظر مثلا إلى هذه الآية الكريمة : (والصبح إذا تنفس) فلعمر الله أي ثروة معنوية فيها وأى وضوح وإيجاز ؟؟

ثلاث كلمات موجزات هيئات نانس لكل ما قيل وصفا لأول طلوع الفجر مانأنسه فيها من اعجاز التعبير ووفرة المدلول وتنوع الصور واتساع مجال السبح للخيال . وماخطرت لي هذه الآية مرة إلا تفتحت أمامي فجأة صورة كاملة للفجر البهيج . بعضها تمم به العين في ضحوة النهار وبعضها يلوذ بعالم الأحلام من غرابة وفنار . فيهب على نفسى نسيم الصباح الندى ، وأتمثل الطبيعة يتهد به صدرها كأول ماتذب الحياة في الجسم بعد طول السبات .

وأستروح أنفاس الرياض شائعة في كل مهيب ومطار ، سياراة بنفحات الرياحين والأزهار . وتبادر من هنا وهناك طيور طار عنها النعاس وخلاتق فارقها كسل الظلام وشملها من « نفس » الصبح مايشملها من نور فإذا هي حية صادحة . مستوفزة صائحة . وإذا الفجر كله كأنه نفس عسيم من أنفاس القدرة الخالقة المبدعة : قدرة الحياة الأبدية المتجددة .

وهذه الصور الكاملة تلهمك إياها كلمة « تنفس » بسرعة البرق وخفة السحر ولذة الحلم . فهل حفلت قط كلمة بمثل ماخفلت به هذه الكلمة الواحدة في موضعها من الأشكال المأنوسة والخواطر القريبة والبعيدة ؟؟ وهل في هذه الكلمة أوني الكسرات الثلاث أثر لأقل تعمل أو غموض ؟ فمن هنا نعلم أن القدرة في التعبير لايعوقها الوضوح أن تتمتع الخيال إلى آخر مداه ونهاية سبحانه . وإن الذي يهرب إلى الإبهام فرارا من الجلاء إنما يهرب من عجز ظاهر إلى عجز مستور .

وانظر كذلك إلى هذه الآية القرآنية في الإنذار يوم القيامة (يوم ترونها تذهل كل موضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فأنى هول لايسبق إلى الروح من هذه الآية المعجزة ؟ وأى دهشة تفوق دهشة العقل من تلك الصورة الموجزة ؟؟ أرى بلاء ذلك البلاء الذي يذهل الوالدة عن رضيعها ويتغشى الناس بحيرة السكر وهم مفقون ؟؟ ليخيل للانسان أن جهنم نفسها قد جنت من ضراوة وجوع فزحفت بأهوالها تلثم الخلق التهاما وماهم من مهرب وماهم مهتدين إليه لو أصابوه ، وإن الخيال ليهجم عليه الهول من هذه الصورة الداهاة حتى ليكاد يحجم عن استفسارها كما تحجم الفريسة عن التأمل في وجه أكلها ، فهو يبلغ أوج الشعور في وثية واحدة ولكنه لايجرم قليلا ولا كثيرا مما هو مدمج في تفاصيلها . والآية كما تراها ليس في مفرداتها أو تركيبها أو معناها مسحة من خفاء أو كتمان .

كذلك ترى بلاغة هذا التمثيل حيث وجدتها على تفاوت في الدرجات والمناهج والأساليب ، فإذا التفتنا من القرآن إلى الشعر في لفتنا ألفينا شواهد

أعنة الخيال إلى أبعد غاياته لعموض يشوبها أو لوضوح يديها ويسطع عليها ،
ولكنها تحضر المعنى وتطلق الخيال متى وقعت في موقعها واستوت في سياقها :
فمن اقتدر على ذلك فليعالجه وليعلم أنه مستغن عن ظل الغمام وسدل الإبهام
بنصوح بيانه وصفاء وجدانه ، وأما من يلوح له معناه الواضح صغيراً فيثقله
بالسجف المصطنعة والتعاويز الملققة فإنه إنما يلجأ إلى الاحتيال . ويبيع على
الناس بضاعته بأعلى من ثمنها الحلال .

كثيرة على هذا الوضوح الحافل بالأشياء والمخاطر : ومن هذا الباب استهلال
البيحترى في وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يجتال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلمها
وبيت مسلم بن الوليد يصف مجهلاً من الأرض :

تمشى الرياح به حسرى موهة حيرى تلوذ بأكتاف الجلاميد
ولا يقل عن هذه الطبقة قول ابن الرومي يذكر بلداً « بغداد » :

فإذا تمثل في الضمير رأيت عليه أغصان الشباب تميد

أو قوله الفكاهة الذي تناهى في ضبط الشبه حتى لامزيد للعيان ولكنه يخلى
للخيال منصرفاً سهلاً إلى تصور الهيئة النفسية ومعاني الملامح فيعطئها حقها من
التأمل المضحك المطلوب . ونعني بيتيه المشهورين في تشبيه الأهدب :

قصرت أخادعه وطل قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا
وقول أبي تمام يتحسر على عهد نعيم فقده :

لحظت بشاشتك الحوادث لحظة ما زلت أعلم أنها لا تسلم
وقول قطري بن الفجاءة يفتخر بمواقفه :

ويوم هو لأهل الخفض ظل به هوى اصطلاء وغى نيرانها تقد
مشهرا موقفى والحرب كاشفة عنها القناع وبحر الموت يطرد
وقول المعري :

قال صحبي في لجتين من الحند س والبيد إذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجد سمان في حومة الدجى غرقان
ولايكاد يخلو كلام شاعر أو كاتب مجيد من أمثلة حسنة على هذه البلاغة
المكشوفة السافرة ، ومن هذه الأمثلة يظهر لنا أن ازدحام المعنى قد يعبر عنه
بلفظ لا ازدحام فيه ، وإن الكلمة لا تحضر في الذهن معناها المراد بها ولا تطلق

فلا ترى على وجه الرجل الشريف فرقا بين أثر الأنفة من خلق وضع وأثر الأنفة من جيفة منتنة . فكل الأثرين في السحنة سواء كما رأيت . وقد عرف العرب بدقة وصفية في وضع أساء المحسوسات واختيار ألفاظها قل أن يشاركهم فيها غيرهم من أصحاب اللغات ، فمن يسمع كلمة الأنفة ولا يتبادر إليه أن فيها معنى مما يتعلق بفراسة الأنف ؟؟ وذلك لأنه ليس في جسم الإنسان جارحة تظهر عليها سمة الترفع فثبررها في الأنف ، وإنما علة ذلك ماقدمناه - وربما كان سبب هذه الدقة في هذا النمط من كلمات العرب أنهم كانوا قوم بادية تكثر بينهم الفراسة والقيافة لحاجتهم إليها في حياتهم ، والفراسة كما تعلم هي رد الملامح المعنوية إلى أصولها الجسدية واستكناه شيء في النفس بشيء في الجسد .

وكما يكون الاشتمزاز المادى داعياً لصاحبه إلى الصد عن مبعثه وكراهة التطلع إليه ، كذلك يلزم أن يكون الاشتمزاز المعنوى صارفاً للعزوف عما يباه من خباثت الناس وفضائحهم ، ومانعاً له عن إطالة النظر إلى أدران نفوسهم وقدر أخلاقهم ، وإلا فهو اشتمزاز طبع أبحر لا يشم ما يشتمز منه ، ولهذا كان أكبر برهان على احتقارك إنساناً أن لا تعرض به ولا تخوض في مثالبه وليس البرهان عليه ذمك إياه ونيلك منه ، إلا أن يكون ذلك لغرض تحتل من أجله محنة النظر إلى ماتعافه ، ولهذا أيضا كان أكثر الناس وقوعاً في أعراض الناس وجداً وراء صفائهم وخسائس جيلاتهم هم أكثرهم فضائح وأرذلهم مروءة ، إذ كانت النفس الكريمة تتأذى من انكشاف هذه العورات لها ولاتطبيق النظر إليها ، وما يطبق النظر إليها إلا الذين لا يخجلون منها لو انكشفت للناس فيهم . وهم في ذلك كالأطفال في جهلهم وإن لم يكن لهم عذر الأطفال .

الاشتمزاز

إذا حضرت^(١) مجلساً تذكر فيه قصة رجل من أهل الدنس والسيرة القبيحة فانظر إلى السامعين وراقب سحتهم فإنك ترى أكثرهم يظهرون التقزز والاشتمزاز فيشدون متأخرهم ويطبّقون شفاههم أو يشيحون أحياناً عن المحدث بأبصارهم ووجوههم وربما اشتد الانفعال ببعضهم فيتفل على الأرض ويمتقع لونه . وإذا ترالت هذه الانفعالات في النفس ثبت منها على الوجه لحة يعرف بها أهل الترفع والعزوف .

وإذا رأيت أحداً يمر بشيء مما تعافه الأنفس ، وتكره رائحته الأنوف فانظر إليه تره يفعل ذلك أيضا ، ولكنه هنا يشد منخره ليعلق أنفاسه فلا تصعد إليها الرائحة الكريهة ، ويطبّق شفثيه لئلا ينفذ من بينها الهواء الفاسد ، ويدير وجهه كي لا يبصر مبعث ذلك النتن ، ويتفل إذا دخلت الرائحة إلى جوفه فهاجت فيه غدد اللعاب .

فالأصل في الاشتمزاز أنه حركة جسدية . ولذلك كان أثره في الوجه جسدياً جبلت عليه الأعضاء للوقاية مما يضر الجسد ويكدر الحواس ، وذلك بعض ما يستدل منه على أن كل معنوى في عواطف الانسان وخلاتقه فإنما أصله من الجسد أولاً ، وإن الانسان عاش زماناً في مبدأ خلقه لاحكم عليه لغير الجسم ، ولا محرك له غير مطالب الطبع الحيوانى من جلب رضى أو دفع أذى . فلما تولد فيه الإدراك العالى والإحساس المعنوى تخلفت عليه مسحة من الحس الجسدانى ، وبقيت هذه المسحة ظاهرة في أظهر العواطف وأنزّه الآداب . وهذه الأنفة مثلاً . أليس أرقى ما يسمو إليه أدب النفس ونبلها أن تنفر عن الدنيا وتتأذى من ذكر المعائب والمخازى وتأنف من كل وضع ذميم ؟؟ ولكنك تنظر

(١) نشرت في إحدى الصحف الأسبوعية .

الحلم البعيد العهد بالذاكرة تستعيده فيتألف في ذهنك شتاته ، وتبرز لك غوامضه ، حتى إذا اتسق الضياء وانجابت عن تلك المواضع ظلال الغسق ، مثلت أمامك وهي إلى مشهد حلم غابر أقرب منها إلى مشهد تراه بين يديك وتحس صلابه أرضه تحت قدميك ، فإذا نظرت في تلك الساعة إلى القمر ثم نظرت إلى تلك الأماكن ، آنست بينها ألفة وسرارا ، وعرفت لها حرمة وجوارا ، ورأيت من عزلة الأماكن وانفرادها ، وبعد الجالس فيها عن استشعار الصلة بغيرها ، ما يوهك أن القمر لا يطلع في تلك الساعة على غير تلك البقعة من الدنيا .

وقد كنت أتوردها الفينة بعد الفينة^(١) أقضى هزيعاً من الليلة - هناك - فأجلس على صخر قديم ساوره^(٢) النيل أعصاباً ثم قنع بمسح أقدامه ، وطغى عليه أعواما فلم يظفر بغير المرور من أمامه ، وأعوض العزلة بمساجلة بنات الأحلام ، ومسامرة عرائس الشعر . والله هن ما أجذهن وأطربهن ! وما أشد امتزاجهن باللحم والدم وأقربهن إليك في نسب النفس من بنات وعرائس !! فهن والله خفيفات ظريفات . أخف من كواعب الإنس وأظرف وأعز منهن في القلب وأشرف . لأن القلب يخلقهن كما يشاء ويرضى وكما يرسم الأمل ويحلى الهوى ، ومن له بأن يجد من حسان الانس من توافق الأمنية وتنزل على حكم الوفاء ؟؟ وأنى له منهن بمن يصطفها وتصطفيه على العلات . ومن لا يفترق لها أمل عن أمله ولا ينفصل لها ضمير عن ضميره ولا خاطر عن خاطره ؟؟ ولقد كن لا يغيبني في ليالي الصيف القصار ، ولا يفترن عني على شحط المزار ، وتوسط المهامه والقفار . وكأنما يكذبني لى وصف دعبل حين قال في هذه الديار :

هبطت محلا يقصر البرق دونه ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وإن امرءاً أضحت مساقط رحله بأسوان لم يترك له الحزم معلما
وسامح الله دعبلأ ما أقل حمده ورضاه وأكثر تجنيه وشكواه ! أتراه كان

(١) أزورها المين بعد المين .

(٢) واتيه .

ساعات بين الكتب

قصر ملا :

الآن ، وفي أسوان ، أى سبيل إلى غير الوحدة ومناجاة الأحلام ؟؟ وأى مشغلة للفراغ أجل من قضاء الوحدة في قصر ملا أو بين صفحات كتاب ؟؟

وقصر ملا هذا هو ظل دارس منصوب للرياح من أينما أقبلت :

درسته الريح مابين صبا وجنوب درجت حيناً وطبل جمع منظره بين وحشة القدم المتبدد .. ونضرة الصبا المتجدد . وقامت حوله وديفة منيفة^(١) تعرف باسمه ويرتاح إليها الطارق من سامة ذلك الشبح المهجور في أكمته ؛ وهي رباوة^(٢) أثرية ذات طباق يعلو بعضها على بعض ، في كل طبقة منها حياض الأزهار والنوار . ومنابت العشب والبهار ، تنتهى من بحبوحتها العليا إلى جانبها الغربى فتشرف من ثم على النيل ، ويستقبلك الجبل الغربى تليه الجزر والجنادل المعترضة في جوف النهر ، وهو ينساب بينها انسيابا ، فروعاً وشعاباً ، وتجلس هناك بعد الغروب فتتنظر أمامك إلى المقياس في هيكله القديم ، وإلى النيل يجرى وإلى الجندل قد اطلعت رءوسها على منته كأنها بعض حيوانه يتنسم هواء الليل ، وإلى الجبال ممتدة على طول الأفق كالديباجة السوداء حول تلك المناظر الساحرة فيجلو لك ضوء الكواكب منها صورة قائمة كأنها الصورة الفحمية رسب فيها الظل من جانب وطفا من جانب ، فإذا كانت مقمرة أخذ القمر يرفع عنها سدفة^(٣) بعد سدفة ، ويزحزح منها رواقاً بعد رواق ، كمشاهد

(١) روضة عالية .

(٢) أى رابية .

(٣) ظلمة .

الليل في قصر مسلا :

تقول الولاة لصاحبا :

« إن رأيت الليل أكرم للسر » وكذلك تقول لى المرائس الزائرات ،
الدائيات النافرات . عرائس الشعر وبنات الأمانى .

عهدتني لابلمن نهارًا بصاحب ولا ترسلهن السهـاء إلا على أشمة صباح
ندى البكورة أو سـاء سرى الأصيل ، رالها من ساعتين فيها للنفس جذل
وكتابة . وحركة وسكون . وضياء وظلام ونهار وليل - فاما إذ تنعيب أشمة
الشمس على الأرض كأنها وابل من السهام المصحاة . أو كسيل من النار . فهن
مقصورات في المقاصير . لانذات بحوراني الأنهار . ناصعات في أفناء الرياض
والبساتين . وعن في جو مدار السرطان أجدر أن يشفقن على أجنحتهن الخفاقة
من سمير التقيط وهجيروه وعلى وجوههن الناعمة أن يسفها الهواء المضطرم
بهرجه وزفيره .

فكنت إذا انفردت بذلك المكان ، أقبلن على من كل صوب مع همس
النسيم . وبناسة الشجر . ورفقة النهر . وشذى الريحين . وروسة النظم .
وحديثي بكل لسان ونابجيتي بكل بيان لا يخطئ لغة من اللغات بما ينطق به
الطير أو يورث به النبات . فكم جرس شجي لمن كأنه صدى الوتر المنطوح في
الغرفة المهجورة . وكم ضحكة ذات رنين يدور في مسامع النفس كما يدور فيها
هزج الابتسامة الصامتة . وكم لثمة تلسمها الأيدي قطرة ندى ونعسها الشفاه
رصاب ثغر يروء اللسى . وكم نظرة تشخص بعينيك لها ثم تعنى عنك في الالاء
الضوء . فإذا أنت شاخص إلى الفضاء تملأ العين بالهواء . وكم عيث لمن وكم
دلال . وكم صد لا يبلغ أقيح الحجر حتى يرتد إلى أحسن الوصال . لا أمل
عينهن ولا يجلهنه . ولا أقطع حديثهن ولا يقطنه . ورويا لج بين العيث والمراح
فيخبتن عنى ساعة في ألفاف الروضة . حتى إذا أمعن هربًا ، وأعيتني بعنا
وطلبا ، خرجن إلى من جانب الطلل ضاحكات ، أو أقبلن على أكف الموج

لا يلمح اللطيف في لياليه بأسوان ولا يسرى إليه البرق في سمائها أم كذلك دأبه
لا يزال يحبو الديار وسكانها ويجوى الأرض ومن عليها ويستعيد البعيد
والقريب منها ؟؟

أو لم يتأربك يا دعبل في ليالي غريبك طيف من بغداد ولياليها . ويجالس
الأنس فيها ؟؟ أو لم يبتلك وأنت مستلق على ساحل النيل ليلة من ليالي
الصيف ، صدى المزاهر في قصور الخلفاء . وشمو القيان اللغات المفتونات
ينفخ للجمال والحياة ، وينفخ الجمال والحياة فهن أنشودة الفوز للحب
والمسادة ؟ .

أو لم تحمل البرق عتية من عتبات نايك . وقد ذهب بك النورق . وقعد بك
النوى . رسالة إلى حبيب فارقته في ربيع دار السلام ؟؟ أو تحية إلى أخ من
مقارضيك الشعر على شواطئ دجلة ؟؟

ولكن من لك بالإخوان وأنت القتال :

مأكثر الناس لا بل سأقلهم . الله يعلم أني لم أقول فندا
إنى لافتح عيني حين أفتحها على كبير ولكن لا أرى أحدا

ولك العزربا دعبل . فأحسبك قد صدقت على كره من الصدق - وبست
الشكوى الصادقة - ولقد يحق لك أن تقع أسوان بحيث يعجز الطيف عن
تجسها ويقصر البرق دورها ، لأن خليقا بلحظك النزر أن لا ينهم . ولعمري
لا يعجز اللطيف إلا عن تجشم مكان واحد : هو سرير الساهر !! فهو أول من
عربن الأسد وأخوف للمدح إليه من وادي التيه .

نعم وللبرق أجدر أن يقصر عن مكان لا يجوده السحاب ولا يجعله إلى جوه
ركاب !!

أرضت بما قسمت . فلا عفت الأبناء . ولا ظلمت المشاق والأغلاء .
أيها الليل :

أنت رب الأرباب الأقدمين وله الألقمة الأولين . فيك فلا بدع يتجهد العباد
وتطلق أرواح الآلهة المحبوسة . في ظلامك الذي يترق فيه نور الضمير يجد
الكاثر إله ويظفر الثائنه المضلل بقطبه . قال يونج « بالليل يعود للمحد نصف
مؤمن بالله » . وقد صدق . فما من شك في أن نجومك وظلامك هما من نور الله
ورقاره . وهما أول من علم الإنسان الوحي وصور أذنه وعينه إلى عالم الغيب .
ثم خالك الناس أيها الليل مارداً بروضه الله ولا يحله من قيده سواء ، فقال
أيوب ساهرك العذب وراعيك المقيد يروى للناس تيكيت الله آلى شكواه
« قل أين منازل التور . ومكمن الظلمة ، فتقودها إلى مقرها وتذمها على سبيل
بيتها ؟؟ » وهل أخرج من هذا المارد الأعمى إلى الدليل ؟؟

ولو أن أيوب كان ينطق بلسان امرئ القيس لرأى ذلك المارد وقد ... تظلى
بصلبه .

* وأردف أعجازاً وناه بكلل *

أو رآه وهو جاثم كما قال ابن جندب المري :

ليلي تخبر ما يحصط في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول

وحاشا لليلة أيها الليل أن تخار وإنما تخار وتهدى فيك الأفكار . ومن أين
يتالك القيد وأنت مطلق النفوس من القيود والأصار . إنك أيها الليل لأهيب من
أن تقيد وأجل من أن تحد ، إنك لأشبه الوقت بالابد - : ساكن مظلّم سحوق .
أو أنت ابنه البكر كما خبرنا أجدادنا القدماء ؟ فلا جرم أرائق كلما دخلت كأنها
تفلت آلافاً من السنين إلى الماضي الدائر البعيد أو وثبت آلافاً من السنين إلى
المستقبل . فأننا فيه كاطلرقى الوحيد .

ساحات . وتسايقن إلى كما يتسابق الاطفال الفيلارى . وكلهن حبيبات إلى
أثيرات لدى . خلا واحدة بنين كانت مولعة بالاذى . مسطرة على النكاية . قد
دما اللعب والفضول على سهم قر في جانب القلب وكاد يتمل جرحه .
فما زالت منذ عرفته تمنى اللعب فيه ، وتتكأه حتى تدميه ، لا يزيدها النهى إلا
إغراء ، ولا الغضب إلا استهواء ، وواقه لا أعلم أنها أجهها أم أفلأها ، وهل
هى أود أخواتها إلى أم أقسامهن علق . ولا أدرى أدها اللعب والفضول على ذلك
السهم أم أنا قد دللتها عليه ، وكانت تعصاني إذ أنهاها عن مسه أم كانت تطيعني
بتلك المخالفة وترضىني بذلك الإغضاب ؟؟ لا أعلم . وكثيرا ما يجهل الإنسان
أسرار نف

* * *

كذلك تنصمم الليالى . فلما تصف الليل أو كاد لبنت برهة أنظر إلى الدنيا
تغرق في جوف الليل الممالك العميق ، وأنصت إلى لاغية المدينة تهبط رؤداً
رؤداً في ذلك الجب الأسود فما هى إلا هنيهة ثم لا يسمع منها السامع إلا أنين
ساقية يضررون بها المثل في طول الأنين والنحيب ، واللا هتاف النواتية يجأرون
في شمال المدينة بأصوات هى بأصوات العناصر أشبه منها ببناء بنى الإنسان .

* * *

أيها الليل :

إن ظلماً من الفلك الدائر أن جعلك موهج الحواس . ويخدع العقول . وإن
فيك يابل مسارح النظر . ومطرح الفكر . لا هو أرفق بالحواس من النهار
وأحل . وأخرج إلى العين والنزاد وأجل .

أيها الليل :

لئن أنامت فيك اللطيفة أبنائها لقد أسهرت عشاقها وأغلامها - أولئك
تأوسم إلى أحضانها ، وتكتنهم بحنانها . وهؤلاء تظهرهم على ظلم زنتها
وباطن جناتها . وتعتهم بجاليج خدرها ثم تظلمهم على سرائر وجدانها ، وكلا

بعد قراءته . وليس بأفراغ الكتب ولا بأقلها الكتاب الذى تقنع بتركه بعد الفراغ منه . فإنك ربما صادفك الكتاب الأجوف المغلق فأعجبتك رنته فجعلت تقلبه على كل جنب لعلك أن تخلص إلى لبابه ولا لباب له ، وربما صادفك السفر القيم الشافى فانتهيت إلى آخره مرتاحاً مصداقاً فقنعت بذلك منه . وقد عهدنا الناس بمنعهم البخيل فيراجعونه ويلحون عليه ويعطيهم المنعم الكريم فيهجرونه ويعرضون عنه ، وتلك ضرائبهم في مصاحبة الكتب . فلا تكن في المطالعة من هؤلاء .

وطريقتى في القراءة أن لا أذهب مع الطرف في الصحيفة إلا ريثما أذهب مع الفكر في نفسى . فقد أتناول الكتاب أبداً فيه حيث أبدأ إذا كان من غير الكتب التى يلتزم فيها الترتيب والتعقيب ، فيستوقفنى رأى أو عبارة تفتح لى باباً من البحث والروية فأمضى معها وأطويه فلا أنظر فيه بقية ذلك اليوم أو أنتقل منه إلى كتاب آخر . وأجد هذا التوجيه فى نفس الكتب كما أجده فى أردنها . فلا أميز بينها فى الابتداء . يكاد يستدرجنى إلى المضاء فى المطالعة غير موضوع يستوعب ذهنى ويأخذ على المؤلف فيه باب الانفراد بالفكر دونه .

فأما وقد عرفت رأى فى الكتب وطريقتى فى المطالعة فهلم نقرأ .

ابن زيدون :

يروج الأدب فى أيام السقوط كما يروج فى أيام الرفعة . والمعول فى الحالين على نوع الأدب ومادته لا على كثرته أو ندرته . ولقد راج الأدب رواجه المعروف فى أيام اضمحلال الأندلس وإدبار دولتها . وما راج فيها ذلك الأدب الخاص بأيام ملوك الطوائف إلا لاضمحلال وإدبار الدولة . فإنه قد شاعت على عهدهم مجالس المنادمة واللهو بين الرؤساء والكبراء بل نزلت إلى مصاف السوق العامة ، وقعد الناس لها ولاقتناء آلاتها والتبارى فيها ثم دعت الحاجة إلى التنظيم والمطارحة فى هذه الملاهى فدار أديهم كله على هذا المحور ، فكان الغلام أو الجارية لا يساوم فيها إلا على قدر حظها من الأدب وكان الفتى لا يظرف محضره

الكتب :

الكتب كالناس . منهم السيد الوقور ، ومنهم الكيس الظريف ، ومنهم الجميل الرائع والساذج الصادق ، والأريب المخطئ ، ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع . والدنيا تتسع لكل هؤلاء . ولن تكون المكتبة كاملة إلا إذا كانت مثلاً كاملاً للعالم .

يقول لك المرشدون اقرأ ما ينفعك ، ولكنى أقول بل انتفع مما تقرأ ، إذ كيف تعرف ما ينفعك من الكتب قبل قراءته ؟؟

إن القارئ الذى لا يقرأ إلا الكتب المنتقاة كالمريض الذى لا يأكل إلا الأطعمة المنتقاة . يدل ذلك على ضعف المعدة أكثر مما يدل على جودة القابلية .

واعلم أن من الكتب الغث والسمين . وأن السمين يفسد المعدة الضعيفة ، وأنه ما من طعام غث إلا والمعدة القوية مستخرجة منه مادة غذاء ، ودم حياة وفتاء . فإن كنت ضعيف المعدة فتحام السمين كما تتحامى الغث . وإن كنت من ذوى المعدات القوية فاعلم أن لك من كل طعام غذاء صالحاً .

وإن من منظر أنت تراه فلا تود أن تراه بعدها . أو صوت تسمعه ثم لا تحب أن تسمعه آخر العمر . فلا أدري من أين داخل القراء أن الكتاب إنما يقرأ قراءة واحدة . مع أن الكتاب أخفى رموزاً وأكثر مناحى نظر من المنظر والصوت . وأنت تنمو بعقلك أكثر من نموك بحواسك ، فأنت أحرى أن تعاود النظر فيها بمنحني به نمو الفكر . ومن كان يفهم ان قراءة الكتاب شىء غير الإتيان على كلماته ، وأن درسه مطلب غير استظهار صفحاته ، فعليه بلا ريب أن يكرر قراءته كلها استطاع ، لأن كتاباً تعيد قراءته مرتين هو أغنى وأكثر من كتابين تقرأ كلا منهما مرة واحدة .

ثم اعلم أنه ليس بأنفس الكتب ولا بأجلها الكتاب الذى تتوق إلى إعادته

لاين عبدوس الذي كان يزاحمه على الرئاسة ويقارعه في الشرف ويسابقه على الصدر في نادي الولادة . ولايندر بين الرجال من هوى المرأة لتلاها عده ، فلا يتوقف هواء لها على جمالها أو على تبادل الهوى بينها ولكن على المنافسة بينه وبين أقرانه ونظرانه .

وكان للولادة ناد مشهود كأندية الأندلس في ذلك الوقت ، وهو أشبه شيء (بالصالونات) التي كانت تعقدها النساء المتأديات في إبان الثورة الفرنسية فيؤمها الأدباء ليتنافسوا على الحب والشهرة ويجمعوا بين مطارحة الغرام ومطارحة الكلام ويثقلوا من الروايات الهزلية ما ليس يخلو منه مجلس فيه نساء يدعين العلم ويشتهين تحيير الرسائل الغرامية . ولايد للإنسان في أندية كهذه من أن يعشق ويساجل من له علم بالأدب ومن لاعلم له به . فإن لم يشعر في نفسه بلوعة العشق ولم يحسن المساجلة فعليه أن يتصنع حتى يتقن دوره ، ولا يعفيه من هذا الواجب تقدم السن ولا الخجل من مخالفة الطبع والعرف ، كلا ! فإنه لم يمنع عجزاً عما في السبعين من عمرها أن تتدله بكهل من دعاة السياسة في الخمسين من عمره^(١) ولا أبي عليها أن تقضى بقية حياتها الصالحة تثن من الصباية لا من أدواء الشيخوخة ، وتبث فاتها لواعج الوله والهيام لا دعوات الشفقة والحنان !!! وأين أدبيات الأندلس من هذا المضمار !!!

وكان ابن زيدون ممن وهبوا ذلاقة اللسام ورزقوا الفصاحة وحسن المحاضرة . فكان حدثاً^(٢) لبقاً وخطيباً لسنا . قال ابن بسام : « عهدي بابن زيدون قائماً على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمعته يجيب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنازه » .

وهبة الذلاقة والفصاحة قلما تتيسر لأحد مع عمق العاطفة وغزارة الشعور . ويقول جون ستوارت ميل في فصل له على تعريف الشعر إنها لا تتفقان في

(١) هو الوزير الانجليزي هوراس والبول وعاشقته هي مدام ديغان من أدبيات الصالونات الفرنسية .

(٢) أي حسن الحديث .

ويعذب سمه حتى يروى من ملح النظم والنثر ونوادر الشراب والمجون ما يناسب تلك المجالس ويصلح أن يدور مع الكأس على الندماء ، فانعدم الشعر الفحل وكسد الأدب الجزل وراجت سوق الأدباء والمؤدبين في الأندلس لهذا السبب لإشوكة الدولة ومنعة الملك والأمة .

ومن الشعراء الميرزين في أيام ملوك الطوائف أبو الوليد بن زيدون - أديب كانت قصائده مروية في أنحاء الجزيرة ، وكان إماماً يتحداه أديبها ويأخذون عنه . وهو شاعر سلس المذهب متخير اللفظ ، تقرأ شعره فيطربك ويروقك لكنه لا يستحوذ على لبك ولا ينطبع في نفسك . قال أبو محمد عبد الواحد المراكشي في تلخيص أخبار المغرب : « نسيبه يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة » وقال ابن بسام في الذخيرة « إن له حظاً من النثر غريب المباني شعرى الألفاظ والمعاني » .

والأصح عندنا أن يقال إن النثر في نظمه أكثر من الشعر وإن ذوقه كان أقل من ظرفه وكان ذكاؤه أظهر من عاطفته وإن الصنعة أبين في شعره من الطبع . ألا ترى أنه في أحر قصائده التي نسب فيها بولادة لم ينس الطباق والمقابلة بين ابتلال الجوانح وجفاف المآقي في قوله :

بنتم وينا فما ابتلت جوانحننا إليكم ولاجفت مآقينا
أوبين سواد الأيام وبياض الليالي في قوله :

حالت لبعدمكم أيامنا ففقدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليلينا
أو بين السدرة والكوثر وبين الزقوم والغسلين في قوله :

ياجنة الخلد ابدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

وقد لهج ابن زيدون بولادة أيما لهج وأربت قصائده على قصائد المجنون في ليلاه ولكنك يندر أن تعثر بينها بيت غلب فيه عشق الرجل للمرأة على صحبة الوزير لبنت الأمير وإخاء الأديب للأديبة . وهكذا كانت محبة ابن زيدون للولادة . فإنه يلوح لنا من قصته معها ومن شعره فيها أنه تحبب إليها منافسة

وأها لعطفك والزمان كأنه صيغت غضارته يبرد صباك
والليل مها طال قصر طولها هاتي وقد غفل الرقيب وهاك
يدنو بوصولك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك

ومثل قوله :

ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين إشراقا

ومثل قوله في الذكرى :

ودع الصبر محب ودعك ذانع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك
يا أبا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
إن يظل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك

وهي أبيات نقية بارعة ليس عليها شيء من تويده الصنعة ولا يتخللها شيء
من الشعور المكذوب والاحساس المدعى . فهي تسبق القارئ إلى نفسه وتذكره
لأول نظرة بأمثال موقفها من موافقه . وقد بلغ من سوء فهم الشعر قديماً أن
بعض الرواة نسب هذه الأبيات إلى الولادة وزعموا أنها أنشدتها ابن زيدون
بعد أول لقاء لها !! ولا نعلم ماذا يصنع هؤلاء الرواة بقوله (كم بت
أشكو) ؟؟ وهل هذا مما ينشد بعد اللقاء الأول ؟؟

وقال أحد باشوات مصر المحسوبين على الأدب في محاضرة ألقاها على تاريخ
ابن زيدون أنه ارتجل هذه الأبيات وهو يودع الولادة ذات يوم .. ولو أنه كان
يفهم الشعر ولو كما يفهم الحفاظ أي القرآن لأدرك أنها أبيات لا تقال في موقف
الوداع . إذ كيف يقرع السن على أنه لم يكن زاد خطوة في تشييعها وهو لم يزل
بعد في موقف التشييع ؟؟

أما سائر شعر ابن زيدون مما لا يتعلق به الاختيار فهو ك شعر عصره ، وك شعر
كل عصر من عصور الاسترخاء والترف ، لا يخرج عن الطريقة وكونه من
أحسن أهلها متاعاً ، وأطولهم في النظم باعاً .

الأمة الواحدة ، ففرق بين الفرنسيين والانكليز بأن الأولين أمة الفصاحة
والآخرين أمة العاطفة . وقريب من هذا قول سهيل بن هارون « اللسان البليغ
والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر
وبلاغة القلم » والفصاحة أليق ماتكون حلية من حلى النثر ، وشفاشق
الخطابة . وإنما كان ابن زيدون شاعراً فصيحاً كما كان كاتباً فصيحاً وكما كان
متكلماً فصيحاً ولم يكن كذلك لمزية له في الشعر على غير الشعر ولا لأن فصاحته
التي لم تكن تفارقه كانت تتم على قوة عاطفية فيه إذ المعهود أن قوة العاطفة
لا تملك الإنسان في كل حين ولا تلازمه في حيث يتكلم جادا ولاهياً وفي حيث
يلقى الخطب ويقرض فنون الشعر . ولكن لأنه كان حسن موهبة الكلام وكان
كلامه طوع إرادته لا طوع خواجه وأطواره .

وهذه الفصاحة فيه هي التي خيل لابن بسام أنها روتق الشعر في كلامه
المنثور ، فوحد الشعر والفصاحة ، وهما جد مختلفين ، وشتات معدن الشيء
وظلاؤه .

فاقرأ له التبتة الآتية من الكتاب الذي سطره إلى ابن عبدوس على لسان
الولادة .

« ولا يشك أنها قلتك إذ لم تضن بك^(١) ، وملتك إذ لم تغر عليك فإنها قد
اعذرت في السفارة لك ، وماقصرت في النياحة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت
معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف حاسنك
فغضضت منه . وإن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه « الخ . وهي مثل صالح
لنثره كله . فهل تعد لشعر ابن زيدون حسنة في عذوبة اللفظ وصفاء العبارة
ولطف الاستهزاء أحياناً إلا عددت شرواها في هذا النثر ؟؟ والشاعر ما لم تكن
لشعره مزية على نثره فالنثر به أجدر ، وهو على غير الشعر أقدر .

لكنك لا تخطئ أن تصادف في ديوان ابن زيدون البيت أو الأبيات فيها
الوصف الصادق والشعر المطبوع . كقوله :

(١) يشير إلى امرأة كان قد دسها ابن عبدوس إلى ولادة لترغيبها فيه .

إخرج إلى الجبابة وكان يوماً شديداً الحر فرادتها على القعود فلم تمكني من القعود فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يعرف برابطة الغبار وعنده الخطيب أبو محمد بن عبد الوهاب بن علي الملقى فقال لي إني كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك وقد فعل فالحمد لله ، فأخبرته بما كان مني ثم جلست عنده فقال أنشدني فأنشدته لبعض الأندلسيين :

عصبوا الصباح فقسموه خدوداً واستوعبوا قصب الأراك قدوداً
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم فتقلدوا شهب النجوم عقوداً
لم يكفهم حد الأسنه والظبا حتى استعاروا أعيناً وخدوداً
فصاح الشيخ وأغمى عليه وتصب عرقاً ثم أفاق بعد ساعة وقال : يا بني
اعذرني فشيئان يقهرانني ولا أملك نفسي عندهما : النظر إلى الوجه الحسن
وسماع الشعر المطبوع .

وقد ألف الضرب على هذا اللحن شعراء الأندلس فقال بعضهم فيه أيضاً :
سلبوا الغصون معاطفاً وقدوداً وتقاسموا ورد الرياض خدوداً
أخذوا البنفسج في الشقيق عوارضاً والياسمين معاطفاً وزوداً
بدلوا الخصور من الخناصر دقة واستبدلوا حلق اللجين نهوداً
فهل عرفت في هذا النحو قط أغرب من صوبة ذلك الشيخ الخطيب
وتواجه واضطرابه حتى أغمى عليه طرباً لسماع تلك الأبيات الزرية وتصب
جسمه عرقاً؟؟ وهل رأيت عمرك أملح من هؤلاء الشبان ذوى النهود
أو الشواب ذوات العوارض في الحدود؟؟

كذلك كانت صوبة القوم ومشربهم ، وكذلك كان الشعر الذي كان يطرهم ،
إذا أرادوا أن ينبهوا بصائرهم الكلييلة أو يحركوها وضعوا أمامها الصباح
والشهب واليواقيت وكل ساطعة ولامعة صيرة واحدة لأنها لا تنتبه لما دون ذلك
من المناظر الطبيعية . وتنظر إلى أشعارهم وأوصافهم ودواعي السرور والحزن
عندهم فيذكرك كل ما تراه منها بحال المختل السقيم أو المخدر المذهب
العقل .. تراه مثاقل الأعضاء بطيء النفس راكداً يفسده السكون ولا تصلحه

وما يدريك عصر الاسترخاء والترف؟؟ إنه عصر تزيف فيه الأبصار البصائر
فتكل عما وراء القشور والظواهر . عصر تكون البهائم فيه أصدق حياً من
الناس لأن البهائم لاتلعب بحبها ولاتبتذل غرائزها . تهجع المشاعر في أمثال
ذلك العصر فتعريد الحواس ، ويموت الحب الفطري فتمرح في رفاته ديدان
الشهوات ويأخذ الناس من كل شيء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه
إلى الحس وأصغره ، فلا يكون الجمال إلا صبغة في البشرة تلحسها الألسنة حتى
ترول ثم تمجها كما يميج البصاق الملوث من فرط التقرز والاحتقار ، ولا تكون
البساتين والأمواء إلا بمجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة بكلثها
ورياحيتها وثمارها إلا طنفسة مطرزة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشعر إلا
بهرجاً براقاً لو صور بشراً سوياً لثالت منه العيون ما لاتنال النفوس .
ولا الأخلاق والمروءة والشرف إلا آداباً يصطلح عليها المعاقرون ليديم لهم صفو
المجلس ، ثم ماشاء المعافر بعد ذلك من غي وشتار ، وماطاب له من عبث
واستهتار - لايشيته ذلك ولايقده في آدابه .

فكانت الولادة يومئذ تلقب ابن زيدون بالمسدس وتفسر هذا اللقب بهذا
البيت :

فلوطى ومأبون وزان وديوث وقرنان وسارق
وتكتب على طرازها الأيمن :
أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتي وأتبه تيهها
وعلى الأيسر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلى من يشتهيها
ويجيء المؤرخ الأندلسي فلا يرى في شيء من هذا مايدنس عرض المرأة
ويغض من حياها ولايبالي أن يصفها بالصيانة والعفة والكمال ..!
وما يدل أبلغ دلالة على حالة الأخلاق والأذواق في ذلك العصر ما حدث به
أبو عمر الملقى حيث قال : « كنت جالساً بمنزل بمالقة فهاجت نفسي أن

الرجال بالغزل ولم تنفرد به النساء ان كان مصدره الرقة واللين والنعومة . وكان براء من العنف والقسوة والخشونة؟؟ ولماذا يباح للرجل ان يطلب المرأة ويحمد منه الإلحاح في طلبها ولا يباح لها ان تطلبه ولا يحمد منها ان تستجيب لأول دعوة منه؟؟

إن الرجل لا يستأثر بذلك عبثاً ولكن لأنه أقوى عاطفة وأقدر على التغلب برغبته من المرأة . ولهذا السبب استأثر في أول الأمر بالزينة والحلي^(١) ثم شاركته المرأة فيها فانفرد دونها بالكشوط والندوب لأنها شارة الأيد والبسالة . ولهذا أيضاً استأثر بالنداء على المرأة واستدعائها إليه بالغناء الصوتي أو الغناء المقسم بالحروف . وهما أصل الغزل في الأحياء جميعاً .

• لست أرى أن المرأة كانت تطرب حينئذ للأصوات من حيث هي جميلة وأجمل . ولكنها كانت تسمع أكثر الأصوات تنوع نبرات . وتفاوت مقامات . فتجدها أكثرها انفعالاً وحرارة وأدلاً على القوة والرجولة ، فتتهيج فيها العاطفة العاطفة . وتبعث الرغبة الرغبة . وتنقاد للرجل الذي استطاع أن يزعج فيها رغبة العشق انقياد المجرى لا انقياد المنصت المميز بين توقيع حسن وتوقيع أحسن منه ولهذا كان الرجل البادئ بالصياح ، إذ كان هو الأقوى صدراً . والأشد من ثم تأثيراً . فإذا امتلأ صدره بالهواء الحار أزعج به صوتاً يردده الانفعال بين الارتفاع والهبوط والاستقامة والاهتزاز على الرغم من صاحبه . فيكون الغناء في أبسط حالاته . ويغلف لأجل ذلك صوت الرجل بعد البلوغ ولا يكاد صوت المرأة يتغير .

وقد تلمس دارون علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعرس عليه الوصول إلى مصدرها وقال في كتابه أصل الإنسان : « لو سألت سائل ما بال بعض الألحان والأوزان يرتاح إليه الإنسان وأنواع من الحيوان؟؟ لما كان في وسعنا أن نجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشعومات » .

(١) قال لورد ايفري في كتابه نشأة المدنية : « للهمج شغف عظيم بالزينة . وانه ليندر بين قبائل من أوضاع البشر من يتزين من النساء لأن الرجال يحضون بالزينة أنفسهم » .

الحركة ، وتلمح في طبعه روحاً تتوهه سماحة وما هو بسماحة ، وفي حلقه مجوناً تحسبه فطنة وهو نقيض الفطنة ، ينعكس النور على عينيه فيملاً الدنيا أمامه رهجاً ووميضاً ، وهو إذا سار في طريقه صدمته المحسوسات كأن الدنيا ظلام دامس وليل أليل ، وما تشاهد عدا هذا من عرض من أعراض التخدر في الرجل ، فهو أيضاً عرض من أعراض السقوط في الأمة . هما في ذلكم سواء .

الغزل الطبيعي :

من الأوهام التي شاعت بين قراء الشعر عندنا وبعض قرائه في الأمم الأخرى أن الرقة هي الصفة الأولى للشعر كله أو هي مزينة على النثر والكتابة والمباحث العقلية البحتة ، وأن شعر الغزل على الخصوص يبنى أن يكون مفرطاً في رفته بعيداً عن الخشونة وعن كل ما يذكر السامع بالعنف والقوة ، فلا يحسب من شعراء الغزل المجيدين إلا من كان ظريف النسيب ، خافت الصوت والوجيب ، مكثراً من الشكاية والنحيب . فان بدرت منه كلمة جامحة ؛ وأفلنت من وقدة صدره نفثة لافحة . فليس ذلك بغزل . وليس الشاعر بمطبوع على العشق ولا يمدرب على « العواطف » ، ولكنه دخيل في هذه الصناعة متكلف لها ...

إن هذا الوهم لا يقف ضرره عند حد الخطأ في فهم الشعر أو في الحكم على مقاييس الآداب والفنون عامة ولا يدل على فساد ذوق ونقص في ملكة التمييز بين صنوف الجمال فحسب . ولكنه يدل على ذلك قبل مرض في المزاج وضعف في الأخلاق وسخف في مدارك الفكر ، وإذا دل على هذه الخلال فقد دل على ما يلازمها من سقوط الهمم وخبث الطباع وأعراض التأخر والفتور في الأمم ، لأن النفس التي تحس الحياة حق الاحساس وتجاري الطبيعة في قوانينها ومقاصدها لا يمكن أن تجهل العشق هذا الجهل ولا تخطئ في وصف التعبير عنه إلى هذا الحد . ولاحظ في الحياة لمن انقطعت بينه وبينها صلة الشعور الصحيح المستقيم .

ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة العشق الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة : وهي علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة . فلماذا انفرد

ووالله ما أدري بأية حيلة وأى مرام أو خطر أخاطر
وكان كاتيولس^(١) الشاعر الروماني يدعو الآلهة قائلاً « أيتها الآلهة إن كانت
لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية . فيحق براءتي عليك إلا ما نظرت إلى
عذابي ، ورثيت لما بي . ومسحت عني هذا الوباء الماحق . والبلاء اللاحق .
وهذه اللوعة التي تسربت رعدتها في عروقي . ففتت الهناء عن قلبي » .

وهي رعدة عروة بن حزام التي يقول فيها :

وإني لتعروني لذكراك رعدة لها بين جلدي والعظام ديب

ووهلة المحنون التي يصفها بقوله :

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلي طائراً كان في صدري

فإن طاوعته نفسه في نزاعه ذاك وإلا حنق عليها ، وذهب به الحب إلى كره
ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذي حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا
الشر ، وفرق بينه وبين نفسه . فيحب ويكره في آن . ربما تمنى لحبيبه الموت لعل
اليأس منه أن يشفيه كما قال جنادة العنزي :

من حبها أتمنى أن يلاقيني من نحو بلدتها ناع فينعاها
كما أقول فراق لا لقاء له وتضمر النفس ياساً ثم تسلاها
ولو تموت لسراعتي وقلت ألا يابؤس للموت ليت الموت أبقاها

وكان كاتيولس يقول : « إني لأكره وأحب . تسألني كيف ذلك ؟؟ من
يدري . ولكني أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه » .

وكذلك كان يقول المجنون :

فيارب إذ صيرت ليلى هي المنى فزنى بعينها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلى وأهلها فإني بليلي لقد لقيت الدواها

(١) (Gaius Valerius Catullus) شاعر لاتيني ولد في فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو
من أكبر شعراء العشق في اللغة اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل وكثير عندنا .

وليس الأمر كذلك . لأننا إذا تلمسنا علة الطرب أولاً من جهة التأثير بقوة
الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلاً قريباً وأمكننا أن نجيب من
يسألنا : لماذا يؤثر أعماق الأصوات ارتجافاً وتمويداً . وأكثرها تنوعاً وتمويداً ؟؟
فنقول له : لأنها ترجمان العاطفة الشديدة . والعاطفة من شأنها أن تبعث
العاطفة .

ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام ويتعقد الصوت ألفاظاً
وحروفاً ، فيتدفق الغزل من النفس المحتمة تدفقاً قوياً عارماً . ويكون أجهر
الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة . وأبلغهم إلى نفسها كلاماً وأغلبهم على
طبعها سلطاناً . ويكون الشاعر الأول في عصور الفطرة هو أعنف الرجال
عشاقاً . وأضراهم هيماً .

فالعشق في طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والслаسة . وإنما هو شواظ لاذع
يلتف دخانه بناره . ويتلهب شوقاً إلى وقوده ، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر
يترنم بهناء نفسه ، ويغتنب بالراحة من سورة طبعه . وإن لم يصب وقوداً كان
نقمة لا تطاق . وأى رقة في قول المجنون :

كأن فؤادي في مخالب طائر إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم على فما تزداد طولاً ولا عرضاً

إن قلب السامع لينقيض ، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف . ومع هذا أي
شعر أبرع من هذا الشعر وأي شاعر أطبع وأعشق من المجنون ؟؟ وليس
العشق الصادق ، حين يشب أواره وتتأزم حلقاته ، بالعاطفة التي يود صاحبها
دوامها ويستريح إلى مناجاتها . كلا . وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو
تنقضى لساعتها ، ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ تأثيرته ولا يهدأ بالغلبة فيه ، لأنه
هو الغالب وهو المغلوب . وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ويغوث من
كرب هذا النزاع . نزاع الحيرة التي يقول فيها المجنون :

فوالله ما في القرب لي منك راحة ولا البعد يسليني ولا أنا صابر

يؤخذ المسحور إلى حيث أراد الساحر . وكما يشب الوستان من وساده على غير هدى ، وهو المفيق المخادر والتائم الساهر ؟؟

ولا داعي للعجب من وجود عاطفة في نفس الإنسان تأسره هذا الأسر المؤلم الشديد ولا من وقوع الإنسان في أسر هذه العاطفة باختياره وأسفه عليها بعد زوال صرعتها ؟ وانقضاء لوعتها ؛ ولا من حنينه إلى ما يعانیه من عسفها كما يقول البحرى :

ووددت أنى ما قضيت لبانة منكم ولا أنى شفيت غليلي
وأعد يرئى من هواك رزينة والبرء أكبر غاية المكبول

نقول لا داعي للعجب من ذلك ، لأن الغرض من العشق غير مقصور على لذة الفرد ومصالحته ولحبه غريزة يراد بها بقاء النرع كله واتصال جبل الحياة جيلاً بعد جيل ، فلا عجب إذا صغرت حيلة الإنسان وعيت مداركه عن مناسبة هواه فيه لأن المدارك مدارك فرد واحد والهوى هوى نوع بأسره .

ومن محاسن جميل وإخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم في الإعراب عن النفس والبت بالعاطفة . انظر إلى قوله :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها يلذان في الدنيا ويغتبطان
وأمشى وتمشى في البلاد كأننا أسيران للأعداء مرتهانان

فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى أين هى ، فيحسب أنه هو الشقى وحده وأن العشاق كلهم سعداء . والحقيقة أن العشق لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمجان كعشق عمر بن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وأضرابها من المخنثين . عشق أملس وقشعريرة ناعمة حلوة . فأما ما يبلغ منه الصميم ، ويحترق الشغاف ، وتتقابل فيه الأهواء وينتهب من النفس أخفى خفاياها . وأعمق دقاتها . فبعيد أن يكون لذيداً بالمعنى المعروف من اللذة .

وما هو إلا أن تحبو في النفس تلك الشعلة وتترك فيها رمادها حتى يشعر

وليس في نعت الحب بالداهية شىء من الرقة والدمائة ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لفة ، أو مشرب قوم أو وحدة زمن . ولكنها اجتماعاً على عاطفة إنسانية صادقة - بل اتفق عليها كل شاعر عالج من العشق ما عاجله هذان الشاعران .

وأحياناً يثوب العاشق إلى نفسه فيبدو له كأنه مختار في شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعنى غيره ، فإن شاء سدر في الحب وإن شاء صدف ، وإن شاء مضى مع قلبه وإن شاء وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وأن الأمر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذى يصفه جميل إذ يقول :

ألا قاتل الله الهوى كيف قادنى كما قيد مغلول اليدى أسير

وهنا يخيل إليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الإنسان تقهره على مشيئته وأن رقية من رقى السحر أو طائفاً من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما خيل لذلك الشاعر الرومانى حين قال : - « أيتها الساحرة .. لئن جملتك طلاسمك فى عينى لتعلمن أن الوجد أطول أجلاً من الإجلال . وإنى لأهواك ولست بعد إلا محتقراً لك . وإن عد هذا ضرباً من الخيال » .

وكما يقول المجنون :

هى السحر إلا أن للسحر رقية وإنى لا ألقى لها الدهر راقياً
أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يمين يذكرها فأقسم ما بى من جنون ولا سحر
وما الجنون والسحر إلا ما به . وإلا فهل للعشق وصف أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ؟؟ هل هو إلا جنون يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطيّر مع الأهواء فإن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى لطيبته ؟؟ ألا يعرف العاشق ما يوبقه ولكنه لا يجيد عنه ، ويبصر ما يشفيه وهو يأبى أن يذوقه ؟ وهل العشق المبرح إلا أن يغطى على السمع والبصر ، وأن تنفث النفثة التى لا ينجع فيها طب طبيب ولا نشرة عراف ، فإذا بالفريسة المغلولة مأخوذة بين يديه كما

لصوابهم في شعرهم واستهلوا به قصائدهم وافتخروا به في غزلهم ونسيبهم ،
كأنما هم لم يقاتلوا ولم يرحلوا إلا لأجلهن وابتغاء مرضاتهن . وما جعل للحب
هذا السبق على العواطف النوعية ولا صيره حافظاً لها يثيرها كلما ثار إلا كونه
أصلها طراً ، فهو بلا شك أول غريزة دعت إنساناً إلى إنسان غيره .

هذه هي العاطفة التي ردها أرقاء الرقة إلى ذلك الغزل المرذول الذي تقرأه
للمتأخرين من شعراء الأندلس والعباسيين .

الأدب العصري :

إذن فهل تستهجن الرقة في الشعر كله ؟؟ كلا فليس هذا ما نقوله ، وإنما
نقول إن الرقة تعاب في غير موضعها وإنما تملح بعض الأحيان في الشعر بقدر ما
تملح في الرجل . ولكنها إذا كانت شرطاً من شروطه ، وغرضاً يبحث عنه إن لم
يوجد فيه ، فقد ينم هذا الكلف على داء دخيل ، ويشف عن ذبول في الطباع
غير جميل .

فمن ذا الذي يسمع الأغاني الشائعة في أيامنا هذه ممن استقامت فطرتهم
وسلمت من المسخ أذواقهم فلا يخجله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى
نفوس آدمية ينتسب إليها وتنسب إليه ، وإنه كل ما تستطيع تلك النفوس أن
تعبر به عن إحساساتها وأن تترجم به عن أسرار حياتها في اللغة التي خلقها الله
للأحياء جميعاً ، والتي استطاعت الطير وغيرها من خلقت الله العجباء أن تعبر
بها عن إحساسات مختلفة ، ومطالب متنوعة ، واستطاع أن يتعاطف بها من
لا يتعاطفون بالكلام لقوة دلالتها وشيوع معانيها وعمق مصدرها من غرائز
النفوس وخوالجها ؟؟ .

أم من ذا الذي لا يؤسفه أن يسمع نقادنا وقراءنا يتسكعون في لطائفهم
ورقاتهم الغثة ، فيعجبهم الهذر إذا وافق ما يتحرونه من أصول الرقة ويثقل
عليهم الكلام الفحل إذا خلا من تلك الأصول التي يتمحلونها ، ويقولون : هذا
نما لا يسغه الذوق ولا ينبغي أن يخاطب به المحبوب أو يشبه به ، وهذا يزري

العاشق يبرد الفراغ . ويذوق لذة الاحتراق بعد شفاء الكى واندمال القرحة .
ويعلم حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع
للظهور . وتتأجج للسطوع . وأن الإنسان يسعد بقدر ما تأخذ نزعاته وعواطفه
من مجراها ، وتنطلق في مداها ، ولو كان في ذلك هلاكه . وأنه خير له أن تكون
هي قبره من أن يكون هو قبرها ، فيطرح نفسه مرة أخرى بين جناحي العشق
الذي كان يجاذب ما يجاذب للإفلات من أوهاقه - ويود لو أتيح له أن يستعيد
تلك الغرارة التي استقبل بها العشق للمرة الأولى . وهذا لون من الجنون .
ولكنه جنون ليس لإنسان أن يفخر بسلامته منه أو تغلبه عليه . لأن التغلب
عليه قد يدل على ضعف الطبع لا على قوة العقل . ولا يصعب على أضعف
الناس عقلاً أن يكبح هذه العاطفة إذا كان طبعه أضعف من عقله .

وليس مرادنا بأن العشق غريزة نوعية أنه محصور في معنى معين ومحبوس في
شعور واحد ، إذ لا يخفى أن الغرائز النوعية متداخلة متوشجة ، والعشق منها
على وجه التخصص يدخل في كل ما ليس بأثافي صرف من الطباع والأخلاق .
ولذا سادت الأنانية على الطفولة والشيخوخة لأنها خاليتان منه ، وكانت
الشبيبة وهي سن العشق سن الغيرية والإيثار والمفاداة .

فليس تأثير العشق مما يقف عند الغرض الأول منه ولا هو بمقصود على
العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ولكنه يمتد إلى كل غريزة سواء أكان لها
ارتباط بالشوق الجنسي أم لم يكن . وربما ملك النفس وتمكن منها ولم يبلغ من
تأثيره النوعي عليها إلا أن يذكي فيها الغرائز الغيرية التي تقوم عليها علاقات
المجتمع وأن ينمي الأذواق النوعية الأخرى التي تترجم عنها الفنون الجميلة من
شعر وتصوير وغناء ، ولذا كان أهل هذه الفنون ممن لا يستغنون عن العشق ،
لأن موت عاطفته في نفوسهم يبيت أذواقهم الفنية . وقد كان الفرسان في القرون
الوسطى لا ينون بين حب وحب ، يورى فيهم الحب نار الشجاعة وتشمل
الشجاعة فيهم قيس الحب ، ويستحون أن يكون أحدهم محباً ثم لا يكون بطلاً
مغواراً ينضح عن ملته ومليكه ، لما بين الحب وحماية القبيلة أو الأمة من العلاقة
الحفية ، وكان العرب لا يشهدون قتالاً أو ييمون بطلاً إلا ذكروا ذلك

من لطافة الشعر وحلاوته ، وهذا فيتح بالفزل والتشبيب . وهذه كلمة غليظة أو لهجة خشنة ؟؟ إلى غير ذلك مما يجمل إليك أن القوم خلقوا من التسع الذائب لا من الطين اللابز ؟؟

من ذا الذي يسمع هذا وذاك ثم يحظر له أن هذه النفوس خليقة أن يحرك فيها شعور نبيل أو أمل كبير أو عاطفة قوية شريفة . وأنها جديرة أن تصبر على خطب داهم أو تذلل عقبة كتودا أو تقمع نزعة طائشة ؟؟

لقد حارت الموسيقى والغناء عندنا إلى أين السقيم المرض في طلب المرضة ، وبات نشدنا الغنى وكأنه يشفق أن يذود النعاس عن عيوننا . وجاءنا الغناء الإفريقي فشر . . . أكياسنا وتنادروا به وتقرر عندهم أن الإفريقي محرومون من لذة السماع ، عاطلون عن حاسة الذوق ، كيف لا وهم يطربون لهذا الضجيج والصريخ ؟؟ ولاكياسنا العذراء ، إذ من أين لهم أن يعلموا أن هذا هو الغناء وهم يخافون على آذانهم هذا الخوف ؟؟ ولو كانوا أقل خوفاً عليها من ذلك لعلوا أن الرجل يجالجه الغضب كما يجالجه الطرب وأن النفس تدوى جوانبها بهزم الرعد ويتجاوب في نواحيها زيف الإعصار كما يرن في سمعها قطر الندى وزقاة الأظفار ، وأن الغناء هو صدى الطبيعة في النفس ولم يقل أحد إن الطبيعة لا تنطق إلا همساً ولا تطرب إلا بما يجدر وينهم .

وقد نجحف بالريفين وسكان السواد إذا نحن عمنا القول ولم نتخصصه بالحضريين أو بالفئة التي تدعى لنفسها الطرف والنهم منهم ، فإن الريفيين برآء من هذه الرقة ، وقل فيهم من يهتز لأغاني الحضرة ، ولاسيما التي منها ، وربما تظاهروا بالطرب مجازاة وتقليداً وخوفاً من أن يرميهم الحضريون بالجفاء وقلة الدراية ، وهم في الباطن يمجون هذا الضرب من السماع ولا يتحركون له كما يتحركون لأناسيدهم الشجية الساذجة . وقد سمعت أحدهم في محفل غناء يقول : ما بال الرجل ؟ ، أعله يحمض ؟؟ فضحك الذين حولته وعدوها جلافة قروية ! ولولا أن أغاني القرويين لا تجرى بحرى الفنون لساذجة واضعيتها ونشوز ألحانها لكانت مثلاً في الغناء بما فيها من روح صريحة صحيحة مفعمة بالرجولة ، مع بلاغة في الأداء واستقامة وقصد في العبارة .

لقد كاد عبده المحمولى يحس من الغناء المصري وينفتح فيه روحاً جديداً يترجمه بين الغناءين المصري والتركي " فانتعش بعض الانتعاش بهذا اللقاح . لكنه عاد فاستقل بعد موته . إلا ما جدده بعض الغنيين ، وفي يقيننا أن الغناء المصري لن يصبح فناً عاملاً في حياة هذه الأمة ما بقيت المازف والآلات التي يوقع عليها الآن على قصورها عن حكاية أصوات الطبيعة وترجيع شتى العوارض النفسية .

أما الأدب - فمع أن الشعر لا يتغنى به منذ زمن بعيد - فقد أصابه ما أصاب الغناء وزاد عليه فساد الفكر فوق فساد الذوق وبقيت التقاليد الموروثة ، فكانت قيوده أثقل وقرأ وجوده أصعب مراساً .

ورثنا آداب الأمة العربية على حين قد خارت عزائمها ومارت دعائمها واستحال شعرها إلى كلام من فوقه كلام من تحته كلام . سوى أن لكل كلام ، ولو كان دارجاً مبتدلاً ، أغراضاً يقصد إليها التكلم ويتعمد الإقضاء بها إلى سامعه منزهة عن الخلط والمبث . وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملأوه بالتورية والكتابة والجناس والترصيع وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليدلوا بها كتب البيان والبدیع ، وظهر في الشعر التطرير والتصنيف والتشظير والتخميس وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها كما يتبارى الأطفال في جمع المصى الملون وتضديه ، وكان الشاعر منهم يلاحق البيت بالبيت أو يشبك المصراع بالمصراع ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب أنه يخل بروح الشعر ، لأنه يلتزم حرف الروى في كل بيت وعروض البحر في كل قصيدة . . .

ورثنا هذه الآداب على حين فترة من اللغة فزادها سقوط الأسلوب ووذالته سقوطاً على سقوط ووذالة على رذالة حتى صار أهون على الإنسان أن يرفع يده

(١) قالت الادي مونتاجو في رسالتها « أؤكد لك أن موسيقى الترك بليغة مؤثرة جداً وقد أراى أميل إلى تفضيل الموسيقى الإيطالية . إلا أن هذا راي ينسب إلى التحيز وأعرف قيمة روية تغنى أحسن من الآسرة رويتين وتغنن كلا من موسيقى الترك والطلبان وهي ترجيح الأول على الثانية » وهذه شهادة امرأة مهيبة وقد سمعنا نحن ما أيد لنا أن للترك موسيقى حية .

مصر - أيمكنك أن تصدق أن ما تقرأه من كلامهم هو كل ما تدخره الطبيعة لابن القرن العشرين من بدائع الآيات وروائع المضامين والأسرار؟؟ وهل تدرك من مدحهم وهجائهم وتشبيهم غاية ما تدركه النفوس من محاسن الحياة ومساوئها ومن معاليها وخسائسها؟؟ ألا ما أضحى الطبيعة إذن وما أحقر الحياة!!

وربما سمعت اليوم بعض المتأدين يقسمون الشعر إلى اجتماعي وغير اجتماعي ، ويعنون بالشعر الاجتماعي شعر الحوادث العامة ، وبغير الاجتماعي ما يعني قائله وحدهم - هؤلاء يزعمون أن الشعر زاد عليه في عصرنا باب مبتكر واتسعت منادحه بالنظم فيما بهم الأمة ، فلم يتصوروا على الأبواب الخمسة المألوفة في الدواوين القديمة وهي على الجملة المدح والفخر والهجاء والوصف والثناء . وهذا جهل وخلط بين أغراض الشعر الحقيقية التي تفهم من معناه وبين عناوين أبوابه في الكتب ، وإلا فأى شعر أقدم من الشعر الاجتماعي عند العرب؟؟

فهذه دواوين شعرائهم الأقدمين والمحدثين هل خلا أحدها من عدة قصائد في كل واقعة من الوقائع التي كانت تهمهم يومئذ؟؟ وهل مجرد حدوث الوقائع في القرن العشرين لا في القرن العاشر أو الخامس جاعل للشعر المنظوم فيها روحاً جديداً أو نمطاً مبتكراً؟؟

ثم إننا لا نعرف شعراً يرويه الناس ويقال إنه يعني قائله وحده . لأن شعر النفس يعني كل نفس ، والشعر الذي لا يعني قراءة لا يستحق أن ينظم ، وما من شعر نظم إلا وهو بهذا المعنى شعر اجتماعي ، لأنه يبين عن حالة المجتمع ويؤثر فيها ، وإن لم يكن اجتماعياً بمعنى أنه يخاطب الأمة أو يدون حادثاً قومياً أو عملاً من أعمال الجماعات ، وربما خدعك الشعر الاجتماعي عن حالة الأمة لخطأ في رأي صاحبه وانحراف في نظره إلى الحوادث وتقديره لها ولم يحدك شعر الغزل مثلاً ، وهو أخص القول بقائله . لأن الغزل هو في آن واحد مسبار نفس الرجل ومقياس قيمة المرأة . ومن رأى ماكولي نقادة الانجليز ومؤرخهم أن أغاني بترارك الشاعر الإيطالي الغزل قد جلست عن المرأة الإيطالية هوانها ورفعت من

حرمة علوة منتنة من أن يجيل نظره في ديوان شاعر من شعراء هذا الطراز . ولا تعد فطنة الشعراء في العشرين سنة الأخيرة إلى حقارة النكات والمحسنات الصناعية تقدماً يذكر في الأدب بعدما نشرته المطابع من مخبآت اللغة وودائع الأدب العربي القديم ، وبعد تداول الناس أشعار الفحول الأوائل وكتب الأساتذة الفطاحل ، لأنها نتيجة قريبة لا يد منها على أثر ذبوع الأدب القديم ومضاهاته بهذا الأدب المعتل السقيم . وهي أقل ما ينتظر من أدبائنا عامة والذين لم يشربوا في صغرهم الشغف بتلك المحسنات خاصة ، ومن ثم نرى أكثر المطرحين للمحسنات ممن لم يعكفوا على دراستها في صغرهم ، فليس يعد إقلاعهم عنها تغلباً على جمود ولا تغييراً لمذهب قديم بمذهب حديث . إذ كانوا قد حطموا قيوداً لم يتقيدوا بها ونبذوا مذهباً لم يعتنقه ، وزد على ذلك أن معظم الأدباء إذا استقبحوا هذه المحسنات فلا يستهجنونها ترقياً منهم في عرفان لباب انسر وأنفة من كد الأذهان سدى في هذا السفساف ، ولكن تعصباً للقديم واستخفافاً بكل ما هو حديث ، وأحسبهم لو تقدم الأوان بالشعراء المصنعين فلحقوا بالجاهليين أو المخضمين لما وجدوا في شعرهم ما يعاب .

وإنما الحرى بأن يدعى تقدماً مثمراً التقدم في الإحساس بالأشياء على ما هي عليه والاستعداد لتمييز أصدق الفنون المترجمة عنها . إذ أن هذا في الحقيقة هو التقدم الذي يشمل الأدب وغير الأدب . والأمة التي تباشر حقائق الدنيا بحواسها الظاهرة والباطنة لا تكون قصارها أن تخرج للعالم أديباً صادقاً وإنما يكون هذا الأدب فيها كالزهرة الياضعة علامة على حياة سائر أجزاء الشجرة ، وقد تعددت تعريفات الفوارق بين الآداب الرفيعة والوضيعة ولكني لا أرى أصوب من ردها جميعاً إلى الفارق بين القائلين والكاتبين ، لأنني لم أتبين قط فضيلة تميز رجلاً على رجل أو أمة على أمة إلا تبينت لهذه الفضيلة أثراً في التمييز بين شعريها ، ولست أرى بين أجود الشعر وأردئه سوى فرق واحد جوهري . وهو أن الشعر الجيد ما لم يحل بين قائله والطبيعة حجاب من التقليد أو عوج الطبع وأن الشعر الرديء ما ليس كذلك .

وإذا عرفنا ذلك فانظر إلى أشعار هذه الطائفة التي يسمونها الشعراء في

وأما قارئ الأدب العربي فإن كان ممن يقرأ فلا يبروز في المطالعة بصره . ولا يصير من ثلاثة الشيء إلى الحكم عليه ، فما أشبهه بقراء الأفاقيص !! وإن كان يقرأ ويحكم فهو إنما يحكم بطراز ألفه وشب عليه فلا معدل له عنه .

ولا مقياس للأدب المعصرى غير آداب الأمم التي سبقتنا في أدوار الحياة والفنون وهو - أى قارئ الأدب العربى - معزول أتم العزل عن آداب تلك الأمم . لا يستطيع نقدها وتقديرها أو يستطيع أن يعيط المحجاب عن عالم الغيب . لأن حكم الرجل على ما ليس يعرف وتوضه في نفسه القدرة على نقد أدب لا يلحن لغائه ولا يقرأ كتبه ولا يلم بسير أديانه وأخلاقهم ويحاضراتهم ومساجلاتهم أو يحيط بأراء النقاد فيهم وأتوال بعضهم في بعض ومعارض بين عصورهم ومناهجهم ثم لا يعلم اللزمان الذى يرتون به إجاداتهم وملازمهم - هو بمثابة حزر الغيب والحوض في عالم المجهول .

وقد يحسن هؤلاء الأدياء المقارنة بين الأديين من جهة واحدة هي جهة المشاركة بينها وهي أخص ما في الأدب المعصرى وأبعده عن جوهره وزيدته ، وكانى ترى منهم من يقارن بين أديب محدث وأديب مقلد فيرجع هذا على ذلك لأنه أرجح من قبل المشاركة . ويصفح عما سوى ذلك من الحسائت التي استمدق سرها عليه ، بل يتعمل فيتمضى للأدب القديم جملة على الأدب المعصرى جملة ، وهو إن كان له عنده في جهله بفضائل الآداب الأجنبية فلا عنده له في الحكم على ما يجهل .

وربما عجبك من بعضهم أن يأتي للفصل الأتيق أو يستجيد قعيماً جيداً . فإذا سألته عما رآه أضحكك أن تراه ينتخب ما لم يحظر للكاتب أو الشاعر على بال ويسهو عما عمل له وتحراه كأنه ليس في الفصل أو القصيد . هذا سخك أولئك الأدياء على ما علمت من الزلل والانحراف . وهم كما رأيتهم ليسوا بأخبر من قراء الأفاقيص بغير هذا الأدب وعزوه .

وأما قراء الأدب الإفرنجي فأيسر لهم أن يقتبسوه من أمهانه ويرتادوه في لغائهم ، وأكثرهم لا ذوق لهم ولا بصير باللغة العربية فما هم بأنهم للمعاني المودعة فيها من سواهم .

شأنها نهضة إيطاليا ، وليس هذا الرأي بغيره عند من يعلمون العلاقة بين الغزل وحالة المرأة وتوض الأمة .

وما تقدم يبدو لي أنه ربما نشط فن الموسيقى المعصرى من عقائه وربما ولد التصوير المعصرى على أحدث طراز وأحكمه وأثمه والأدب رهين قديده بين مزدحم الآراء وشيخ الأوهام ، يختلف عليه أقرانه الذين لا يريدون أن يسموا كلمة لا تمسكها الأصابع بأطراف أناملها أو تلتقطها الجفون بأهدابها ، والجاملون الذين يؤثرون أن يدبروا بالدنيا إلى الوراء ولا يتزحزون قد شعرة عن القديم ، وليس هذا الاختلاف قائدة لأنه لا يداني أحد الفريقين من الأدب الصراح ، ولا يهديه إلى خطئه . فالذين يتكرون الذوق السخيف لا يجحزون عن استحسانه متى صيغ لهم في الأسلوب الجاهل أو المخضرم ، والذين يتكرون مذاهب الجاهلية ومعارض النظم عندهم لا يتكرونها متى صيغت لهم في الأسلوب المهلهل الرقيق الذى يستحسنونه . وإذا انتهى الخلاف بينها باقناع أحدها وتحوله إلى رأى مخالفه فإنه لا يتحول حينئذ إلى ما هو خير من رأيه الأول . لأنها سواء في الخطأ وسواء في البعد عما نسميه بالآدب الصراح .

وما علمت في تاريخ الآداب حالاً أعجب ولا مسلكاً أوسع من حال الأديب المعصرى في مصر ومسلكه - وإنما عجب حاله وتوعر مسلكه لأن في مصر الأدياء المعصرين وليس فيها القراء المعصرين . أو ربما كان فيها القراء المعصرين ولكن الصلة بينهم وبين الأديب المعصرى مقطوعة .

والقراء في مصر واحد من ثلاثة : قارئ الأفاقيص والنوادر ، وقارئ الأدب العربى ، وقارئ الأدب الإفرنجي .

فأما قراء الأفاقيص والنوادر فهم أغنى من أن يقرأوا أدباً قديماً كان أو حديثاً . وهم أجهل إن قرأوه من أن يجزوا بين زعيمه وتلميذه وزيته وصحيحه . وبغية هؤلاء من الكتب إنما هي تمرين المستهتم على المعجزة أو تبديد الوقت في البطالة والقرع .

وعند العرب في هذه الطريقة هو عذرهم في كل نقص آخر في السياسة أو الاجتماع ، وأعنى به انتقاهم فجاءة من البداوة الى المدنية وأنهم لبسوا رداء المدنية على طباع البداوة وبقوا بدواً في دولتهم وبدواً في معيشتهم وبدواً في تأليفهم وأديهم ، مع ما شيدوا من الآطام وأتلوا من الآثار الجسام .

أقول هذا وبين يدي كتاب وضعه صاحبه (القزويني) على هذه الطريقة وسماه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وهو لو سماه عجائب المختلقات وغرائب المدومات لأنصف ولكان الكتاب قطعة جميلة من إبداع الخيال ووحى الفكاهة تشهد لصاحبها بالانسان في القصص والقدرة على التصور .

وما كنا ننتظر من كاتب ينشأ في عصر كعصر القزويني أن يصنف كتاباً في التاريخ الطبيعي أو في علم الأحياء صحيح البحث جيد الاستقراء . ولكنه كان يسعه على الأقل أن يفرغ تلك الترهات والأساطير في قالب الموضوعات العلمية المبوبة ، فلا يفوته الترتيب إن فاته التحري والتدقيق .

ولسنا نريد أن نبحث في موضوع الكتاب ولكننا ننظر فيه هنا من جانب آخر ، فيلوح لنا أنه لم يتجرد من الحقيقة البعيدة وإن تجرد من الحقائق الملموسة القريبة ، ونستعرض فيه ما يستحق من أجله القراءة ، ولعله يصلح أن يعد جرثومة لمذهب النشوء والارتقاء ، نشأ منها في القدم ثم ارتقى عنها ذلك المذهب ، فمن ذلك قوله في ترتيب الكائنات بعد أن قسم الأجسام إلى نام وغير نام وهو ما نسميه اليوم العضوى وغير العضوى : « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة . فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان . والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان . والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية .. »

وهذا قول لا يعزز بتجربة ولا يدعم ببرهان ولكن ما ظنك بمكان الفروض والأطنانين من معارف الإنسانية بأسرها؟؟ وهل كانت قضايا دارون نفسها قاطعة في تأييد مذهبه وإثبات نتائجه؟؟

كانت حياة الأدب بالقبيلة ثم صارت حياته بالروضاء في القرون الوسطى . وليست مصر في حال من هذين . ثم صارت حياته اليوم بالقراء ، وهم في مصر كما عهدت .. فهل بقي للأدب العصري إلا أن يجاهد لنفسه ، وهل لصف من هؤلاء القراء حق عليه؟؟

عجائب المخلوقات :

قلنا في الفصل الذي تقدم على الكتب أن القارئ الحريص على الفائدة البصير بالاستفادة لا يزهد في قراءة الكتب الغثة ولا يقصر قراءته على الكتب السمينة ، وإنه يحب أن تتم الفائدة من الكتاب والقارئ لا من الكتاب فقط . وهذه خطة قد يكون لقراء بعض اللغات بد من اتباعها ولكنها لا بد منه للقارئ العربي لاختلاط المؤلفات وقلة العناية بتقسيمها ، وقد يوجد الغث والسمين في كل لغة ولكننا لا نراهما ممزوجين مزجاً تاماً كما نراهما في المؤلفات العربية . فالكتاب العربي خليط يجمعه صاحبه من هنا وثم ويحشر فيه من جميع ما يحفظ من قصة تاريخية أو نادرة فكاهية أو قصيدة مأثورة أو حادثة مشهورة - فلا يسعك أن تميز بين ما يقرأ وما لا يقرأ لأول نظرة ، ولا تجد في نسق التأليف وطريقته تفاوتاً بين كتاب وكتاب ، فإن كان هناك تفاوت فهو في الحجم والعبارة لا في التأليف والتقسيم .

وكلمة التأليف وحدها كافية لمن يجهل اللغة العربية ويريد أن يحكم على طريقة التأليف فيها من كلمة واحدة ، إذ التأليف هو الجمع ، والتأليف العربي إنما هو الصيغة التي ظهرت بها أخبار الرواة وأسانيد النسابين بعد أن تعلم العرب الكتابة واشتغلوا بتدوين الكتب ، فكان المؤلف العربي خليفة الراوية أو النسابة في هذه الصناعة ، وكان الرواة والنسابون يجمعون الأخبار والقصائد ويذكرون المحامد والمثالب والأنساب والمفاخر فلما ذهب الراوية وجاء المؤلف جرى على هذه الطريقة ، فكان يضع الكتاب المطول لا يكون له فيه غير توطئة يستهل بها باباً أو جملة يعطف بها خيراً على خبر ، ولم يشذ عن ذلك غير القليل ، وأكثر هؤلاء الشاذين من كتاب الأخلاق والفقه .

وعلى أن نزوات الكعب القديمة وفروضها تنفيها الآن أكثر مما تنفيها حقاقتها. لأنها هي البقية لنا من تلك الأروام التي تسلطت على العقل البشري في أزمانه الخالية ، وهي المفتاح الذي ليس لدينا مفتاح سواء لجزاة الخيالة وما أكتبه من تصورات الإنسان ووجداناته وما انطبع فيها من البدائنه العميقة المتغلغلة التي عودتنا أن نتطرق بالأحاجي والأفانز ونتمم حتى على صاحبها وهو الذي أوجعنا وصورها .

فقد حفلت كتب السلف بروايات المسخاه والمبدولين ، ورتاقوا في الحكايات أن الجيومانات المختلفة يتاسل بعضها من بعض ، وتتسلل برها من بحرها . أجمعت على هذا كتب العرب وغير العرب وانفتحت عليه كتب الذين وكتب الأدب ، وهذا الكتاب الذي نحن بصدده مكثف بتفصيل أنواع هذه الجيومانات وما يتشاكل منها في البر والبحر . فنبها كلب الماء وقتفد الماء ، وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا أنها تلد من خيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ، قال الفزوني : « يشبه الإنسان إلا أنه ذئبا وقد جاء شخص بواحد منه في زماننا في بغداد فعرضه على الناس وشكله على ما ذكرناه ، وقد ذكر أنه في بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى المعاصرة إنسان وله لحية بيضاء يسومونه شيخ البحر ويسمى أياها ثم يتزل فاذا رآه الناس يستبشرون بالمغصب ، وحكى أن بعض الملوك جمل إليه إنسان ماني فأراد الملك أن يعرف حاله فزوجته امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأيوبيين فقبل للولد ماذا يقول أيوك قال أذئاب الجيوان كلها على أسافلها ما بال هؤلاء أذئابهم على وجوههم ... » ونقل عن يعقوب بن إسحق السراج « أن رجلا ركب البحر فألقته الريح إلى جزيرة ، قال فلم نستطع أن نبرح عنها فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أيدانهم كأيدان الناس » إلى آخر ما هو مشهور من هذه الأساطير .

فما مغزى هذا الإجماع والتواتر ؟ وماذا في طي هذا الاعتقاد بأن الإنسان يتحول أحيانا من هيئته إلى هيئة حيوان أدنا منه ، أو أن في عالم الحياة مخلوقا يعطيه إنسان وبعضه حيوان ؟ هذا شعور لم يرد إلينا من ناحية الحواس ولكننا لا نجعله . وصحيح أن الخيال منطور على مزج أشكال الحس والباس

الموجودات لباس الانسانية ولكن لماذا نطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل أن ينظر على غير هذه الفطرة . وهل لو خلق الإنسان عن غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟ ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجتماع والتواتر أن في جيلة الإنسان شعورا راسخا بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات في النسب على تباين أشكالها وتباعد مراتبها وربانها ، وأنه لا حاجز في التكوين بين حيوان البحر وحيوان البر ولا بين الإنسان وعامة الجيوان ؟ - شعورا أعمق من التكرار لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكفي ويلقى ويتكلم بالبدنية فيصريح ويصدق ؟ ولماذا تنفى وجود شعور كهذا يصل الإنسان على وجه ما يشيء من أسرار الحياة مع علمنا أن الإنسان قد اتصل بالحياة قبل أن يعطيه بها عقله وحواسه ؟ أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الأسياء والطبيعة ؟

فلا يبلطن من قصور العقل أن لا يصدق إلا بالعقل وحده ، ولا يبلطن من ضيق النظر أن تفسر حواس النفس كلها على أن تنحو نحو الحواس الحس كإن الإنسان لا يتصل بالدنيا إلا بها وكأنها الخيال ليس جزءا من الإنسان كما هي جزء منه ، فربما كانت هذه الترهات والخرافات أقطع في الدلالة على وحدة الخلق من كل شبه ظاهر واستقراء بعيد ، وربما كانت كتب الاساطير أسبق من كتب العلم كلها إلى إبداء مذهب التنوء والتنميط له بلغة لا يتخللها الباطل وكل ظاهرها باطل وتلفيق^{١١} .

(١١) هذا آخر ما يشرنا في هذا الكتاب من المقالات التي سبق طبعها باسم « ساعات بين الكعب » وهو اسم كتاب الفناء في منتصف سنة ١١١٤ وطبعته منه خمس كراسات على نفقتنا ثم اتفقتنا مع بعض الكعبة على إقام طبعه وأسلمناه عدة كراسات من مسوداته التي لم تطبع . وما كنا نبرح القاهرة إلى اسوان حتى ضم الكعب ما سبق لنا طبعه وأخرجه في شكل كتاب تام وأطلق الكعبة فلم تقف له بعدما على إثر

فإذا خطر لنا أن نتف على سر ميلنا أو نفورنا من شيء من الأشياء ونعم علينا طريق السبب ، فقد يسهل علينا أن نتق عن موقع ذلك الشيء من نفوس أجدادنا ثم تقابل بينه وبين موقعه في نفوسنا . وسنجرى على ذلك في تحليل الميل إلى الطبيعة ، فماذا نرى ؟ ماذا كان يعنى أجدادنا الأولون من الطبيعة ؟؟

كل علاقتهم بها تنحصر في ثلاثة أشياء . وهى أنهم كانوا يخافون الطبيعة ويرجونها كما يخاف الرجل ربه ويرجوه . وكانوا يرتادون فيها الكلال والرى لهم ولائعهم ، وكانوا يشاركونها في مواسمها وأعيادها ، لأنهم بعض عناصرها وأجنادها .

خلقت بحيلة الإنسان الأول خلاقين لا يحصر لهم عدد ولا يؤمن لهم شر . فكان يحطل من هذه الأرض في عالم حافل بالآلة والأرواح ، مكثف بالمرءة والشياطين ، في كل كوكب إله ، وفي كل نسمة خائفة روح هفاف . وفي كل عنصر من عناصر الطبيعة رب متصرف . وكان مع هذا محوطًا بالأوابد والضواى المتحفر . ويتأزعا أجامها وتتأزعه - فإذا أدلج تشى كالسارق المتحفر . ونزل به جرع المروع على حياته ، تصفر الريح فإذا هو واجم مترعب يحسها روحًا سارية . فلا يدري أناقته هى أم راضية . وروح خير هى أم روح شرعية . ويسمع حفيف الأشجار فيخالها وجس الجنة والمغاربت تأثر به ، ويومض البرق فيحسبه إلهًا حائقًا يئذره بغضه ، ويخلج كوكب فوقه فيظن له نبأ عنده فيخشع ، أو يسمع زئير الأسد هو لا يبصر مكمنه فيتفض جسده ويهلع ، فهو لذلك يرهب الليل كما يرهب النون .

خرجنا ذات ليلة نستروح الهواء في أرياض بعض المدن - وكان البدر في تمامه ، والرمل يلشع في نوره الشاحب كما يلشع التبر في نار البوقته ، وكان الوقت صيفًا والليله شديدة الحر . ركذ فيها النسيم وخرست الأشجار فباتت ظللالها - كما يقول هينى - كأنما دقت في الأرض بسمار . فجلستنا عند أحفاف النهر ثم قال أحدنا : هلموا إلى النهر نبترد .

جمال الطبيعة

نحن الآن في إبان الربيع - جمال الطبيعة^(١) على أنه ، والدنيا في زخرف المرس ، والأرض قد أخرجت زخارها ، وكشفت الساء عن جبينها ، وفتح الليل صدره للساهورين بعد إذ كان كأنما يذودهم عنه إلى المبحور والمخاضى زياتيه الزمهرير - فمن باب التصحية الفكرية لهذا الجمال الفاتض على كل شيء ، وهذه الحياة المألقة لكل نفس أن ترجع إلى أنفسنا ففسر فيها غور تلك الروعة وذلك الأنس اللذين نشمر بهما بين يدي الطبيعة . وأن نسالها عن سر ما تستهول من جلالها وعظمتها ، ومعنى ما تستجمل من روائها وزينتها . وذلك أقل ما يجب علينا للربيع من صلاة الفكر وتسيحه .

وللطبيعة سر مقترن بسر الحياة لست أعرض له . وفيها جانب يتصل بإحساسنا ووعينا هو الذى سأبحث فيه هنا . ولست مستهديًا في البحث بالعلم الطبيعي وحده ولا بخيال الشاعر وحده ، ولكنى أمزج بينهما ، إذ لا تخفى عن تدقيق العلم وعن سلبية الشعر مما لن يود البحث في أمر ينظم طرفاه بين عناصر الطبيعة وسرائر النفس الإنسانية .

نحن نعلم أن حب الطبيعة من الغرائز وأن الغرائز عما لا يدخل في حيزه الفكر والقصد ولكننا نعلم كذلك أن منها ما هو موروث عن الأجداد والآباء . وأنهم كانوا يعتمدون بعض أفعالهم التى صارت غرائز فيما بعد تعتمد الإرادة والرؤية ، ثم انتقل الشعور بهذه الأفعال إلى نفوسنا بالوراثة كما يتوارث العمل خوف اللذيب ولم يره ، أو يتوارث الأرتيب خوف كلب الطراد وما أمس له بسطورة .

(١) نشرت في العدد ٧٨ مايو سنة ١٩١٤ .

أن يقطعها ، وبعد أن يصارع الضواري العادية ، والكواسر الجارحة . أو يقاتل على تلك المراعى والمراع عشائر يحرسون حرصه عليها . فإذا هو أشرف بعد هذا النصب على واد خصيب لا جرم أشاع في نفسه إحساساً لا يقارن به إحساسنا الآن بالطبيعة إلا كما يقارن الصوت بصداه والوجه بصورته في قرار الغدير . فنحن نخف اليوم إلى الخضرة وإن كنا لا نتزود منها طعاماً ، ونفرح بالماء وإن كنا لا نتخذ منه شراباً . ولكن في باطن هذا الفرح بقية من فرح الظمان بالرى والجائع بالقوت ، وما هو في الحقيقة إلا صدى ذلك الفرح القديم وصورة منه باقية في قرارة نفوسنا .

على أن من أحسن ما يروقنا في الربيع أزهاره ، وليست هي مما يخاف فيعبد ولا مما يستظم فيؤكل . فأى شأن لها في نفوسنا ؟؟ بل قل أى شأن لها في نفوس كثير من الأحياء ، فإنها لا تروقنا وحدنا ولكن تروق الحشرات والطيور أيضاً . ومن هذه الحشرات والطيور ما يستهويه جمال الأزهار فيجعله واسطة لتلقيح إناثها من ذكراتها ، ومنها ما تعجبه هذه الألوان التي تزدهى بها الرياحين كما تعجبنا ، وفي كتب دارون وغيره هذه الألوان التي تزدهى بها الرياحين كما تعجبنا ، وفي كتب دارون وغيره من النشويين شواهد وأمثلة على هذا الإعجاب . فقد ثبت أن إناث بعض الطيور لا تميل إلا إلى أنق ذكورها ريشاً ، وأبهاها نقوشاً ، وأحسنها في الألوان اختلافاً وترقيشاً ، فأية علاقة يا ترى بين هذه الألوان وبين الانتخاب الجنسي ؟؟

نرجئ هذا قليلاً لنسأل : ما هو الربيع ؟؟ أليس هو فصل الحب ؟؟ أليس هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتزوج كما يتزوج الأحياء ؟ ألا تتكشف للعشاق علاقة هذه الأزهار بالفرام فيتراسلون بالأنوار التديية ، والرياحين الشدية ، ومخرجون إذا أقبل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون من الأماكن ما تحف به الورود المتعاقبة والطيور المتعاشقة ، وتفاجئهم بهجة الحب من داخل نفوسهم ومن خارجها في نفثة واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا وأية قرى تمت بها الأزهار إلينا ألصق من

قلنا : هلموا ، ونهضنا إلا صاحباً لنا كان يطربنا برخيم صوته وشجى غناؤه فلم يشأ أن ينهض معنا ، وقال لست معكم في هذا .

قلنا : ولم ؟؟

قال إن لهذه الأماكن حفظة من الملائكة والجن ، وإتهم يسرحون في النهار ثم ينسلون إلى مخادعهم بالليل . ثم قال مازحاً : فإن وطئ أحدكم ذنب عفريت أو داس على جناح ملك فلا يلومن إلا نفسه !!

ما هؤلاء الحفظة الذين تحاشاهم صاحبنا إلا سلالة تلك الأرزاح التي عبدها آباؤنا في غسق التاريخ ، لأن كان أولئك الآباء يقدسون الأنهار والعيون والينابيع ، ويجعلون لها أرباباً تدعى وتخاف وترجى . ويضعون في كل منها أرواحاً وعرائس يقربون إليها القرابين ، ويرتلون باسمها ترانيم الصباح والمساء .

ولسنا اليوم نؤله العناصر أو نخشى غارة السباع ، ولكننا نشأتنا في هيكل قدسه آباؤنا فاقفتينا آثارهم . وربما بلغ أحدنا غاية الجرأة وتترزه عقله عن هذه الأوهام فجعلها هزواً ومجوناً ولم يؤمن بشيء منها ولكنه مع ذلك لا يطرق المكان نهراً كما يطرقه ليلاً ، من أثر ذلك الخوف القديم .

والطبيعة بعد مرثاد كلاً ومؤنة كما قلنا في أول هذا المقال - لا يتصور كيف كانت تهش لها نفس الهمجى وهتز لها قلبه إلا من تخيل نفسه مرة في ركب ضل سبيله في فلاة ديموم ، وقد نقد ماؤه وفرغ زاده فبلغ منه العطش والسغب ، وأتلفه القيط والكلال ، حتى يش من النجاة ؛ وأيقن بالهلاك . ثم ارتفعت له بعد ذلك رهوس الأشجار تمتد من تحتها الظلال ، ولملت لعينيه الجداول تترقرق بالماء الزلال . إنه ليعلم حينئذ أن هذه المناظر خليقة بأن يرقص لها قلب الهمجى ، فقد كان أبداً في مثل ذلك الركب . كان ينتقل من بقعة إلى بقعة طلباً للرى والمرعى ، فلا يصل إليها إلا بعد أهوال يتجشمها ، ومخارم وجبال تقطعه قبل

النساء ، ويلوح لى أن المسألة لم تكن عند ابن الرومي مسألة تشبيه جاءت به المناسبة العارضة ، وإنما هو شعور غامض فى نفسه لا يفارقها . وآية ذلك أنه كرر هذا المعنى فى غير ما موضع فقال فى بعض رثائه :

لن تستجد الأرض بمدك زينة فتصبح فى أنوارها تتبرج
وقال أيضاً :

ليست فيه حفل زنتها الد نيسا وراقت بمنظر فستان
فى زينة البنى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان
وربما كان علة هذا الشعور الغامض اضطراب فى جهاز التناسل حتى جميع أجزائه المستدقة فهز خيوطها ، وبه أقدام وشائجها ، وبها الإحساس بذلك التبرج كما هو فى قلب الطبيعة . أما هذا الاضطراب الذى أورثنا إليه فما يسهل الاستدلال عليه من شعر ابن الرومي ، ولا نخاله يخفى على من يقرأ ديوانه فيطلع على شهورانيته الظاهرة فى وصف محاسن المرأة ، والتعنى بما ظهر وما بطن من أعضاء جسمها وربما دل عليه رثاؤه لايبانه واحداً بعد واحد وما يشير إليه ذلك من ضعف نسله واضطراب جهازه . أضف إلى هذا ما يؤخذ من أهاجيه فيمن أهموه بالعمى وأشياء أخرى لا حاجة إلى ذكرها . وفى جملة هذه الأشياء ما تعرف منه أن الرجل لم يكن من هذا الجانب سليماً ، وأنه كان خليقاً بطبيعة تركيه ومزاجه أن يشعر بتلك الحقيقة ، ويستنبط من أغوار نفسه تلك الأحفورة الشعرية النفيسة . ولا غرو فإن النفس إذا شفت كالبحر إذا شفت يترامى لناظره ما خفى فى أعماق قواره .

ذلك يجعل رأينا فى هذا الذى نشعر به من روعة الطبيعة وحسبها ، إنما هو كما يبدو لنا مزيج من العبادة والامتياز والغرام .

القرى التى تجتمع فى موسم واحد بين تولدنا وتوالدها . وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فيها ؟؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير الألوان فى الزهر على أبطارنا ولا ما هو سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكننا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة المواقف الغرامية بالربيع . فكلمها عناصر ربعية تظهر يباعث واحد فى زمن واحد ، ولا نرى منها إلا ما هو من الحرارة قابس وبالضوء مردان ولايس ، وفى الحب مغروس وغارس .

الحرارة تبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتحللها فتنبث البقل والتمرات - ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط تورها على الأزهار فينبسج على أوراتها اللطيفة ألوانه ، يجلبها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وريحمة الأزهار .

والحرارة تجرى الدم فى العروق فتنبسج المواقف التى أنامها الظل ، وتتحرك الحياة الكائنة فيملكها الترقق إلى تجديد الحياة فى مخلوق جديد ، ذلك هو الحب .

فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هى الحرارة . أو هى الشمس : أم الحب والحياة فى هذا النظام .

قال ابن الرومي يعصف الأرض فى فصل الربيع :

تبرجت بعد حياء وحفر تبرج الأنتى تصدت للذكر

وقد أخذ عليه صديقا المازنى خلطه فى التشبيه بين المذهب الحسى والمذهب النظرى . أما أنا فلا أمل إلى رأى الصديق فى موازنة الشاعر وقد أرى أنها لطافة حسن فيه جعلت نفسه تشع بتلك العلاقة الخفية بين التبرج الأزهار وتبرج

الرسالة الثانية :

كتاب « سادهاانا » الذى سبقته منى الإشارة إليه هو مجموعة محاضرات تنصص آراء شتى فى الفلسفة الصوفية والدين كان يشرحها تاجور فى مدرسته التى أنشأها ببلدة بليار من إقليم البنغال للذاكرة فى الحكمة والأدب وفقه الدين ، وموضوع الكتاب « تحقيق كنه الحياة » من حيث شعورها بوجودها ، وإحساسها بالخير والشر والجمال ، وظهورها فى العمل والحب ، واتصالها بالكون عامه واللا نهاية من وراء ذلك ، وقد ألقى بعض هذه المحاضرات بجامعة هارفارد الأمريكية إجابة لطلب الأستاذ جيمس وود ثم ضمها إلى هذا الكتاب ووسمها بالاسم المتقدم فكانت بمثابة تفسير لعقيدة تاجور وفلسفته ، وهى بعينها عقيدة البراهمة القديمة ، لأن الرجل نشأ فى بيت اشتهر كباراه بالتقوى والورع وإدمان النلاوة فى الكتب المقدسة . ولكن تاجور استخدم ملكته الكتابية وموهبته الشعرية فى التوضيح والتقريب بضرب الأمثال وحل الرموز واستخبار الألفاظ عن معانيها العويصة التى لا تضبطها اللغات إلا بما يشبه الإشارة والتلميح لقللة من يفضى إلى أسرارها ، فكان هذا العمل من الشاعر ماثرة على سمعة قومه بل على قرائه جميعاً ، وإن كنت أشك كثيراً فى قدرة سواد الغربيين على فهم وجهة النظر الهندية ، لأن القوم مغرورون بمدنيتهم غروراً لا يفيقون من سكرته التى تطمس البصيرة وتكل الالهام إلا بعد أن تزول عنهم قوتها وصولتها .

وقد حدثتني عن تلك الفئة التى تتعت نفسها بالتححرر من قيود الأدب القديم وما تقيدت قط بأدب قديم ولا حديث فيكون لها فضل الإفلات من الأسر . وعندى أن هؤلاء الذين يتهمون على أساطين الآداب الشرقية ولا يدينون بالشاعرية لغير الغربيين لا يدلون على حرية فكرية أو جرأة أدبية ، إنما يدلون على خلو وإفقار وخداج فى العقل ، مثلهم فى ذلك مثل السوائم والأوابد فى حريتها فإنها لا تفعل ما تريد علواً عن ربة الأوهام ونبواً عن أحكام التقاليد بل لخلوها من قابلية التقيد حتى بالأوهام الباطلة والتقاليد المهجورة ، وعجزها

الرسائل

الرسالة الأولى^(١) :

لم أفتح رواية جوتيه فى الأقصر لأننى كنت قد أمعنت فى كتاب « سادهاانا » لتاجور ، فأنت له أن أخلط قراءته بقراءة أى موضوع مما يجول فيه قلم جوتيه وأشباهه ، ورأيت أن لا أكون بخلطى بين الكتابين كمن يغازل فى المحراب أو يكتب الحمريات على هامش القرآن ، فأقبلت على الكتاب حتى أتمته فإذا سفر من أجل أسفار الدنيا وأحقها بالدرس والتأمل ، ولم أكد أفرغ منه إلا على شوق إلى إعادته . ولست أعنى أننى تلقيت الكتاب بالإيمان الكامل ولا أنه اشتمل على كل ما يعرف من سر الحياة فإننى لا أنتظر ذلك من كتاب قط ، وحسب المؤلف عندى أن يكون فى كلامه ما يصح أن يشغل حصة واحدة فى مدرسة الحقائق التى تكشفها الحياة لأبناء الفناء .

ولا شك عندى فى استمداد تاجور من أصول الفلسفة الهندية القديمة ، ولكنه مهما كان مبلغ استفادته من تلك الفلسفة التى استمد منها العالم أجمع نقد برع فى التفسير والإقناع براعة تقرب من الابتداع ، وعندى أن المستشرقين الذين قضوا أجيالاً فى نبش دفائن العقائد الهندية وإذاعة كتبهم المقدسة لم يظهروا من روح الهند القديمة لمحة مما استطاع تاجور إظهاره فى هذا الكتاب الصغير .

أول نوفمبر سنة ١٩٢٦

(١) كتبت هذه الرسائل الخمس من أسوان إلى صديق أديب بالقاهرة رداً على أسئلة أو آراء تفهم من قراءة الرسائل . وقد أنبتها هنا نقلاً عن صحيفة الرجاء التى نشرتها لأول مرة .

ووقائع عصره . وإن كان لهذه المقالة عيب فهو أنه جعل فيها الحد بين القوة والضعف فاصلاً حاسماً لا يعتوره وهن ولا يأذن بثلمة أو منقذ . فالذي يقرؤها يتوهم أن هناك عصوراً قوية لا يتخللها ضعف وأشباهاً جبارة لا يلم بهم فتور أو شك ، والحقيقة خلاف ذلك فإن أقوى العصور عرضة لنوبات الخيرة والخوف . وأقدر الرجال قمين أن يتسرب إليه الخور في بعض هجرات نفسه وأوهام خياله . ومن المستحيل استحالة مطلقة أن يسود الإيمان الملهم عصراً كاملاً أو رجلاً قويا في جميع أدوار حياته وأطوار تفكيره ؛ لأن الإلهام لا يوحى التفصيل المسهب وإنما يوحى خاطراً بجملاً أو عقيدة غامضة ، وللغفرك أن يعمل فيها تحليلاته وأقيسته ويجيل فيها شكوكه أيضا ، ولهذا لن تجد كاتباً أو شاعراً أو فيلسوفاً على مستوى واحد في فيض ذلك الوحي وإغداقه ، ولهذا كانت مقالة كارليل نفسها مزيجاً من الإلهام والتفكير العميق والاستنتاج المختلف صواباً وخطأً وحكمة وشططاً . وأنتم مصيبون فيما لحظتموه من كثرة التفكير فيها على غمظة لقيمة والتفكير في كثير من عباراتها - وهو معذور في ذلك - ألم تعرض للأنبياء والقديسين وسائوس وشكوك تقبض الصدور وتشغل الأفكار؟؟ وليست هذه الوسائوس والشكوك التي كانوا يسمونها إغواء وخداعاً من الأبالسة والشياطين إلا فترات الضعف في الإيمان واحتجاب الإلهام ، وإلا ذلك التردد الذي كان يشكوه كارليل ويقول من شدة بغضه له أنه وقف على العصور الحجابية والنفوس الخافتة ، ويسميه أحياناً لجاجة وأحياناً جدلاً وأحياناً سفسطة ، حتى ليكاد يخلط بينه وبين المنطق الصحيح القويم . ولكن كارليل قليل التدقيق في توجيهات ألفاظه بحيث يظلمه من يحكم على منطقته بكلماته الظاهرة ، ولا بد من تجريد النفس من أسر المفردات والخوض معه في عباب المعاني حتى يعطيه القارئ حقه من الإكبار والإنصاف .

قلت في آخر خطاب لك أنك أحببت أن تسألني عن قولي : أقصد الغربيين « أن القوم مغرورون بمدنيتهم الخ » فالذي أقصده بهذه العبارة هو أنني لا أقيس مدينة الغرب بعدد مخترعاتها الحديثة ولكن بالملكات والمواهب التي أنتجتها . فهل بين هذه الملكات ماهو أعظم وأجل وأرفع من الملكات التي أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها؟؟ أن كان ثمت فرق فهو

عن فهم الصحيح وغير الصحيح على السواء ، وقد يكون لهم بعض العذر إذا قرأوا وتفهموا وقارنوا ثم أخطأوا أسباب المقارنة واختل معهم ميزان الحكم ؛ فأما وهم ينقدون ما لا يحسنون له مزية ويرفضون ما لا يعرفون له وزناً فهم مسيون إلى أنفسهم وإلى الناس ، بيد أني لا أظن إساءتهم ذات خطر لأنهم لا يقتنعون أحداً بصدق هرائهم إلا كان مثلهم في الغباء وخفة الأحلام ، والذي أراه أن ذلك الشيخ الذي كان يحدثك عن كتاب الديوان ومن هذا حذوه في رأى والاصلاح هم أحق بالخوض في أحاديث الأدب وإبداء الآراء في الشعر والكتابة من أولئك السائمين الهائمين على وجوههم في تيه الخلاء الفارغة والدعوى الكاذبة ، وبودي لو استطعت إزالة اللبس عن عقول أولئك الذين يحسبوننا في عداد الغامطين لكل شعر غير شعر الغربيين ، فإنهم يخشون فهمنا خطأ كبيراً ، فلعل الأيام تسمح لي بالإفاضة في هذا البحث وإظهار معيار الجودة في اعتقادنا إظهاراً يعينهم على معرفة رأينا في كل قصيدة قبل سؤالنا عنها وينفى عن أفكارهم شبهة التحيز التي لا يعلمون حقيقتها .

١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١ .

الرسالة الثالثة :

أخي الفاضل

لم أشك في أنك كنت تعنى مقالة (الخصائص) لكارليل عندما أخذت في قراءة وصفك لأثر مقاله التي كنت تقرؤها وما استجاشته من خواطرك وشجونك ، وأفهمت به نفسك من المعاني والتصورات ، فإنني لا أعرف للرجل مقالة تستحوذ على لب قارئها استحواذ هذه المقالة الجزلة الممتعة - ولاغرابية ، فهي بلا ريب مفتاح فلسفته ومقياس جميع تقديراته للحوادث والرجال ، ولا يكمل درس كارليل بغير دراستها واستقصاء أسبابها من تطورات فكره

الخلاف في أمر المدنية الغربية الحديثة يمكن حصره ، فإن كان القصد من تعظيمها أنها بلغت بالصناعات والمعلومات حدا لم يتقدمها إليه متقدم معروف فذلك حق لا ريب فيه ولها الشكر الجزيل عليه . أما إن كان القصد أن هذا التقدم يستلزم حتماً تفوقاً في الملكات وطاقات العقول ، فهنا يقع الخلاف الكثير - فقد يخترع الرجل أداة لطبع ألف نسخة في الساعة ثم يجيء غيره فيخترع آلة أخرى تطبع عشرة آلاف نسخة ولا يفهم من هذا أن له من الذكاء والفظنة عشرة أضعاف ما للأول لأن اختراعه أسرع بهذه النسبة . وقد يتعد السائر عشر مراحل عن نقطة فلا يؤخذ من هذا أنه أقوى على السير ممن لم يتعد عنها إلا بتسع مراحل ، لأن الأول ربما لم يسر إلا مرحلة واحدة بدأها من حيث انتهى سابقه ، وخلاصة رأبي أن مدينة الغرب الحديثة ليست ببعيدة الغور في نفس الإنسان فإن اليابان قد أصبحت لها في مدى ثلاثين أو أربعين سنة مدينة مصنوعات ومعلومات كمدنية أوروبا على العموم ، فهل يقال إن مدينة تنقل في أقل من عمر رجل واحد تعد شوطاً كبيراً في تقدم النوع الإنساني ؟؟ وماذا في صحة المعلومات في ذاتها من الدلالة على عظم القوة المفكرة ؟ إن التلميذ الصغير اليوم لأصح علماً فيما يلقنه من الدروس من أبي الطيب أو أفلاطون ، ولكن أين عقل الصبي من عقل الشاعر الحكيم أو الفيلسوف المبتكر ؟ وإذا نظرنا إلى الرفاهة المادية نفسها فهل يسعنا الجزم بأن مدينة أوروبا الحديثة زادت سعادة الإنسان أو خففت من شقائه ؟؟ قارن بين رجلين أحدهما يمثل مدينة قديمة عالية ، والثاني ممثل لمدينة العصر الحاضر - فلا يبعد بل الأرجح أنك تجد الأول أفخر ثياباً وأشهى طعاماً وأجمل مسكناً وأصح جسداً من رفيقه ، ولا تعرف لمدينة الآخر مزية حتى تسأل في كم من الزمن صنعت ثيابه أو بنى بيته . هنالك تظهر لنا مزية السرعة ، ولكن ماذا وراء ذلك ؟ سرعة المخترعات لاستلزام تفوق القوى المخترعة وأما بعد ذلك فلا الصانع الحديث ولا المستفيد بصناعته أسعد حالاً من زميليهما في القدم . أزيد على ما تقدم أن الصانع القديم كان أصنع يدًا وأدق حاسة وأكثر مراناً على استخدام أعضائه من الصانع الحديث الذي صيرته المخترعات آلة تدير آلة ، وإني لأعرف في الريف نجارين ينظر أحدهم إلى الخشبة فيقول إنها زائدة فإذا قاسها لم يجدها تزيد بأكثر من نصف قيراط .

يسير جدا . نعم يسير جدا بالنسبة إلى غطرسة المدنية الغربية ودعاواها : وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن القيمة الروحية التي ارتقى إليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم ، وإن هذا التقصير عيب كمين فيهم ، ويكفي أن أوروبا لم تثبت نبياً وأنها عالة على الشرق فيما تدين به . إن من يقرأ فلسفة البراهمة ليشر بصغر أكبر أبطال الغرب الروحيين بجانب أولئك المردة الأشداء ، إنني لأحسب أن كل مهمة المدنية الغربية هي أن تستحث حياتنا المادية أو الحيوانية على اللحاق بتلك الغاية البعيدة التي أوغلت إليها روحانية الشرق ، أما أن تسبقها أو تبتكرها فلا - وكأنما الغرب اليوم خادم قوى يبدأ بأن يقطع الطريق نفسها : الطريق التي سبق السيد^(١) فاجتازها ولكنه لم يجلب معه مؤنة رحلته وأسباب وقايتها ، فإذا ماالتقى الركبان يوماً تبين السابق من المسبوق وعرفت نكاح قيمة مزيتة

حبذا لو تكرمتم فأطلعتموني من أبناء العاصمة الأدبية والسياسية على مايفوتني علمه بسبب مقامي في أسوان وسلامي إليكم وإلى الإخوان جميعاً .

الرسالة الرابعة :

أخي الفاضل

تسلمت روايتي بلزاک ومرديث وقد شوقتنى إليها وسأبدأ بقراءة رواية مرديث قريباً ، ولكن ربما مضت برهة قبل إتمامها لأن الرواية طويلة ولست أمعن في القراءة اليوم إلا قليلاً ، وسألقاك قريباً في كل موضع التفات من الرواية ، فإن للروايات والكتب معالم تعبرها الأفكار فتلتقي عند الاشتراك في القراءة ، وهي بهذا المعرض تلتقي مواجهة لا بالذكري التي لايتلاقى بغيرها الجائزون بمعالم الطريق .

(١) أي الشرق .

ينتهي إليه يتباحث في أمر الروح ، ثم يرجع عنه طائعا أو مكرها .

قارن هذا يقتنع العالم الغربي بعقيدة الخلاص على كونها مقبوضة بقضيتها وقضيتها من البرهية ، وأذكر أن البرهية كملت قبل ثلاثة آلاف سنة وأن الإنسان بطيء في تغييره من عقيدة إلى عقيدة ومن فرض إلى فرض ، وانظر بعد المسافة الهائل الذي يفصل هذين العالمين من هذه الوجهة . أما الفلسفة اليونانية فأعظم فلاسفتها الإلاهيين أفلاطون . فأما خلود الروح فقد نقل القول به من الشرق وأما فكرة Ideas التي أخاله انفرد بها بين فلاسفة قومه فهي لعبة أطفال بجانب ذلك المحيط الزاخر العميق . ومن هنا أعذر شوبنهاور في تقديس البرهية حتى لقبوه البرهية الحديث . وإن كنت لا أحسبه فهمها على الوجه الذي أفهميه منها كتاب سادهاانا ، فإني لم أقدر حقيقة المقصود بال Nirvana الهندية إلا بعد قراءة هذا الكتاب .

يطول الكلام في هذا المضطرب وأرى أننا متى التقينا أمكننا التقارب في النظر والحكم ، فإن ما يقال في جلسة واحدة لا يفي بشرحه عشرات الرسائل . وسلامي إليك وإلى الإخوان جميعا .

١٦ - ١ - ١٩٢٢

الرسالة الخامسة :

أخي الفاضل ..

لم أتمكن بعد من البدء في قراءة رواية مرديث لأننا في أسوان وفي هذا الموسم الذي لا ربيع للمدينة سواء نؤثر الجولان في الخلاء على الجولان في ميادين الأفكار ، والتفرج بالنظر إلى وجوه الغريبات الحسان على التفرج بالنظر إلى رؤوس الغريبين المتفلسفين . ولا أكذبك أن للمدينة الغربية لدينا الآن شقيعات كثيرات فإذا رأيتني أجور عليها فقد يكون الجور مبالغته في الحذر وخوفاً من المحاباة !!

إني أبسط لك ما أنكره على المدينة الغربية وما أعترف به لها وما أجدني غير

ولم أر نجاراً واحداً تعود الاعتماد على القياس في جميع أعماله يدرك ضعف هذا الفرق .

أما كتب الديانة البرهية فأشهرها على ما أذكر : Vedas, Ramayna, Mahabharata .

وهناك كتب أخرى لا أضبط أسماها لكثرة حروفها وحركاتها . وليست للكتب المذكورة طلاوة كتاب ك « سادهاانا » ولا إمتاعه الشعري والأدبي لأنها لم تكن إلا مجموعة شعائر وقصص ، وأمثال ومحاورات ، وهي الديانة البرهية كما شاء كهان الهند أن يبرزوها للأنظار لا كما هي في لبائها المجرد ، لكن لا يؤخذ من هذا أنها خالية مما يدل على سمو الروح وعلوها في سبجات الفلسفة الدينية وتعطشها إلى إدراك أعلى الكمال المقدور لها في دنياها . خذ مثلاً عقيدة تناسخ الأرواح ثم اتصالها بعد التطهير بالروح الكلي الأعلى ، فأى فرض أو أى استدراك مما يرد على الباحث في مصير الروح الانسانية لم يلحظ في هذه العقيدة المضحكة لمن لم يجشم نفسه هذه المباحث ، ففي هذه العقيدة ملحوظ ضعف القول بقسمة الحياة إلى دورين في أحدهما النعيم السرمد أو الشقاء السرمد وفي الآخر التجربة والتحضير ، مع العلم بأن هذه التجربة لا تتساوى فيها الفرص ولا الملحوظ ولا النتائج . وملحوظ فيها الرد على الذين يقولون (أوليفر لودج يقول بهذا الآن) إن الروح الحرة أرسلت إلى العالم لتتقوى بمصادمة قيود المادة ، إذ يرد عليهم بأن الطفل قد يعمر وقد يموت صغيراً فماذا يكون نصيب المعاجل في حياته من ذلك التقوى المقصود من الأزل؟؟ وملحوظ فيها عدم اطمئنان الفكر إلى بقاء الروح منفصلة عن الروح الكلي في العالم الأخير مع بعدها عن مرتبة الكمال وهي مفطورة على طلبه . وملحوظ فيها غرابة القول بالشقاء السرمد أو حصول الجزاء في عالم غير العالم الذي امتحن فيه الإنسان بالذنوب أو تظهر فيه من العيوب ، وملحوظ فيها ماني القول بالقضاء والقدر من التناقض الكثير الذي لا يخلص العقل من شبكته مها أجهد نفسه ومها بلغ من ميله إلى التسليم . وملحوظ فيها وحدة الحياة من أسفل مظاهرها إلى أرفع كمالها الطلقة . وقصارى القول أن هذه العقيدة قد لحظ فيها كل باب موحد

شرح في تسجيله بالهند غلطوه وتلكوا في إجابة طلبه واضطهده حتى يش
فالتجأ إلى اليابان ومنها إلى الولايات المتحدة وهناك سجل اختراعه ، وقال إن
مصرياً اسمه عدل جهاز الإشارات في السكة الحديدية تمكن من تحويل
كلتا دائرتي التلغراف إلى الأخرى بأسهل وسيلة فأهلوه وثبطوه وهو الآن في
الخمسين من عمره لم يتجاوز مرتبه أربعة عشر جنيتها ، فإذا كان فتح المعامل في
الشرق وهي مكان التجربة والاختبار ممنوعاً أو معرقلاً وكان هذا نوع المكافأة
التي يلقاها المجتهد خارج المعامل فنحن الشرقيين أولى من غيرنا بالترت
الطويل قبل اتخاذ الركون الصناعي في بلادنا عرضاً من أعراض النقص الملازم
والقصور الدائم ، وقد تكون رواية الشاب محدثي صحيحة برمتها وقد يكون
بعضها غير صحيح ولكني سئى كُننا الحالين لا أرى لماذا نحكم على رجل بعيد
عن الماء بأنه لن يحسن السباحة : ولماذا نصدق القائلين بذلك بمن لا يدلون
ببرهان معقول ولا يسلمون من شبهة الغرض ، وأي حجة كانت عند سكان
انجلترا قبل الميلاد على من يصمم بالعجز الأصيل عن تمرير الصروح وودرس
الفلسفة ؟؟ لا حجة البتة ، فما قيمة حججهم علينا ونحن سبقناهم بتاريخ
يدحض هذه الحجج وليس فينا من آفة قط لا يمكن ردها إلى سبب عارض
قريب ؟؟ وقد سألتى هل المدنية إلا مصنوعات ومعلومات فجوابى أن المدنية
بمعناها الحرقي هي أقل من ذلك ولكن معناها يشمل كل مايوضع من الإنسان في
الميزان إذا أريد تقديره فهي بهذه المثابة أقرب إلى معنى الـ (Culture) في
العرف الحديث .

- عقيدة الانتهاه بالنيرفانا بوذية ولكنها برهمية أيضاً لأن البوذيين ينسبون
إلى « بوذا » الرسول البرهمي في كل شيء إلا في تقاليد الطبقات ولا يخفى أن
بوذا يعبد « برهما » فليست نحلته إلا نحلة برهمية .

- إننى معك في ضرورة الاهتمام بتعهد الحركة الأدبية المصرية وقد قلبت
مشروع إنشاء مجلة على جميع الوجوه ، فإن كانت لديكم فكرة عن مشروع
آخر مخلو من بعض صعوبات المجلة المعلومة فأرجو أن تشرحوه لى ، لأننى
لا أرى إنشاء المجلة من السهولة بحيث يقدم على كل فكرة سواء . ولا أكتمك

مستطيع الاعتراف به توضيحاً للجوانب المختلفة من رأى في هذه المدنية . فأما
الذى أنكره عليها فأن تكون قد أنشأت من عندها تقدماً روحانيا يضاهى تقدم
الشرق أو يلحق به . وأما الذى أعترف به فهو أنها أبدعت في الصناعة والعلوم
مبدعات لم تسبق إليها ، وربما كان من نتائج هذه المبدعات التقريب بين قوى
الإنسان المادية وقواه الروحية بعد دورة تحس فيها القوة المادية غاية جهدها
فتقصر عند حدها . وأما الذى لا أستطيع الاعتراف به فالقول بأن للفربيين
طاقة فكرية لاتلحق بها طاقة الشرقيين ارتكناً إلى مايشاهد من مخترعات وعلوم
في مدينة أوروبا الحديثة ، لأننى أعتقد أن الطاقة البدنية لاتقاس بنفاسة الحمل
بل بوزنه ، فالرجل الذى يحمل قنطاراً من الحديد كالرجل الذى يحمل قنطاراً
من الذهب على بعد الفارق بين الحملين في القيمة ، وكذلك الطاقة الفكرية
لاتقاس بفائدة الشيء المخترع ولكن بالمجهود الذى استدعا إظهاره في ظروفه
المحيطة به . وإنى حين قلت لك أن اليابان اقتبست مدنية أوروبا في ثلاثين أو
أربعين سنة لم أقصد إلا أن هذه المدنية لايدل ظهورها على خطوة واسعة في طاقة
الفكر تخطوها الفطرة الإنسانية قبل أن تصطبغ بصبغتها . وقد قلت إن هذه
السرعة من مفاخر مدنية العصر الحاضر لأنها تختصر الوقت وتعجل قضاء
المطالب ، فهل المقصود أن مدنية القوم اخترعت لليابانيين عقولا غير عقولهم
فيفضل هذه العقول الجديدة اختصروا الوقت فاكتسبوا في جيل واحد ما لم
يكونوا كاسييه لولا ذلك في عشرات الأجيال ، وإنهم أسرعوا في التفكير قياساً
على الفرق بين كتابة اليد الواحدة وكتابة المطبعة الحديثة أو على الفرق بين نسج
القديم ونسج المعمل البخارى ؟؟ إنك لاتعنى ذلك طبعاً . وما دام العقل لم يتغير
فتغير المصنوعات له قيمة محدودة لا يعدوها . وأحول نظرك إلى أن انفراد الأمم
الهندوجرمانية - التى لاشك في شريقيتها - بالنبوغ الخاص في عالم الفلسفة
والشعر بل في عالم الصناعات أيضاً هو أكبر معين على إعطاء المواهب الشرقية
حقها من تراث الإنسانية الخالد وإنصاف الغرب والشرق معاً - حدثنى شاب
أديب مجتهد يقيم الآن في أسوان ويعنى بالمباحث الكهربائية والتلغرافية منها على
الخصوص ، قال إن رجلاً هندياً اسمه (رامساراجام بلتورا) أدخل على
التلغراف اللاسلكى تحسيناً مهما مأخوذاً به الآن في جميع البلاد التمدنية فلما

نهضة المرأة المصرية

قبل^(١) عامين أو نحو ذلك ، كنا نعمل في مكتبتنا الصحفية كالعادة إذ طرق مسامعنا من وراء زجاج النافذة هتاف رخيم ولكنه عال ، ضعيف ولكنه سريع متدارك لا يني ولا يهدأ . فعرفت أنه هتاف الأوانس الصغيرات . لأنني عهدتهن في مواكبهن من قبل لا يتمهلن في دعائهن ولا يرحمن حناجرهن وأصواتهن - يردن أن يحيا الوطن ، ويحيا الوطن ، ويحيا موات الدنيا قاطبة - في نفس واحد وفي لمحة واحدة .. ولا أظلم الجنس التنظيف إذا قلت أنه إذا طلب لم يصبر على التريث في الإجابة ، حتى في الطلب من الأقدار !!

ألقينا الأقلام وأطللنا ننظر هذا الموكب الجميل ، وما هو بالموكب الذي تمر به لحظة وتطوى هتافه نسمة هواء ، ولا هو بالموكب الذي يعصى عليه سمع الدهر فما ظنك بسمع الإنسان ، ولا هو بالموكب الذي تمهده ساعة وتطمس آثاره ساعة . إنه موكب أنصتت مصر مئآت السنين لتسمع أولى بشارته فلما سمعتها سمعتها الدنيا كلها معها وتلفت الزمن ونودي في عالم التاريخ بميلاد عصر جديد . إنه موكب لا يعلم إلا الله كم جيل دأب على تنظيمه في ظلام الماضي ، ولا يعلم إلا الله كم جيل سوف يشب وثبة النصر والسعادة على توقيع هتافه في أضواء المستقبل ، وإن الذين سيمرحون في سعادة مصر بعد عشرات الأعوام ومئاتها فلما يعلمون أننا رمقنا بمجدهم كله يتتابع أمامنا فوجًا بعد فوج في هذه الظليمة .

أطللنا فرأينا ما ينقله إلى السمع ذلك اللجاج المحبوب وتلك اللهفة الطاهرة ، رأينا وجوهًا تشرق من الحماسة بما لا يقوى على نقله النداء والدعاء ، رأينا

(١) نشرت في العدد الثاني عشر من الرجاء .

أنني أرتاب في علة رواج كتاب الديوان فأرى أن الأدب وحده لم يكن بأقوى البواعث على لفت الأنظار إليه ، فهل تراه كان يحدث هذه الزوبعة التي أحدثها لو خلا من حملة مغرورة الهدف شديدة الرماية ؟؟ وإذا كان ذوق الجمهور لا يستفز بغير هذه الوسيلة فهل تفيدته المجازاة فيه . وإن أفادته فهل يحتمل كاتب أن يقصر قلمه على هذا الباب من الكتابة ؟؟ ولست أعدد هذه الصعوبات ليل إلى ترك المشروع بل لشدة ميل إلى حياطته ووقايته .

سلامى إليكم وإلى جميع الإخوان وأظن أنه لم يبق بيننا إلا شهر فبراير القادم . إذا اعتدل الجو ، ثم تجمعنا القاهرة وبجبالها المستطابة وأنديتها الجميلة .

٣١ يناير سنة ١٩٢٢ .

أولئك الجبابرة الذين تستولى عليهم الآلهة ، أو المسحورين الذين يستخرج منهم الاستهواء^(١) قوى لاعلم لهم ولا للناس بها ، وهل الحب إلا ضرب من التنويم المغناطيسي ؟؟ هل هو إلا تنويم تتغلب به إرادة نوع على إرادة فرد ؟ فهذا التنويم العجيب ينقل النوع إلى الفرد إرادته وزكاته وجملة إحساسه ، وبهذا التنويم يتسلط الأحياء على المادة الصماء ، فترى العاشق في قبضته أكبر من فرد بشجاعته وإصراره وشرف نفسه وتوقد جنانه ، وأقل من حجر بطاعته وانقياده لما يراد به وعماء عن أوضح الشبه وأظهر الظنون - يمهده النوع بوحيه فيحس من القوة والجمال في نفسه مالا يكون لفرد أن يحسه ، ويجعله في تقيظ الحس كالنائم المستهوى الذى يبصر بأعصاب بشرته مالا يبصره المفيقون إلا بالعيون . ثم هو يدفعه إلى بغيته كما يدفع النائم المستسلم . يأمره فيقطع ويزين له المحال فيصدقه ويريه الحلو مرا والمرحلو فلا يشك فيما يخيله إليه ، بل يقول له ألقى نفسك في الهلاك فيلقى بها لا محجماً ولا وجلاً ، وعنده أنه يعمل على لذة قلبه وراحة خاطره .

كذلك خلقت غريزة الحب النوعى . فهى تستحث في نفس أسيرها كل ما فيها من استعداد وكل ماتسع له من شعور ، بحيث لا يخطئ من يقول إن العاشق يولد مرة أخرى وإن من لم يعشق فقد حرم هذا الميلاد ومات بعض الموت وهو في قيد الحياة ..

هذه هى القوة الغالبة التى يلغىها من ميدان العمل جهل المرأة ، وهذا هو ينبوع الزاخر الذى خلقت المرأة لتفجره في قلب الرجل ، والذى يحففه في قلبه حرمانه من شريكة مهذبة عارفة بكرامتها وكرامته تبادل العطف وتشاطره الحب وتعطيه مثل الذى تأخذ منه من إحساس وشغف ونورانية ، فإذا أنكرت على المجتمع ضللاً في الأدواق وفتورا في العزائم وتكوصاً عن التسابق إلى الأمثلة العليا والمراتب الفاضلة وكساداً في العقول وجموداً في الشعور وصبراً على الهوان وخللاً في العرف والآداب ، فلا تعجب ولا تذهب بعيداً في البحث عن

(١) التنويم المغناطيسى .

مركبة الأوانس الغاضبات تتقاطر منها الدعوات لمصر كما يتقاطر التفريد من الدوحة الباسقة في نور الصباح الباكر ، وإن الشبه لقريب ، فما كنا نرى إذ رأينا إلا عصفير الحرية قد انتبهت تحيى فجر مستقبل موموق .

قال أديب كان معنا : لن نضام أمة هؤلاء بناتها ، والحق أقول أننى أردت أن نتعجل الفوز فنفقده . فقلت لصاحبي : أو ليس الأولى أن يقال « هؤلاء أمهاتها » ؟؟

وأنت بعد ذلك أيام مفعمة بالحوادث المنسيات ، والمخطوب المذهلات ، فنسيت كثيراً وذهلت عن كثير . ولكنى لم أنس تلك اللحظة ولم أر من شبيهاها إلا ما يذكرنى بها ، فقى هاتين السنتين توالى دلائل نهضة المرأة المصرية وشجعت بوادرها أشد الناس حذراً من تصديق الأمل وأكثرهم توجساً من ظواهر الأمور ، وأصبحت أجد من نفسى طرباً صادقاً لأعلى تهليلات الرجاء بعد أن كنت أتردد في الإصغاء إلى أضعف همساته ، ولم أر داعياً لانتظار اليوم الذى يكون فيه أوانسنا الصغار أمهات لجيل جديد فإنهم منذ اليوم خليقات أن يؤتمن على مجد مصر ، وأنهن منذ اليوم ينشئن لمصر مستقبلها العظيم . ولا ريب أن من أبصر الغاية فقد أخذ في إدراكها ، ومن عرف الصعوبة فقد شرع في تذليلها .

* * *

أين هو الرجل الذى يفهم الحرية وهو يسكن إلى شريكة في الحياة مستعبدة ؟ وأين هو الرجل الذى ينعم بثمره الحرية وهو وليد أم مقيدة ؟ وأين هو الرجل الذى تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذى خلقت المرأة لتحييه ؟ إنه العنقاء التى يتحدثون عنها في أساطير الأولين .

ولم يودع الله في نفس الإنسان بعد حب ذاته غريزة هى أقوى من الحب ولا أشد منها تغلغلاً في أطواء نفسه وابتعائاً لكوامن استعداده وخفايا مواهبه ولا أغلب منها سلطناً على مجامع هواه وبواطن خواجه وقواه . فالرجل الذى تستولى على قلبه هذه الغريزة النبيلة يريك من العجائب مالا تراه من غير

تقاليد الدين وأحكام العرف وأشد احتفاظاً بما يصون هناءة البيت، وغير ذلك من الخصائص التي تنفرد بها أو ترجح على الرجال فيها . وسنرى اليوم الذي تظهر فيه آثار هذه الخصائص البارزة في المجتمع المصري ويتبارى فيه كل من الجنسين في تنويع مصر أنفس ما يملك من مزايا جسمه وعقله وروحه . وهي في حاجة إلى جهد أصغر صغير من أبنائها وبناتها . وربما سبقتنا بعض الأمم إلى تقسيم الفروض الاجتماعية بين الرجل والمرأة على قدر معلوم ويقانون مرسوم ، وربما سمعنا في هذا الباب من الغرائب مالا يحظر الآن على البال . ففى السويد مثلاً كاتبة كبيرة تدعى « ألن كى » تقترح أن يفرض التجنيد على الفتيات كما يفرض على الفتيان فتقضى كل فتاة تبلغ الثامنة عشرة من عمرها مدة سنتين في الخدمة العمومية . وفيم تقضى سنة المدة ؟؟ لا في حمل السلاح طبعاً ولا في التدريب على إطلاق المدافع وحفر الخنادق ولا في شن الغارات وتدويح المستعمرات . وإنما تقضيها في التدريب على وظائف الأمومة بين مدارس الأطفال وملاجئ المرضى ومستشفيات الولادة ومعاهد الفنون الجميلة وماهو من هذا القبيل .

ولايبعد أن ينفذ هذا الاقتراح وأغرب منه في أمم الشمال ولكننا هنا لانتظر حتى يعلم نساؤنا واجباتهن من القوانين الموضوعة والأوامر المشروعة ، فإن المرأة المصرية في وسعها أن تتدرب على أشق أعباء الأمومة وأن تؤدي أشرف الفرائض القومية دون أن تضطر إلى المبيت في التكنات والارتداء بالكسوة العسكرية ولو في جيش مسالم !

وسيفضب على أنصار القديم . لا لأنى قلت شططاً في ابتهاجى بنهضة المرأة المصرية ، ولكن لأمر صغير بسيط : وهو أننى قرنت بين كلمة الحرية وكلمة المرأة وهم يكرهون جد الكره أن تقترن هاتان الكلمتان في وقت من الأوقات . لا في العصر الحاضر ولا في مستقبل قريب أو بعيد .

ولو سألتهم هل تحبون الحرية لأنفسكم ؟؟ لقالوا نعم نحبيها . ولأبنائكم ؟ نعم ولأبنائنا . ولأمهات أبنائكم ؟؟ هنا يسكتون .

فهم يتمنون لأنفسهم العلم والحرية والجاه والسيادة والحول والطول

السبب ، إذ أى نقص لايجدته في الأمة خلوها من تلك العوامل البعيدة الغور وأى قحط لايسلطه على النفس فراغها من نتائج الغريزة المخصصة ؟؟

لن تضام أمة عرف نساؤها الحرية . أجل فهذه قولة حق لاشك فيها . ولكن كم من الشك في قول من يزعم أن عرفان الرجال بالحرية هو حسب الأمة ضماناً لها من الضيم ؟؟ فإن حرية لايعرفها غير الرجال أحرر أن تكون حرية شوهاء ، لأنها كالتربة الشحيحة التي يسرى غداؤها إلى كل فرع من فروع أشجارها . فلا نباتها كله يبروى ولا المروى منه يساغ فيه الرواء على جميع أجزائه . والمرأة في أمثال هذه الأمم فرع يلبس لا خير فيه . وقد يكون الرجل أندى منها حالاً ، ولكنها حال لا تنفعه إلا كما ينتفع بالفرع تمشى فيه الشجرة واليبوسة فلا هو للإتمار ولا هو للوقود ، وليس هذا شأن الأمم التي يظفر نساؤها بقسطهن من الحرية فإنها أم تستقى الحياة من أبعد أطرافها وترسلها إلى أبعد أطرافها . فهي شجرة يانعة لاحطبة لينة .

وعلى أننا كثيراً ما عرفنا رجالاً خطبوا الحرية ثم خانوها ونذروا لها أعمالهم ثم كفروا بها ولم يؤدوا حقوقها . وربما استحبوا النفاق لضماثرهم أو اضطروا إليه اضطراباً يخلجون منه ويتلمسون له المعاذير من مضائق العيش ومتناقضات الأيام . أما المرأة فما الذى يمنعها أن تؤدي ما عليها للحرية من حقوق ؟؟ لا يمنعها عنها إلا من يمنع اللبن أن يسيل من ثديها سائغاً إلى ثغر رضيعها ، وإلا من يمنع المهد أن يهتز على أشجى ترانيم الوطنية والفضيلة ، وإلا من يمنعها في كسر بيتها أن تربي صغارها التربية التي تختارها وأن تناغيهم باللغة التي تحبها . وليس على الأرض قوة تمنعها من شيء من هذا إذا أرادت . وإن امرأة تريد هذا ولا يمنعها مانع منه لهى معقل للحرية لاتزعزع الطورائى ولا يخشى عليه من « مضائق العيش ومتناقضات الأيام » .

من البديهي أن للمرأة خصائص لايشاركها فيها الرجال جعلتها أصلح منه لأداء كثير من الواجبات المدنية فضلاً عن واجباتها الطبيعية : فهي على الجملة ألطف منه شعوراً وأدق حساً وأصدق زكاة في العلاقات الجنسية وأحرص على

سر تطوّر الأمم

كتاب من الكتب القيمة وضعه عالم فرنسي جليل ، وعربه وزير مصرى عامل . والكتاب على صغر حجمه وإيجاز أبوابه من الأسفار التي قل أن يلج مثلها إلى عقول المصريين من جانب اللغة العربية . وأيسر ما يقال فيه انه سيعودّ القراء أسلوب البحث الجديد فلا يركنون إلى تلك المباحث التي مدارها على التلقيق ، والتي هي براء من المعنى براءتها من صدق النظر والتحقيق . وما أكثر الكتاب الذين كان ينظرون عندنا إلى أعرض مسائل الاجتماع وأغلق أبواب المستقبل ، فيشكلونها أشكالا كما يتخيل الواهم صور الجمال والتعابيح والحيتان في قطع السحاب المذعذعة في السماء . وما هو إلا أن تتم في ذهن أحدهم صورة ملفقة على هذا النمط حتى يبرزها للناس قضية مسلمة ، ويبني عليها النتائج البعيدة والنظريات الخطيرة .

أفرد المؤلف أكثر فصول الكتاب لتجلية الفكرة التي يحوم حولها في أكثر كتاباته . وهي أن لكل أمة روحا تسير أعمالها ، وأن هذه الروح هي التي تكيف أطوار الأمة وتشكل ملامحها الظاهرة ، وإليها يعزى سبب كل حركة من حركاتها . وقد غالى في وصف ما لهذه الروح من الأثر في كافة أحوال الأمة إلى حد يوهم أنه ينكر ما للعوارض الطارئة من الأثر الثابت في حياة كل أمة ، والحقيقة أن هذه العوارض ذات شأن كبير في تاريخ الأمم لا يحسن إغفاله ولا سيما من وجهة النظر السياسي ، لأن السياسي كالريان الحاذق يجلس مجلسه من السفينة ليرقب ما يهب عليها من الأعاصير ، ويشب إليها من الأمواج ، ولا يغنيه علمه بأدوات سفينته وفجاج البحر الذي تسلكه عن الدربة على قيادتها بين تلك العوارض ، وإلا فإن ثورة واحدة منها خليقة أن تهوى بالسفينة إلى القرار . وهل العوارض الطارئة إلا الخيوط التي ينسج منها روح الأمة ويتكون من مجموعها سلسلة اختباراتنا وذكرياتنا الماضية !! فهي لا تجعل في

ولا يجودون على نسانهم من هذه الدنيا الفسيحة بغير الحلى والثياب . وحتى هذه ماكانوا ليجودوا بها عليهن لو لم يكن لهم فيها حظ كبير .

يريدون أن يكونوا ملوكا مستبدين ولكنهم يأبون لأمهات ولالة عهودهم أن يكن ملكات ، فسبحان الله !! هذا ليس من العدل ، هذا مخالف على الأقل لأحكام القصص المرعية وأصول الخرافات المدونة ، فإتنا نعلم أن الملوك في تلك القصص يهبون من سماء عليانهم ليجبوا الراعيات الفقيرات ويتزوجوا منهن ، ولكننا نعلم كذلك أن الطقوس المسطورة لاتنتهى هنا . إن الحب الملكي يرفع أولئك الراعيات إلى مرتبة ملكات فيجلسن على العروش ويلبسن التيجان ويتعلمن الأمر والنهي كما يتعلمن السمع والطاعة ، وهذه سنة الخرافات وهي عندكم لها المنزلة فوق كل منزلة ، فإذا نظرنا اليوم راعياتنا بالأمس بمدن أيديهن إلى التاج فيلبسنه ويتقدمن إلى العرش فيرتقينه ، فمن مظاهر الأبهة إن لم نقل من قواعد الإنصاف أن نحيين ونصفق لهن ، لئلا نكون ملوكا بغير ملكات ، أو لئلا يكن ملكات على رغم أنف الملوك .

ولكن مالنا ولأنصار القديم نسود بهم بياض الصحيفة ، لقد خرجت نهضة المرأة المصرية وانتقل لواؤها من صفوفهم ، فليتقدم في أبدى رافعاته ورافعيه على بركة الله إلى قبلته المنشودة . قبله النجاح والرفعة إن شاء الله .

إنصاف طبقات العمال من أصحاب الأموال . والدكتور لوبون يقول مع ذلك إن الاشتراكية شاعت في فرنسا لأن مزاج أهلها يميل بهم إلى الاعتماد على الحكومة ولم تشع في انكلترة لأن الإنكليز أهل استقلال لا يعولون على غير أنفسهم - دع ذلك وانظر صوب ألمانيا فإنك ملق فيها شعباً اشتراكياً صريحاً وجزباً يمثل الاشتراكية في مجلسها هو أقوى الأحزاب وأوسعها نفوذاً . والألمانيون كما تعلم شعب سكوني قريب مزاجه من مزاج الأمة الانجليزية ، فما باله في هذه الحالة أشبه بفرنسا اللاتينية منه بانكلترة السكسونية ؟؟ وكأن الدكتور آنس ركة في تعليقه في هذه النقطة فجعل الاشتراكية آفة أوروبية عامة !! وعبر المحيط الاطلسي ليجد له في الدنيا الجديدة برهاناً يدعم به رأيه . فقال : « وإذا أردنا أن نعرف بكنمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا إن الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التي قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمي . وليس لهذه الفروق الكلية منشأ إلا الأخلاق . ومن المحقق أن الاشتراكية الأوروبية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد الأميركية . لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش إلا في الأمم التي شاخت بعد أن خضعت قرونًا طويلة إلى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها .. »

ا هـ .

ولكننا نقول للدكتور إن الاشتراكية قد سبقت إلى الولايات المتحدة أيضًا . وإنما ليست في بلد من البلدان أجهر صوتاً مما هي هناك .

فقد طاردت حكومة الولايات المتحدة منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلقتها وألزمته غرامة فادحة . وكان الجمهور الأميركي يهله لها ويشي عليها . وربما ظهر ميل الجمهور الأميركي إلى الاشتراكية بمظهر أقوى من هذا في برامج الأحزاب أيام الانتخابات ، وفي تسابقها جميعاً إلى إرضاء طوائف العمال ومهاجمة كبار المالكين ، وفي تحجير الصحف الفصول الطوال في تقبيح مطامع الأغنياء والعطف على الفقراء ، فإن كان الدكتور يعني بالاشتراكية بمظهر أقوى

الأمة شخصاً غير شخصها ولكنها تغير بنية ذلك الشخص ، ولا شك أن لروح الأمة دخلاً في تاريخها ولكن بقدر ما للإرادة في تاريخ الفرد ، وكثيراً ما تكون الإرادة منفعة بما يطرأ عليها ولا تكون هي الفعالة إلا إذا جاءت الحوادث بما يوافقها . فالمؤلف مبالغ في تقدير طول الزمن الذي يرسخ فيه المبدأ فيصير عقيدة موروثاً وجزءاً من أجزاء تلك الروح ، وهي مبالغة غير محمودة لأنها تقف المصلحين موقف الحذر الشديد . عند كل حركة جديدة وتصغر من قيمة الفرص الوقتية في حسابهم . لا سيما إذا علمنا كما يقول المؤلف أنه لا سبيل إلى تشخيص روح الأمة ومزاجها تشخيصاً يقطع الشك باليقين ، فيعتمد عليه السياسي دون الاعتماد على الفرص العارضة الوقتية ، وذلك واضح من غموض الفكرة في كتابه ومن إلمامه بها إنشأً لا يضبط دقائقها . حتى أن القارئ ليخرج من الكتاب وهو لا يدري الفارق بين روح الأمة الانجليزية والأمة الفرنسية مع أن هذا المبحث يكاد يكون موضوع الكتاب انذى جاهد المؤلف غاية الجهد لتبينه وتفصيله ، ولا ريب أن مثل هذه الفوارق التي لم يعتمد فيها المؤلف على الحس القريب لا يصح أن تكون أساساً للأحكام العريضة التي سجلها على أكبر مبادئ العصر بل على الدين الجديد في عرفه ونعني به الاشتراكية ، فإن كان الغرض من تقرير تلك الفكرة المهمة الإشارة إلى اختلاف الأمم في الأمزجة فذلك ما لا نزاع فيه . أما إن يرمى به إلى أبعد من ذلك فالحق يقال أن قدمي هذه الفكرة لا تحملانها إلى أبعد من تلك الغاية . إذ ليس في الكتاب ما يبين بياناً جازماً أن الحادث الذي يقع في هذه الأمة لن يقع مثله في أمة أخرى ، وليس فيه حجة دامغة تنفي القضايا التي قررها علم مقابلة التواريخ وأيد بها قول القائلين إن للأمم أطواراً تمر بها كل أمة حية ، وأنه إذا اختلفت الأزمان بعداً وقرباً فذلك لاختلاف المناسبات والطوارئ ، ولشيء قليل من تباين الأمزجة ، ولكن هذا التباين لا يمنع الأمة أن تعتنق كل رأى في حينها المقذور لها ، وإن كانت ربما دعت به غير ما يدعى به في الأمم الأخرى . تبعاً لاختلاف اللغات ، وتفاوت الأحوال والعادات .

فليس في مجلس انجلترا مثلاً حزب اشتراكي كحزب فرنسا الاشتراكي ولكن فيه حزباً للعمال . وكلا الحزبين غايته واحدة ومطالبه متشابهة وهي

والفضل . وهل ترى أن دعوتهم إلى تساوى الناس في الحقوق أمام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ؟؟ أليست هى أخرى أن تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التى يضعها فى طريق المنافسة استثثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستثثار ؟

يحق لأعداء المساواة أن ينكروا على دعائها كل الإنكار ، ويحق لهم أن يحتجوا عليهم بأن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة ، يحق لهم ذلك إذا كان دعاء المساواة فى شك من هذه الحقائق ، أو إذا كان قد قام منهم قائم مبنى العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف فى الجامعة أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس ، ولكننا نعلم أن داعياً كهذا لم يتم ولن يقوم لأن مديرى البيمارستانات لا يفرطون فى مثله إذا ظهر . وكل ما مبنى به الداعى إلى المساواة ذلك العامل الفقير أنه يكون متساوياً مع سائر الناس فى الأمن على حياته . وهل فى ذلك من ضمير ؟؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع إنساناً حق التمتع بثمره تفوقه فى المعارف أو المواهب العقلية على سواء فأى ضمير فيه ؟

يضم الدكتور هذا العصر بأنه عصر الجماعات وأنه يبيح الفرد الجاهل من الحقوق السياسية ما يبيحه المتعلم ، وأن صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبى فى إنابة النواب وانتخاب الحكام ... الى آخر ما يقول فى تنديده بروح الديمقراطية ، ولكنه ينسى أن التساوى فى أصوات الانتخاب ليس إلا تساوىً سورياً وأن لكل إنسان من الأصوات فى الواقع بقدر ما له من العقل والقدرة على إقناع سواء باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وكذلك يصبح أكبر الناس عقلاً واستعداداً للإقناع أكبرهم قسطاً فى سياسة بلاده . فإن كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الأصوات ويستخدم تلك الأصوات المتعددة فى غرض واحد ، فذلك ما يشكو منه الاشتراكيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون .

وهبنا أبطلنا اليوم مذهب المساواة . فمن يا ترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ما هو أهل له من الحقوق السياسية والأدبية ؟؟ أترانا نلجأ فى ذلك

من هذا غير هذا فليهدأ بالأقل ليس فى أمريكا ولا فى أوروبا ، لا بل ولا فى الدنيا بأجمعها اشتراكية .

أما فيها خلا وصف روح الأمة وشرح ما لهذه الروح من التأثير فى تكوينها ، فالكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية ، يخيل إليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول أو لويس السادس عشر ؛ وأنه يكتب عن الاشتراكية بإعزاز من روتشيلد أو روكفلر ، فتراه يعنى على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة ، وتراه يتشاهم من الاشتراكية كما يتشاهم الناس من نعيب اليوم . لا يعلمون لذلك التناؤم سبباً .

فمن أقواله عن المساواة : « غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الإنسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون فى الناس فكرة المساواة بين الأفراد وبين الشعوب » .

« خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت فى عقولهم ارتكازاً قويا وآتت كلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب فى اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها إلا الله » ثم يقول « إلا ان العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الأفراد والشعوب لا تزول إلا بتراكم المؤثرات جيلاً بعد جيل » . ثم يقول بعد ما تقدم : « ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى مجرب إلا وهو يعتقد الآن خطأ المذهب الخيالى أعنى مذهب المساواة الذى قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام فى القارة الأوربية ثورة ارتج الكون منها وأذكى فى القارة الاميركية نار حرب الأجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسية فى حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقل ما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم فى وجهه بمعارضة ما .. »

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة !!! على أن دعاء المساواة لم يشطوا فى مذهبهم ولا قالوا إن الناس طبعوا على غرار واحد فى العقل

دون أن يمزجوها بأحلامهم ويضيفوا إليها من تفسيراتهم وخطرات أوهاهمهم ماهى بريئة منه؟؟ فمن الظلم أن تعد هذه الأحلام أكثر من ظل للاشتراكية يقترون بها وبحماكيها ولكنه شيء آخر منفصل عنها . وقد تكون هذه الأحلام لازمة لها كما تلزم الأحلام كل نحلة ورأى ، ولكنه يجب أن لا يخلط في الحكم بينها وبين مبادئ الاشتراكية وقواعدها العملية . وهذه المبادئ والتواعد لا تدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوز والحقولقة ، لأنها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر . وكيف تدفع الحاجة إلى الاشتراكية بالسفسطة والمغالطة أو بالمنطق والبيئة وهى كما يقول الدكتور « سر لا يعرفه إلا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة » و « لا تأتى الأدلة التى تقنع به من طريق العقل » ؟؟

يقول بعض الكتاب كما يقول الدكتور إن الاشتراكية نذير الانحلال والضعف وأنها لا تنفوس فى الأمم إلا على وشك من إديار مجدها واختلال نظامها ونفاد ما فيها من قوة حيوية . وبين القائلين بما يقرب من هذا الرأى رجل يقتبس آراءه فى الاجتماع من أطوار التاريخ المصرى وهو العلامة « فلندرس بترى » الباحث الأثرى المشهور . فهذا العلامة قد استخلص من أبحاثه فى تقلبات الدول المصرية أن الدول تنشأ فى مبدأ ظهورها على يد فرد قوى مستبد ثم تنحدر منه إلى فئة من العلية والمقربين ثم تنحدر إلى الحكم الديمقراطي أو حكم الطبقات الوضيعة فيعتبرها من هنا الضعف فالسقوط فى قبضة مستبد جديد . وهكذا دواليك . وقد طار أعداء الاشتراكية فرحاً بهذه الشهادة وراحوا يقذفونها فى وجوه الاشتراكيين معتدلين ومتطرفين وحملوهم وزر اسقاط الدول والجناية على الحضارة . كأنما هذا الترتيب الذى استنبطه بترى - على فرض صحته - قاطع فى الدلالة على أن الاشتراكية أو الديمقراطية هى علة السقوط الذى يعترى الدول وأنها لا يجوز أن تكون عرضاً من أعراضه ونتيجة من نتائجه !! وكأنما يكفى مداواة ذلك السقوط أن تمحى الاشتراكية ويمحق الاشتراكيون ولا يجوز أن يكون الدواء الناجع مرتبطاً بدواء العلة الدفينة التى أطلعت الاشتراكية وأطلعت أعراض السقوط معاً ... وإذا كانت الاشتراكية

إلى الحكومة ؟ ذلك ما ياباه الدكتور لأنه يريد أن يقصر عمل الحكومة على الضرورى الذى لا يسع الأفراد القيام به . فأولى به وهذه إرادته أن لا يدعها تتدخل بين الناس حتى فى ترتيب أقدارهم وتمييز درجاتهم كأنما هم كلهم موظفون فى دواوينها - فلم يبق إذن إلا أن نترك الناس يدعى كل منهم من الحقوق ما يقدر على تحصيله بذراعه - ويمثل هذا النظام نشوب إلى الصواب ولا نكون قد تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لأننا « إذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها ، فما المساواة إلا بين المنحطين وهى مطمح آمال صعاليك العقول يحملون بها وهم بأحلامهم من التعساء » الخ الخ - أليس كذلك ؟؟

ذلك حديث صاحب الكتاب عن المساواة . أما الاشتراكية فهو كما يرى من الشذرات التى نقلناها عنه شديد الطيرة منها . وهو يمثلها تمثيلاً منوهاً . ويعمد إلى شر مذاهبها فيعرضه على القارئ فى حالة مشنوعة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بأنها ستؤدى بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط حيث يقول : « نعم لا حاجة لأن يكون الإنسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبئ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية يفضى بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط وأخرى صور الاستبداد » .

وتارة يعرضها لك كما تصورها أذهان الجهلاء النواهيين . فيسبق إلى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الأفيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين . فهى كما يقول الدكتور « تمثل فى ذهن النظرى الفرنساوى صورة جنة نساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة . وتمثل للعامل الألمانى حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير والكرنب المملح ودناناً من الجعة الخ » .

ولا يخلو كلام الدكتور من بعض الصواب ولكن أى مذهب من مذاهب الاجتماع أو دين من أديان الأمم سلم مما تعرضت له الاشتراكية من التحريف والتشويه ؟؟ وأى فكرة كبيرة أمكن أن تصل إلى أذهان العامة على حقيقتها

والتخفيف لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر إلى تعنت الطبقات الأخرى وتفاقم النزاع بينها على غير جدوى . ومن حق جميع الطبقات أن تنال كل حظها من المعيشة الصحية وأن يسوى بينها في فرص العمل التي تؤهلهم لها كفاءتهم الطبيعية ، ولا نذهب بالمساواة إلى أبعد من هذا الحد فإن كل مساواة لا ينظر فيها إلى الفوارق الطبيعية بين أخلاق الناس ومداركهم ومواهبهم المختلفة لا تكون عدلا ورحمة بل ظالماً وإجحافاً معكوساً مناقضاً لسنن الطبيعة .

إن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هي وعد خيالي يبشر الناس بالتعادل في الأقدار والتشاكل في المنازل والأرزاق . كلا ! فليست المساواة بين الناس من هبها ولكنها إنما تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله ، وأن ينتفع المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الأفراد .

فإن كانت الدنيا قد حم أجلها وكارب يومها لأن جاتعاً يريد أن يشبع ، ومنهوكاً يتمنى أن يستريح ومظلوماً يود لو ينتصف ، فلشد ما هزلت هذه الدنيا وضعف مزاجها وتبدل حالها بعد أن احتملت في ماضى العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ، وبعد أن صبرت على دسائس الدعاة وأكاذيب الدجالين !!

ومن العجيب أن الدكتور لويون لا يستقيح من أنظمتنا الحاضرة شيئاً إلا كان له دواء حسن أو علاج لا بأس به في الاشتراكية ، فإذا تجاوز هذا الدواء إلى غيره وقع في الحيرة والتضارب . مثال ذلك أنه يصف الدواء لنهوض الأمم المائلة إلى السقوط فيحيلها إلى النظام الجندى ويقول « فأهم الشروط التي تلزم لنهوض الأمم المائلة إلى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة » .

ويعتقد الدكتور أن الجندية سوف ترجع للرجل المتحضر رجولته واستقلاله وتشفيه من مرض الاشتراكية التي هي « فناء الفرد في الدولة » والتي « تفضي بالأمة إلى أخس درجات الاسترقاق وتقتل في نفوس من خضعوا لحكمها كل هبة وكل استقلال » ولكننا لا نخاله يجهل أن الرجل أضع ما يكون استقلالاً في

على هذا التقدير عرضاً للعلة وليست هي العلة نفسها فماذا يجدينا أن نمحوها ونكتم أفواه الداعين إليها وماذا في محوها من الدواء للانحلال والتدهور الذي لا مفر منه ؟؟ ألا يكون ذلك كمعالجة الجدرى بنزع قشور طفحه من ظاهر البشرة وترك جرثومته تسرى في الدم وترتع في باطن الجسم ولا من يلتفت إليها فيعمل عمل الجد على استئصال شأفتها أو تخفيف ضررها ؟؟ فإن كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الأصلية وإلا فلا معنى للقدح في الاشتراكية ولا فائدة من اضطهاد دعايتها .

والحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا يتفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون . ومن العلماء من لا يحسبون أنفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم وهم مع هذا ينسبون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم في بعض الحلول التي يقترحونها - ومن هؤلاء العلماء السير أوليفر لورج - رجل لا يتهم في هواء ولا في تفكيره من هذه الناحية ولا شبهة عليه من جانب الاشتراكية ولا من جانب أى حزب اجتماعى آخر ، ولكنه يقترح في فصل كتبه عن وظائف المال أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال كما تهتم بشخصية الحائزين للسلاح ، لأن المال ربما كان أخطر في يد الشرير من السلاح في يد القاتل ، وفي رأيه أن الثروات العظيمة خطر على المجتمع وأن هذه الثروات تكثر من جراء أنظمة مصنعة يمكن تبديلها وليست هي مما تقضى به طبيعة سير الأمور ، وأنه يجب أن يعاد النظر في قانون التوريث وأن ينقح . ويقول في فصل آخر عن « الاصطلاحات الاجتماعية » بعد التساؤل عن علة مصائبنا الحاضرة في ملكية الأرض : « ولا يسعى إلا القول بأن عادة السماح للأفراد بحق الملك المطلق على الأرض بدلاً من المجاميع هي أساس كثير من هذه المصاعب » وليس السير أوليفر لورج بالوحيد بين العلماء المخلصين الذين يصفون أدوية الاشتراكية ولا يدخلون في غمار أهلها .

فالواجب على ولاة الأمر في كل أمة أن يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن إصلاحها عصبية الطبقات ، لأن الكثير من هذه النقائص قابل للإصلاح

تطبيقها تبعاً للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ومن بينها علاقات الأفراد والأمم .

وهكذا كانت تدور دورتها فيما مضى :

كانت الأمم الغازية تفتتح البلاد فيستأثر قواد الجيش الفاتح وجنوده بأطيب الأرزاق ويميزون أنفسهم عن سائر الأمة بمزايا يحرسونها بالقوة ويذودون عنها بالسلاح . ثم تؤول هذه المزايا بالوراثة إلى أعقابهم فتصير حقوقاً ثابتة . ويحتمل هؤلاء الأعداء إلى الدعة والكسل جيلاً بعد جيل فيجنون ثمرة ما لا يزرعون . ويحشمون غيرهم مشقة السعي وهم نائمون . وتفسدهم البطالة فيتمادون في اللهو والخلاعة وينهالكون على المجون واللذة . ولا يزالون ذلك دأبهم حتى يضجر الناس منهم ويحنقوا عليهم . فتنقض عليهم في هذه الآونة جارة ترقب غفلتهم . فلا تصادف فيهم إلا سراة لاهين ورعية ساخطين .

كذلك ثار أرقاء الرومان على سادتهم . وكذلك ثار الفرنسيون على نيلانهم . فقال المؤرخون في الأولى عبيد تمردوا ، وقالوا في الثانية سوقة عربدوا - وما هي إلا الاشتراكية تبدو وتحفى في تاريخ الناس من حين إلى حين .

لسنا نحن في عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ؛ أو يستبد فيه شرفاء على سوقة . ولكن المسألة ظهرت في طورها الجديد وكان ظهورها في هذه المرة بين أصحاب الأموال وطوائف العمال .

ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة ، أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله . فكان التعب والحرمات من نصيب فريق والراحة والربح من نصيب الفريق الأقل ، فتجددت الشكوى القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليوم لتشهد خاتمة هذه المدنية وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة ؟

لا نظن ذلك - لأننا اليوم في مأمن من غارات القرون الأولى . ولأن العلم

الجندي ، وأن الجندي في الجيش ليس إلا آلة تتحرك بإشارة من القائد وليس لها أن تعرف إلى أين هي مسخرة ولا في أي غرض يسخرونها . فإن كان في الجندي شيء من الحشونة فليست كل حشونة تعد رجولة واستقلالاً ، ولا نخاله نسي أيضاً أن ألمانيا هي أكثر الأمم جندياً وهي كذلك أكثر الأمم اشتراكية فكيف اجتمع فيها هذان النقيضان المتباعدان في رأيه ؟؟

ويقول الدكتور في الفصل الرابع من الباب الأول : « أشار توكفيل إلى تدرج الفرق الذي نبحت فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره . فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه » .

وهي ملاحظة صادقة من توكفيل . إذ لا مرأى في أن النظام الاقتصادي الحاضر قد صير العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه . فبعد أن كان العامل يصنع الأداة وحده فيفرغ ذكائه في تجويدها ويتفنن في تكميلها وتحسينها .. إذا هو الآن يتناول الجزء الصغير من تلك الأداة فيصنعه بلا روية . ويجيء المهندس أو رئيس الصناع فيؤلف من تلك الأجزاء تلك الأداة على الوجه الذي رسمه . فإذا خرج الصانع من العمل لم ينتفع بصنعيته وعجز عن العمل على انفراد ففقد مزية الاستقلال .

وهذا النظام الاقتصادي المودى بالمواهب ، المعطل للعقول ، هو النظام الذي تنور عليه الاشتراكية . فما قامت الاشتراكية إلا لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب المعمل ، وتجعله إنساناً ذا رغبة في عمله وغيره عليه . وليس كما هو الآن آلة تدير آلة . وخير للدكتور أن يفتش عن الاستقلال الذي يريده للفرد في مبادئ الاشتراكية من أن يفتش عنه في تكئات الجنود

والاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديمة ظهرت في كل مكان يحرم فيه العامل ويغتم العاقل ، وتطور هذا العصر في فهمها وتوسع في

بالآداب والفتون . ففرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك أفقدها الإرادة .
ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية
دون سواها .

وقد تكلم ماكس نوردو في كتابه المتقدم عن هذا الخلق الذى دعاه الدكتور
لوبون عبادة المنافع الذاتية . ومن رأيه أنه ناشئ عن أمر اض الاضمحلال التى
المعنا إليها وأنه شعبة من جنون الأنانية Egomania ، ونقول إن حب الذات ينشأ
عن ضعف حاسة الواجب وهو مرض من الأمراض العقلية . ولكن يزيده
إعضالاً تأكد الناس من فقدان التوازن بين حقوق العاملين وواجباتهم ، فيرون
كيف يثرى الوسيط ويعدم التاجر ، وكيف يكرم القواد الوضع وهن العامل
الأمين ، وكيف أن الكسب المباح يحسب بالدائق والسحتوت وأن ربح الاحتيال
يعد بالدنانير واليدر ، ومتى رأوا ذلك فأى أمل لهم فى الاعتراف بما لهم من
حقوق ، وأى باعث عندهم على القيام بما عليهم من واجبات ؟؟ وكيف بعد ذلك
لا تغلب عبادة المنافع الذاتية على روح الواجب وصوت الضمير ؟؟

لا أمل فى الخلاص من السوات إلا إذا ساد اعتقاد الناس بتضامن
الإنسانية . وأيقن كل فرد على حقوقه حارساً من أمته ، وأنه موضع عناية
الإنسانية أجمع . بذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب . وإلا فلو
ظن الإنسان أنه ليس ثمت ضمير عام يؤنب الناس كافة على ما يجل به من
الغبين والأذى . وأنه لا حق له فى الرحمة أينما يم وجهه . فقد مات ضميره
وغلبه الحرص فتعلق بالجنس ونبت المبادئ والنضائل ، إلا ما وافق منها هواه .
وفشت فوضى الأخلاق فارتفعت الحدود واندثرت معالم الشرائع ، إلا فى الدفاتر
والأوراق .

يقول الدكتور لوبون : « اليوم تميل الأمم القديمة إلى السقوط فهى تهتز من
الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً أثر واحد وعلّة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من
إيمانها الذى قامت عليه حتى الآن فإذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة
جديدة مؤسسة على معتقد جديد » .

نعم فلا بد للأمم من معتقد جديد . أفندرى ما هو هذا المعتقد ؟؟ نحسبه هو

والنظام قد أصبحا فى هذه العصور ملكاً للإنسانية عامة وليساً من خواص أمة
يذهبان بذهابها .

وإذا صح رأى نوردو فى كتابه التأخر والاضمحلال Degeneration فهذا
الضعف الذى استولى على الجيل الحاضر أثر من آثار النظام الاقتصادى ، فلقد
أفرط الناس فى إجهاد أبدانهم إفراطاً حط من قواهم وأتلف أعصابهم . وكلما
أحسوا بالضعف انكبوا على المنبهات من خمر وحشيش وتبغ وقهوة إلى أشباه
ذلك فزادتهم ضعفاً على ضعف . ولو أنقصت ساعات العمل قليلاً وزيدت
الأجور زيادة تمكّن العامل من تعويض خسارته اليومية بالطعام وأسباب
الراحة ، لكانت الاشتراكية قد أنقذت الجيل القادم من غوائل هذا
الاضمحلال . وبهذا الرأى - أى رأى نوردو - يسهل تعليل قول الدكتور فى
ختام الفصل الأول من الباب الثانى إذ يقول « فالأمم تموت متى ضعفت صفات
خلقها التى هى نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الأمة
من الحضارة والذكاء » إذ لا تخفى علاقة بعض أنواع الضعف العصبى
بالذكاء .

قال عبد الله بن معاوية « ما رأيت تبيذيراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع »
وغيره أن يهتدى كاتب من كتاب القرن الثانى الهجرى إلى هذه الحكمة
الجامعة . ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم أن يتخذ لمذهبه شعاراً لما زاد
على تلك الحكمة حرفاً . فالاشتراكية الصحيحة تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق
المضيع ، ولا مطمع لها فى العدوان على إنسان .

يتذمر الدكتور لوبون تارة من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة
ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة إلى حب الذات « ويأسف حيناً
لتلك الحقائق القاسية التى « جلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار
التي يمتاز بها المرء فى هذا الزمان . وغيّرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة

لا يفوتنا بعد أن نقدنا ما خلنا فيه شيئاً من الغلو من آراء الدكتور لوبون أن نعرض لما في كتاب (سر تطور الأمم) من الآراء الصائبة القوية الحقيقية بإنعام النظر وطول التدبر . ونقول على وجه الإجمال أن المؤلف لو أخلاه من الأحكام والنتائج وقصره على الملاحظات والآراء لما كان نيه مأخذ ينتقد . فإنه لا العلم ولا الفن ولا الأدب جمع حتى الساعة الأدلة والمقدمات التي تكفي لإصدار تلك الأحكام المبرمة والنتائج المحتمة .

ومن تلك الملاحظات والآراء ما يهمننا نحن المصريين لأنه ينطبق على حالتنا تمام الانطباق .

فيظهر أننا لا نفهم بعد معنى الوطن حق الفهم . قال الدكتور « كان وجود الروح أولاً في العائلة ثم انتشر منها في القرية ثم في المدينة ثم في الإقليم ولم يعد جميع السكان إلا في أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا في هذا العصر لأنها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الإغريق إلى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدانهم في حرب مستمرة لأن كل واحدة منها كانت أجنبية في الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ أثنى عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الأجنبي تقوم فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة » .

وذلك شبيه بمعنى الوطنية في مصر ، فإنها لا تعرف غير وحدة القرية ، وما أظن هناك أن أمة غير الأمة المصرية تقام فيها المناحات لسفر قريب أو صديق من إقليم إلى إقليم يجاوره ويقسم فيها الرجل بغريته وهو في عاصمة وطنه . ولا أحسب أن لهذه الحالة دواء أنجع من نشر الكتابة والقراءة وذبوع الأدب المصري بين قراء المصريين في كل قرية ومدينة .

المصريون لا يكاد يؤلف بينهم شيء من المشاعر . ويكاد يكون أبناء النيل اثني عشر مليون فرد ولا أمة . ولا ريب أن ذلك إنما نجم عن اختلاط العناصر وتوالى الأمم الفاتحة كما أنه يعزى إلى سوء فهم الوطنية الذي قدمنا ذكره . ومن الحكمة استحياء أشد العصبية أخذاً بقلوب هذه الشراذم المبددة . ولا فرق

وحدة الإخاء أو هو التضامن الإنساني أو هو - في بعض مظاهره التي يفهمها سواد الناس - الاشتراكية .

ذلك أنك إذا زرعت في قلب الانسان ثقته بعطف الإنسانية أكبرته في عين نفسه ومسحت عن قلبه ذلة المخلوق الذي نبذته الساء ولم تعبأ به الطبيعة إلا كما تعبأ بأحقر المخلوقات .

وينبغي أن يعتقد الانسان أنه يعمل للإنسانية لا ابتغاء الثوبة أو خوفاً من العقوبة ولكن مسوقاً بحرض من غرائزه التي لا طاقة له بالخروج عنها . فإذا عمت هذه العقيدة رضى كل إنسان بحظه ولم يطلب الجزاء على عاطفته التوسعية في غير إرضاء تلك العاطفة ومطواعتها تيبها توحى به .

للإنسانية اليوم حاسة تسمى « الضمير العام » ولكنها ضيقة الحدود لا يهتمى بها في كل أمة غير أبناء تلك الأمة . وقد أشار الدكتور إلى ذلك في قوله « إنك لا تجد بين ساسة الإنجليز واحداً لا يرى جواز استعمال أمور في جانب أمة أجنبية لو أنها في بلاده لأنزلت به السخط من كل ناحية » والحقيقة أن ذلك دأب ساسة الأمم كلها وليس الإنجليز وحدهم . بيد أننا نرى حدود ذلك الحرم تمتد يوماً بعد يوم حتى يوشك أن يشمل كل أمة جديدة بالدخول في لحمة الأخوة العامة . وكذلك كانت عهود الأخلاق في مبدأ أمرها ، فإنها لم تكن مرعية إلا في حق أبناء القبيلة وحدهم . قال دارون في كتابه أصل الإنسان « ولكنها - أي أصول الأخلاق - لم تكن معتبرة إلا فيما بين أبناء كل قبيلة على حدتها وكانوا لا يعدون مخالفتها في حق أبناء القبائل الغربية جريمة مستنكرة . ثم ما زالت هذه الأصول تنداح من نطاق إلى نطاق أوسع منه حتى شملت أبناء الجنس الواحد ثم شملت أبناء كل دين على تباين أجناسهم ثم أصبح الناس يسلمون بها نظرياً في حق نوع الإنسان بأسره ، وإن خالفوها عملاً . وهم سائرون في طريق الوحدة ، والطبيعة تقوم بعملها لهذه الغاية فتقرض الشعوب الذابلة ولا تندر منها إلا ما هو أهل للرعاية والبقاء - تمهيداً لوحدة الإنسانية وشمول أحكام الضمير العام » .

فانغمست فيها وقصرت عقولنا عن إدراك معانيها فحيل بيننا وبينها . ولا يخفى أن اقتباس ظواهر المدنية سهل على من يريده لا يكلفه قسماً كبيراً من الدراية والزرايا النفسية . فلو أنك حملت زنبقاً حقيراً إلى باريس لتمتع بكل رذائلها في أسبوع واحد ، ولكنه لن يقدر على التمتع بعراقها وأدابها ولو طال عمره . لأن الفرق في الحواس قريب بين أرفع الناس وأحطهم ولكنه بعيد جداً في العقول والسجاي .

فمنح اليوم نعب من إباحية المدنية الأوروبية ومكراتها .. ولا تذوق قطرة من عظمتها وطيباتها . وما كنا لنتنظر أن نجنى ثمرة المدنية بغير شوكها . فإن المدنية شباب الإنسانية . وفي سن الشباب تولد الشهوات كما تنتفخ القزوي وتنمو المدارك . ، ليست طهارة الفطرة إلا كطهارة الفطرة التي لا تائب لأنها فارغة من الشهوات كما أنها فارغة من القزوي والمدارك . ولكن الرزينة أن نضج سلامة الفطرة ولا ينبغ رقى المدنية ، وذلك ما نوثق أن نضمنه .

ولقد أصاب الدكتور لوبون كل الإصابة إذ يقول : « الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبني الممالك وهو الذي يجعل الأمم تحس وتعمل وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذنان والتمتع في التفكير » .

أى والله . فإن الإنسان يفرانزه . وإن الحياة يغيرها ورشها لا شيء إذا نظرنا إليها من ناحية الطبع ولكنها من ناحية الغرائز كل شيء . بل لا شيء سواها . وليست الفضيضة ما سلم به الإنسان بتعطيل عقله ولكن الفضيضة ما نشأ عليها وتضمنه طبعه وزجلته إليه فطرته .

فلنكن عنايتنا بالأخلاق فوق عنايتنا بالمعلوم . ولتضافر على هذا العمل المدارس والمحاكم والكتب . وما يهون الأمر أن الاصابة محصورة في طائفة قليلة من نائبة المدن ، فإذا وقت الأمة من عدواها كان الأمل في الجيل القادم وبقياً . ولا تنكر أن الأمر يلزمه شيء غير يسير من التضحية والمفاداة . ولا بد له من قادة من عظماء الأخلاق والنفوس يتقون في وجه أهل الفساد ولا يياسون من

بين أن تكون عصبية مصالحة أو عصبية تاريخية أو عصبية وطنية^{١١} مادامت تقضى إلى لم شمشهم وتوجه نفوسهم إلى وجهة واحدة .

ومن عيوب الأمة المصرية فقدان التخصص وشدة التعارب بين الصانع والصانع وهو نقص بين « فإن مستوى العقل - كما يقول الدكتور - يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الأمم الدنيا ذكورا وإناثا .. وأما عند الأمم الراقية فالتفاعة هي اختلاف الأفراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً » .

وقد نرى أن للمصنوعة دخلاً في هذا النقص . فإن الزراعة في البلاد المخصصة لا تبعث الحاجة إلى المنافسة كما تبعثها الصناعة . والمنافسة هي باب التفاروت والتبوع في الحرف والصنوعات . ولن يطول الزمن حتى تضطر الأمة إلى الصناعة لأن الزراعة لا تقوم في هذه الأيام بطلب الناس . وربما رجعت شيء من إحصام الأغنياء عن فتح باب المنافسة بإشياء الصانع وتبادل النفع مع الأمة إلى احتفاظهم حتى اليوم بخلقهم الغربية عن البلد فقد ظل أكثرهم إلى زمن غير بعيد ينظر إلى القطر المصري نظرة أنهاجر إلى هجرته ، ويعامل المصريين معاملة الأجانب عنه . وكان أهل الثروة من أبناء النيل في الجيل الماضي أقل شأنًا من أن يستقلوا بعمل وأجهل من أن يقدموا على غير الزراعة . ولما أصبحت تزدى سراً مصر يستوطنونها ويولون وجوههم صوبها وترتبط مصالحتهم بمصالحها فلا يبعد أن يكون شأنهم في المستقبل غير شأنهم في الماضي ولا سياتق عمت الوطنية سكان مصر على السواء وقد من أبنائها كل من يتفهم ويتفجع فيها من الوطنيين والنزلاء . فإن مصر بحاجة إلى تألف الأغراض ألفة تشبه ما يعوزها من وحدة الشاعر .

ولا تنسى الأخلاق . فقد لحقت كل أضرار المدنية الغربية ولما نصل إلى شيء كثير من مزاياها . ولا جرم فقد سهل على حواسنا أن تترك ملذاتها

(١) وجدت هذه العصبية القوية والمحمد له في الحركة الوطنية المدنية التي بدأت ظواهرها على أثر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

الفضائل الجنسية

كانت صحيحة القرن الثامن عشر بتحكيم العقل صحيحة قوية عاتية. (1) صاح بها فاقتلع من الجهالة أوتاداً ، ودك من العقائد أطراداً ، واجتراف دعائم وسدوداً ، وأزال معالم وحدوداً ، ثم غير من ذلك ما غير وأبقى ما أبقى فأحسن كثيراً ، وأساء كثيراً .

أحسن بما أزاح من طريق الإنسانية من ركام دارس كان يعتاق خطاها ويضل بصيرتها فخلا ما بينها وبين الفضاء ، واتسع لما سنن الهداية لو أحسنت إليه الاهتداء .

أساء بما هدم من قواعد راسخة ، واجتاح من حوائط شامخة . ظننا القوم عراقيل فألقوها فيما بعد حصوناً ، وحسبوا من عبث الخرافة فعملوا أنها من تدبير الحكمة ، ثم عادوا يبنونها من جديد بعد جهد بذلوه في الهدم والبناء كانوا هم في أشد الحاجة إليه .

والفضائل الجنسية أول ما أصابه معول الهدم من دعاة ذلك القرن الكثير المعاول . فقد ولع بها أذعياؤه . ومجانة يعرضونها لتهمهم الأبله وضحكاتهم الخرقاء ؛ فظنوها من عسف رجال الدين وبقايا النيود الأولى ، وجعلوا يعجبون من الرجل الحر المستنير العقل كيف تقف بينه وبين تسويل نفسه ورقة يكتبها قسيس أو موثق يتعارف عليه القوم بلا مسوغ من الفكر ، ولم يروا لتلك الفضائل أصلاً أبعد من العرف وأقوى من سيطرة الكنيسة ، سخروا منها واستخفوا بها . ثم وجدوا مسلك الإباحة سهلاً وطيباً فأوغلوا فيه وهم يزعمون أنهم في وجهة العقل يوغلون وعن وجهة الوهم والجهالة يصدفون . فكأنما المؤتم

(١) نشرت في العدد الحادي عشر من الرجاء .

إصرارهم ، فانهم على التفاهم لتسرح فيهم كلمة الحق كما تسرح شرارة النار في ألفاف الأجمة اليابسة .

يقول الدكتور لويون « إن الفارق بين الأوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العطاء دون هؤلاء » .

كلا . بل لكل نصيبه من العطاء . فللغرب عطاء العقول وللشرق عطاء النفوس . وما أحوج الشرق اليوم إلى عظيم من أولئك العطاء الذين كان يوجد بهم أحياناً . فيقوم من أوده . ويعزز من أيده . ويأخذ في طريق الحياة بيده ؟؟

مصونة في أهلها؟؟ قوامها وضمانها هو العفة . ومعناها الترفع عن العلاقات التي لا تجمل بمزايا صاحبها .

فليس أدل على اضمحلال أمة أو على قرب اضمحلالها من سهولة الشروط « الفطرية » التي تبنى عليها العلاقات بين الجنسين وشيوعها في جميع الناس على السواء . فالرجل الذي لا يتخير لعاطفته الجنسية يقول بأصدق لسان ينطق به - لأنه لسان كل ذرة من ذرات جسمه - أنه أب حقير لا خير للعالم في نسله ولا موجب للتمييز والتدقيق في ذريته . ولا يصدق هذا على الهمج والزعانف وحدهم ولا على الذين لا يشك في ضعة شأنهم وضعة شأن أبنائهم من باب أولى ، ولكنه يصدق عليهم كما يصدق على أناس غيرهم ممن تبونهم الأمم مكاناً علياً وتحتفي بهم وبأسمائهم وأعمالهم وتحسبهم خلقاً أن يكونوا أحسن الآباء لأحسن الأبناء ، وهم على خلاف ذلك في الحقيقة . أولئك الذين ينخدع فيهم الناس ، والطبيعة بهم أعرف وأخبر ، ويضل فيهم حكم العقل ، والغريزة عليهم أدل وأظهر ، وربما شوهد بين المستخفين بالعفة أفاذ من ذوى العبقرية أو المعرفة أو اللسان أو الشهرة يبهرون الناس بمواهبهم فيخالونهم أهلاً لأكمل الأبوة وأنجب البنوة وينتظرون منهم أحسن الأزواج وأفضل الأصهار ، حتى إذا تركوا لأهوانهم ثم فعلهم على مقدار استحقات ذريتهم للاشتراط والانتقاء ، وأظهرت التجارب أنهم عقفاء أو كالعقفاء ، فيما يرزقون من ولد ضاوى وخلف ضعفاء .

وعلى الجملة فكل عيب مها خفى في تكوين الإنسان فله محك من هذه الشروط التي تتقيد بها ميوله الجنسية . فإذا كان عيبه هبوطاً في مستوى الأمة ظهر في إباحية الحمقى وتساوى النساء عنده وإن اشتد أسره وتوثقت بنيته . وإذا كان شذوذه في الخلق ظهر في غواية ذلك الشاذ وإن أتى شذوذه بالفلق المعجز في معارضة الفنون والآداب . وإذا كان نقصاً في التكوين ظهر في إسراف الفتى الغر الذي لم تنضج ميوله ولم يكمل استعدادده وإن سلم من عيبى التأخر والشذوذ . وإذا كان فساداً في مزاج الأمم ظهر في تهالك أبنائها على الرذيلة وإن ظفروا من الحضارة بأوفى نصيب . وليس لواحد من هؤلاء نسل

بالعقل عندهم هو كل من لا يزعجه من نفسه وازع ، وكأنما الواهم أو الجاهل عندهم هو كل من له خلق ينهأ أو عقيدة تكبح جماح هواه .

ولا أشك في أنهم مصيبون في بعض الشيء ، على ما يشين صوابهم من العجلة وقصور النظر وخفة الأحلام . فهم مصيبون في قولهم أن الفضائل الإنسانية يجب أن لا يكون معولها كله على ورقة مكتوبة أو أمر يمليه واعظ باسم خالق أو مخلوق ، ومن الزرابة بالإنسانية حقاً أن يكون التمايز بين فاضلها ومفضولها تمايزاً في باب الخضوع والتسليم الأعمى ، وإنما يليق بالإنسانية أن يكون رجحانه رجحاناً في خصائص النفس والفكر فإن لم يكن كذلك ففى خصائص الخلق والجسد ، وهكذا يجب أن تكون الميزة بين كل صاحب فضيلة وكل صاحب رذيلة . فهل الشأن غير ذلك في الفضائل الجنسية؟؟

لست أعتقد ذلك . ولكنى أعتقد أن الفرق بين الناس في الأهواء الجنسية لم ينجم عن فرق في الانخداع للوهم أو التمرد على القيود ولكنه نجم عن فرق في مناعة النفس ووثاقة الخلق وفي الصلاحية للأبوة وبقاء الذرية ، بحيث يمكن أن يقال - بل يقال على التحقيق - إن الفضائل الجنسية الصحيحة كانت في أول نشأتها مزايا جسدية فزيولوجية قبل أن تكون مزايا أدبية أو دينية .

فالذى نراه أن لكل من الجنسين شروطاً معلومة ، أو مجهولة ، يشترطها في الجنس الآخر حتى يتم بينها الحب والتألف ، وأن هذه الشروط هي بمثابة التعاقد الفطرى على المزايا الضرورية للغاية التي تعنيها معاً ، وهى إنجاب أوفى النسل وأمثله .

وكلما تعددت هذه الشروط كان تعددها في الأمة عنواناً على ترقيتها ونضجها ووفرة مزاياها ووصولها من التقدم إلى منزلة يرضن بها على الضياع ويرجى البناء . من بعدها . فلا يجيء نسلهم اعتباراً بلا احتراس ولا اعتصام كفعل الذين يعتقدون في قرارة غرائزهم ويشعرون من دخيلة أنفسهم بأن كل نسل لائق بهم ، وأنهم بفطرتهم لا يأفنون من أن يكونوا آباء لأى صنف من الأبناء .

وأى قوام لتلك المزايا في أخلاق أصحابها المحسوسة ؟ وأى ضمان لبقائها

مصطفى كمال

بطل الشرق ورجل الساعة

رجل وثيق الإيمان^(١) ، نقي الإخلاص ، محصد العزيمة ، حازم في مشتجر الفكر ، ناضج الرأي ، مجبول على الكفاح ، عزيز الأمل ، قيضه الله لوطنه في محنة مطبقة قاتلة تهرى إلى مثلها الأوطان فنصره نصراً مؤزراً قل أن يذكر التاريخ مثله . وكان جهاده الوطني كله أعجوبة بل معجزة لو كان في نظام الوجود خوارق للعادات لقلنا إنها من خوارق الطبيعة .

وللذين يتحدثون اليوم بنصر مصطفى كمال - والعالم من مشاركته إلى مغاربه يتحدث به - أن يسألوا سؤال المعجب من توقف الحوادث الخطيرة بعض الأحيان على صغار الصدف : ما الذي كانت تؤول إليه حركة الأناضول لو لم يغفل الانجليز عن مصطفى كمال عند احتلال الآستانة فلا يعتقلوه مع من اعتقلوا من رجال الترك الذين كانوا يخشون صولتهم ويحترزون من ترمدهم وانتقاضهم ؟؟ وما الذي كانت تؤول إليه هذه الحركة لو لم يهف فريد باشا على كره منه هذه الهفوة السعيدة التي ملكت مصطفى ناصية الأناضول وألقت في يديه مقاليد مستقبله ؟؟ وكيف كانت تنقلب الحوادث لو لم يأمنه على قيادة جيش في قلب ذلك الوطن القديم الذي نشأت فيه دولة بني عثمان وما استمدت جيوشهم القوة إلا منه ، فيطلقه من الآستانة في الساعة التي كان يصبو فيها إلى الابتعاد عنها ، ويخلى بينه وبين ميدان العمل الفسيح كمن يبحث عن حفته بظلفه ؟؟ ونظن أن الفضل في ذلك راجع إلى صفة في مصطفى كمال هي سر عظمتها كلها ، وهي « اكتمال جوانب العقل » ، فهذه الصفة جنحت به إلى إثار العمل

(١) الأفكار ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

يستحق أن يبالي بالتمهيد والحرص عليه . فهم سواسية في طلاقة الميول الجنسية من القيود ، سواسية في كفاءة الأبوة ، سواسية في نقص المزاج على تباينهم في الأجناس والأذواق والأعمار .

فحيثما برز في الرجل أو المرأة امتياز يتلاشى إن لم ينتقل بالوراثة برز بإزائه شرط أدبي لضبط العلاقات الجنسية ، يترتب عليه بقاء ذلك الامتياز عقياً بعد عقب ويتبعه حتماً الإحجام عن بعض هذه العلاقات والرغبة في بعضها ، وحيثما امتنع الإحجام انعكست الآية وصارت الرغبة بلا ضابط دليلاً على أن ليس في الفرد أو الأمة امتياز ينقل بالوراثة ، وقديماً كان شيوع الرذيلة في بلد مؤذناً بانقراض الدولة وضياع الشوكة ومرادفاً لقول الأمة بلسان حالها : إن جيلها المقبل همل لا يعتنى به ولا تصان حوزته .

على هذا ليس الاستعصام كما يزعم بعض المتفلسفة من الاباحيين تحكماً فضولياً من وضاع العرف والشريعة . ولكنه أصل في خلقة الجسم يعاب فقدانه وينطوى على مغازى كثيرة : أقربها في الفرد أن له خلقاً مكيناً قادراً على صد ميوله والقبض على عنان أهوائه ، وأقربها في الأمة أن لها مستقبلاً نامياً وخصائص لا تبذل جزافاً . والذين يقولون أنهم حكموا العقل فحكم لهم بنيد الفضائل الجنسية يظلمون العقل ويقولون عليه ما لم يقله ولن يقوله . لأنه لا يحكم العقل من لا يحصى جميع العوامل المختلفة ويدخل في تقديره حساب كل قوة مؤثرة في قضيته ، ومن العوامل المسيطرة على الحياة الإنسانية ما يجهد العقل ولا يفقه من مراميه إلا قليلاً . كالفرائز مثلاً . فالذي يريد أن يخضع الناس لسيلطان العقل دون سواه لا يهمل الفرائز وحدها ولكنه يكون أشد من ذلك إهمالاً للعقل نفسه ، وهو يظن أنه باسم العقل يدعو ويدين العقل يدين .

به ، لظنهم أنه من أبعد الناس عن إدراك الواقع وسبر غور الحقائق ، وروى هو ذلك عن نفسه في حديث نقل عنه فقال : « كنت كثيراً ما أرفع الاقتراحات النافعة والانتقادات المفيدة لإصلاح شأن الجيش . فكان ذلك من الأسباب الجوهرية في حقد بعض القواد القدماء على . وتد ذهب بهم قولهم أنني أقرب إلى النظريين متى إلى العمليين » . وكذلك يعدون كل رأى لا يفهمونه حلماً أو وهمًا ولو كان في اعتقاد صاحبه من المحسوسات المتحجرة .

واكتمال الجوانب العقلية في مصطفى كمال ظاهر من تعدد ميوله ومواهبه وتيقظ الأذواق المختلفة في نفسه . فهو مع ميله إلى الرياضيات مولع بالأدب والشعر ، ومع براعته في فن الحرب حسن الدراية بالسياسة ينفذ بنظر منه ناقب في خلال شبانها المعقدة ومعضلاتها الملتوية ، ومع صلابته وإصراره يأخذ بالرأى النافع إذا اقتنع بصوابه وأصالته ، ومع شطفه وشدة طبعه واعتياده الجلد والحشونة في معيشته لا يحرم نفسه جمال الطبيعة ولذة الأُنس بخلائقها اللطيفة ، من طير صادق وزهر نافع ومحاسن لا تلج إلى النفس إلا من أسلس مداخلها وأجل نواحيها ، ومع إحاطته بحقائق الحياة ونقائص الطباع البشرية وثاب الأمل يخيل إليك أنه مسلوب الروية عازب اللب إذا نظرت إلى مرمى بصره ومطامح قلبه .

وليس على شخصية هذا البطل حجاب غامض أو سر من الأسرار كما يغلب على كثير من عظماء الرجال . فأنت تسمع بأعماله فتعرف من هو ويفنيك ظاهرها عن باطنها وأثار الرجل المسموعة عن ترجمته المجهولة . وكذلك عرفناه حين سمعنا بمآثره . عرفنا أن الرجل الذي يجمع من الفلول الببدة جيشاً منظماً خطيراً لا بد أن يكون قائداً قديراً . وأن الرجل الذي ينشئ من الفوضى حكومة دستورية يستخرج لها الثروة من بلاد محصورة محتاجة لا بد أن يكون إدارياً خبيراً . وأن الرجل الذي يبرم المعاهدات ويعقد الاتفاقات ناظراً في ذلك إلى مصالح بلاده وعلاقاتها بأمر الشرق والغرب لا بد أن يكون سياسياً حازماً .. وأن الرجل الذي تأبى عليه حميته مطاوعة التيار الطاغى فيجازف بمفاضبة سلطانه وأكبر دول أوروبا من ورائه لا بد أن يكون وطنياً مخلصاً . وأن الرجل

المنظم القائم على أوطد الأساس وأبعد الغايات . فليس هو رجل القحم والقلاقل ولا يبطل الفتن والنزوات . ولو كان كغيره من المتهجمين القوالين الذين تغلب القوة المرتعدة على جانب واحد من جوانب عقولهم ونفوسهم فيندفعون في كل نائرة ولا يزنون الأمور بميزان الحكمة وصدق النظر لسمع الإنجليز من أبناء هجماته وشططه ما خوفهم بأسه ، ولكان عندهم حينئذ الرجل « الخطر » الذي يهرب شره وتخشى بوادره ولجسوه مع من حبسوا فأضاعوا عليه فرصة هي فرصة الحياة لرجل عظيم ولأمة مسنبلة . وربما انقضى بذلك تاريخ هذا المجاهد الكبير وخسر الشرق بطلاً من أجل أبطاله القدماء والمحدثين . ولكنهم جهلوا موضع « الخطر » الصحيح فأطلقوه ولم يحذروه ، لأنه مسالم موادع ، ولو دروا لأطلقوا كل معتقل واعتقلوه . على أنه حظ للترك جاءهم من طريق المصادفة ، وما يعلم أحد كيف كانوا يعوضون عنه لو فقدوه .

ولعل هذه الصفة التي طبقت المخافقين بذكر بطل الأناضول هي نفسها سبب خوله وخفاء قدره في إبان القلاقل والطوارق التي كانت تجري على أيدي المشهورين من رجال تركيا الفتاة وجماعة الاتحاد والترقي . مع أنه كان من أوائل المنشئين لجماعتهم ومن أخلصهم نية وأسماهم مطلباً وأشدهم عزماً ، ولكنه كان لا يتهجم ولا تستخف حلمه الراجح صفائر الأمور ولا يمزج بنفسه في أعمال مقتضية لا يلم بأطرافها وخواتيمها ومواقع الحزم والتدبير فيها . فلذلك خمل ونهبوا وتأخر وتقدموا وتريث وتعجلوا وكانت له في آخر الأمر الفرصة العليا لحسن حظ بلاده . ومن غرائب جهل الناس بحقائق النوايغ الذين يعيشون بين ظهرانيهم أن هذا الرجل الذي كدنا نحسبه من (العمليين) الخالين من صفات النظر والخيال كان عند رؤسائه يعد من الحالمين بتابع الخيالات حتى بعد الثورة الرجعية التي أثارها عبد الحميد على الدستور في سنة ١٩٠٨ . وفي ذلك العهد كان مصطفى كمال قد ناهز الثلاثين وأوفى على سن أتم فيها كثير من العطاء خيار أعمالهم .

ولكنه كان يقترح الرأى البعيد وينظر النظر السديد فيهمولونه ولا يعباون

مصطفى كمال وتقدير شخصيته النبيلة أن تعقد المفاضلة بينه وبين نابليون في أساليب القتال والمعرفة بفنون تعبئة الجيوش ورسم الخطط وابتداع الحيل ، فهذا خارج عن بحثنا وليس هو مما يتيسر لنا ولا مما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإبانة عن شخصية الرجل وعظم نفسه، ولكننا نقول إن مصطفى كمالاً لا يحسر شيئاً في أى مفاضلة تعقد بينه وبين نابليون من وجهة الصفات النفسية والعظمة الخلقية . بل إنه يبرح كثيراً ويرجح عليه رجحاناً ظاهراً .

إن نابليون خان بلده (كورسيكا) وخذله في النزاع الذى كان قائماً بينه وبين فرنسا . ولما شرع في فتوحاته وبغازيه ألقى أمامه روح الثورة تكاد تلتهم الدنيا وحيوية الشعب الفرنسى تنزى للبرص والعمل . فاستغلها أسوأ استغلال رآخذ منها وسيلة لإشباع نهمته وتشديد مجده وتأثيل ملكه . ولم يات منه النافع إلا عفواً أو على سبيل الاضطرار .

أما مصطفى كمال فماذا استغل من الفرص ، وأى أمل كان أمامه يغيره بالعمل ساعة شمر لتلك الغاية البعيدة التى تكل عنها الهمم وتطلع دونها الآمال ؟؟ إنه استغل الضعف والفوضى والفقر ودسائس الخونة فى داخل بلاده قبل دسائس الأعداء فى خارجها . إنه استغل الهزيمة الفاضحة فاستخرج منها فوزاً باهراً ومجداً سامقاً . ولكنه فوز لقومه لا لنفسه ، ومجد دولة لا بمجد زعيم ، لم يصبه منها إلا ما لا يد منه من فخر يعود على صاحب العمل الصالح الضخم . أراد أم لم يرد ، وسعى للوصول إليه أم سعى للتخلص منه .

وهذا الرجل على اهتزاز الشرق كله وجل أوروبا بقوة حركته لا يعرف الصخب ولا الخيلاء وقل أن يرى فى أوقات فراغه إلا ساكناً صامتاً . توالى عليه كما تقول الأميرة قدرية « عوامل الإخفاق وخيبة الأمل والمرارة اللازمية وأحوال شتى تركت لها أثراً بيننا فى حياته وإن لم تكن قد غمرتها برمتها فصارت عاملاً مهماً فى تكوين خلانقه » على أنه قد يتسم فيريك الحديد يفتر فجأة عن الورد كما يقول كلودفاريير ، وربما شبهه بعضهم بالنمر كما يقول مكاتب اللستراسيون وحسبهم المكاتب مصيبين: فى هذا التشبيه « إلا أن ابتسامات كابتسامات الأطفال تغير أحياناً ذلك الوجه وتكسبه عذوبة مدهشة » وهذه

الذى يقف ساعات فى مجلس الأمة يبسط الخطط ويسوغ التدابير لا يد أن يكون خطيباً مبيئاً . وأن الرجل الذى تسبق حكومته الأمم الأوروبية إلى اتخاذ الوزراء من النساء لا بد أن يكون مستنير الذهن بصيراً بعوامل التأثير فى نفوس الأوربيين الذين يهتمون أمته ويتعون عليها الشهوانية واحتقار المرأة - وإذا عرفت من رجل أنه قائد قدير وإدارى خبير وسياسى حازم ووطنى مخلص وخطيب مبين وبصير مستنير الذهن فالسر الذى خفى عليك من ترجمة حياته قليل .

ووضوح الشخصية نافع فى المواقف العصبية التى يجب إنقاذ الأمة منها ودرء أخطارها فيها . فليس يجدى فى هذه المواقف رجل لا تظهر آثار شخصيته فى حياته ولا يحسن سواد الناس معاملها حين ظهورها ، أما مصطفى كمال فمن هؤلاء الذين يشهد كل من لمحهم ولو لمحة واحدة أنه فى حضرة رجل فوق مستوى الرجال . ولسيأء الرجل هيبة ناطقة ولاسيما نظرات عينيه فإنى ما قرأت وصفاً له إلا رأيت فى مقدمته التفات الواصف إلى وقع تلك النظرات . فهى نظرات تنفذ من خلال زرقة العينين حادة كالسهم كما قال مكاتب « اللستراسيون » الفرنسية ، وهكذا وصفته الأميرة قدرية فى قولها « وهو مربوع القامة رقيق أبيض اللون مشرب بالحمر الوردية . له عينان زرقاوان حادتان . نظراتها تكتنه الخفايا وتخرق الحجب الكثيفة ، وجبينه العالى آية النبوغ » وهكذا وصفه كلود فارير الكاتب الفرنسى المعروف والجنرال تونشند القائد الانجليزى ، فدلالة تلك النظرة واحدة فى نفس الرجل والمرأة والكاتب الأديب والقائد الحربى على اختلاف فى الجنس والنحلة .

وقد جرت العادة عند ترجمة رجل عظيم من رجال الحرب المحدثين أن يقارن بينه وبين رجل يعد أعظم أساتذتها فى العصور الحديثة ، وهو نابليون بونابرت ، ويتخذون هذه المقارنة محكا لكفاءة كل قائد كبير ومقياساً لمواهب التابعين ممن جمعوا بين الخبرة بالفنون العسكرية والقدرة على زعامة الشعوب . ونحن لا نرى حرجاً من المقارنة بين مصطفى كمال ونابليون أو أى عظيم من العظماء المخلدن الذين أنجبهم العالم قديماً وحديثاً . وليس يعنيننا فى إظهار فضل

مهاتما غاندى

لا يجد الكاتب بعد الكتابة عن مصطفى كمال صورة هي أبعد منه^(١) شيها من صورة الزعيم الهندي ، أو النبي « غاندى » سجين الحكومة البريطانية اليوم . وليس بين الرجلين بعد جامعة الدعوة الوطنية من مناسبة تذكر بأحدهما إن ذكرت الآخر غير مناسبة التباين في نوع القوى النفسية والصفات الخلقية . فكلاهما زعيم وكلاهما عظيم ، ولكن شتان نبعهما من الزعامة والعظمة . والفرق بينها في الحقيقة هو بين نموذج عال من الجنس التركي ونموذج عال من الأمة الهندية ، فهذا مثل الشجاعة والبأس ووضع الشخصية والأخذ بالحقائق الملموسة ، وهذا مثل التضحية وإنكار الذات من نوع آخر ، وما شئت بعد ذلك من غموض في قوى النفس وأسرارها يتصل بنوامض الهند القديمة الأسرار - أحدهما بطل والآخر نبي ، وما البطولة في أعم أشكالها عند الهنود إلا ضرب من النبوة لا معجزة له غير القدرة النفسية الحارقة . فإذا طلب السامى أو الطوراني من الرسل المبعوثين إليه أن يقيموا له البرهان على صدق دعواهم بنقل الجبال وتحويل الأفلاك والانباء بما يجرى في الأماكن البعيدة أى بما يستطيعون عمله لو تضاعفت قدرتهم المادية أضعافا معينة كأن يزدادوا في الطول أو القوة أو السمع أو البصر آلاف مؤلفة من الأضعاف - فالهندي لا يطالب بنبه ببرهان كهذا ولا يكلفه هذا النوع من القدرة . إنما يكلفه معجزة نفسية بحتة تسبر له غور قدرته على قمع شهواته واحتمال آلامه وإنكار جسده . ففريق يميل إلى التسليم بحاسته وفريق يميل إلى التسليم بضميره .

إن أعمال مصطفى كمال تدل عليه كما قلنا ولكن أى دلالة على غاندى تصل

(١) الأفكار ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

الابتسامة الطفيلية معروفة على أفواه كثير من العظماء ، حتى الذين ترمسوا منهم بآلام الحياة واكتووا بنارها ، ولاغرابة فيها فإن النابغ لا يزال عمره كله طفلاً ، لأن شباب عقله ونفسه لا يقترن بالتجارب الشخصية والسنين المحدودة التي يحياها على هذه الأرض ، وإنما يقترن بحياة أمم متجددة بل بحياة العالم أجمع في بعض الأحيان - وأظن تلك الابتسامة الصغيرة التي تتردد على شفقي مصطفى كمال أدل على عظمته من كل ما تجسده من الأهوال ، وما امتاز به من كرائم الخصال .

هذا هو الرجل الذي تدوى الدنيا باسمه في هذه الأيام . والذي يشعر الآن بسعادة ما مثلها في هذا العالم المترع بالهموم . ويكرع من كأس نشوة نادرة هي نشوة الشعور بأن الحق ينتصر بين مصارع الشهوات والمطامع . وما أندرها من نشوة سماوية !! - السعيد من ظفر برشفة من كأسها . ولكنها سعادة لا يستحقها إلا القليلون ، ولا يناولها إلا الأقل من هؤلاء القليلين .

أتباعه ، يقولون إنهم يبصرونه في ضوء ونجافة جسمه ورخامة صوته ووداعة نظراته فكأنما يبصرون طفلاً صغيراً لا بطلاً مسموعاً يقود الملايين وينهض للمباواة أكبر دولة في الأرض . وقد رأيت له عدة صور مطابقة لهذا الوصف وقرأت أخباره مع حكومة الهند وأساليبه الغربية في مصاولتها فلم أشك في أن رؤساء الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتماثلون فيها من الابتسام من هذا القدر الذي امتحنهم بكفاح هذا النبي السياسي ، فأصبحوا أمام حملاته التي كان يصبها عليهم صبا لا يدرون في أي باب يسلكونها : أفي باب اللدد في الخصومة أم في باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة ؟؟ ولا يكادون يعلمون هل يجد هذا الخصم العنيد أم هو يداعب حكومة الهند برهة ثم هو تاركها وشأنها حين يلهمه هواه .

إلى هذا الحد يتصور الفكر غاندي غير مطبوع على إثارة البغضاء ، وهي خصلة أفادته أجل فائدة في مهمته التي قبضته الظروف لها ، وما كانت لتفويض لها رجلاً هو أخلق بها منه . إنها كانت مهمة صاحبها في غنى عما يتصف به الزعماء الجبابرة من خلق غضوب يستنفرون به من جانبهم وجانب خصومهم أقصى ما عند الفريقين من نكرة الجنسية وعداوة العصبية ، فهي مهمة جهاد سلمى : سلاحها الرفق والصبر ، وأصلح الناس لقيادتها ذلك الرجل المسالم بطبعه الوديع يحكم تكوينه الذي يحذر أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول لهم : إذا كان لابد من العدوان فكونوا أنتم ضحاياه ولا تكونوا أنتم جناته ، وبعضهم أن يعلوا بأنفسهم عن غضب السباع وشراسة الحيوانات . وهي كذلك مهمة تأليف بين عنصرين فرقتهما ترات تاريخية كانت إلى عهد قريب تسيل الدماء وتذكي ضرام البغضاء وتبعث الأنفة والاعتزاز بالأباء ، فكلما كان القائم بها سهل العريكة بعيداً عن الكبرياء الشخصية والخنزوانة الدينية كان ذلك أعون له على الإصلاح والتوفيق ومسح الترات ولم الصفوف . وهي مع هذا وذلك مهمة قناعة وإعراض عن لذات المدنية وغواياتها . ومن لها غير غاندي المتواضع المتقشف القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء ؟ ولو أنه كان من رجال المطامع وعشاق الدنيا المفتونين بجاهها وزينتها ولذاتها وملاهيها

إليها من مجمل أعماله ؟ إنه حمل فريقاً عظيماً من الهنود على الإعراض عن زخازف المدنية الغربية وألف في كثير من المواطن بين أصحاب الديانات المختلفة وتصح وخطب ونقلت عنه أخبار شتى من بعيد ، ولكنها في مجملتها أعمال قد يأتي بها عشرة من الرجال مختلفون لا يشابه أحدهم الآخر وكلهم من الزعامة بالمنزلة المطاعة - قد تجتمع فيهم الشجاعة والمراوغة والدهاء والصراحة والنبل والضعف والإخلاص والرياء والطمع والعفة والانتقام والمروءة ، وقد ترى أحدهما من البعد عن الآخر بأقصى ما يكون الرجلان المتباعدان . ولاسيما في بلاد قديمة شاسعة الأطراف مختلطة كالهند يتسع فيها المجال لعوامل متناقضة . فأى هؤلاء العشرة يكون غاندي ياترى ؟؟

لم يظهر بعد « طيلاق » الزعيم الهندي الذي مات في الأعوام الأخيرة زعيم كان أجل خطراً وأعد صيئراً وأكثر أتباعاً من غاندي هذا الذي لقبه قومه بالنبي أو القديس . وقد اعتاد غاندي أن يقول عن سلفه الراحل : « إنه لو ظهر في القرون الغابرة . لأنشأ له دولة وعرشاً » وهو إنما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة مراس « طيلاق » وقوة شكيمته وبعد أمله واعتداده بنفسه وبروز شخصيته . ولا نظنه إلا كان شاعراً بالتفاوت بينه وبين صاحبه في هذه الخلال حين التفت إليها ونوه بها أكثر من مرة . فإن الاختلاف في الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع التباين بين الرجلين صاحب العرش الذي تأخر به الزمن عن عرشه والنبي الذي لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة !

والعهد بالأغلب الأعم من أبطال النهضات وقادة الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صعاب الطباع ضخام الأنانية أولى طماع وكبرياء ، وأنهم إلى أخلاق الغزاة الفاتحين أقرب منهم إلى أخلاق الأنبياء والنسك ، ولو قدر للهند أن لا يتولى الزعامة فيها أحد من غير ذلك الطراز الذي نبغ منع طيلاق لما سمعنا باسم غاندي قط ولما كان له دور يؤبه له في رواية الهند الحديثة - نعم فليس غاندي بذلك الرجل الجبار بشخصيته الغلاب بجيلته ! ولا هو بالمرزول المداور القوى المعارضة الخلاب الفصاحة ، ولا هو بالرجل الذي تروعك هيئته وتستحوذ على إعجابك هيئته . لا بل خلاف ذلك يراه واصفوه من أتباعه وغير

القدرة والخطر . يستكثرون منه القليل إذ يستقلون من غيره الكثير ، ويعجبون منه بما ليس يعجبهم من سواه . مثله في ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير بحديثه الأمثال وليس هذا ولا أضعافه بما يذكر للرجل الكبير . وتراهم قلما يستغربون الإساءة من الضعيف إذا أساء ولا يلتفتون إلى إساءته إلا عاطفين أو غير مباليين . وإذا أحسن لم ينفسوا عليه إحسانه لقلته ما يحفزه من دواعي العداة في النفوس .

٢

ظن بعض قرائنا أننا غطينا البطولة حقها وأصغرنا من قدرها حين^(١) قلنا في عرض الكلام على مصطفى كمال أن البطل لا يزال طول عمره طفلاً ، وخيل إليهم أن الأخلق بالبطولة والأشرف لها أن توصف بالحكمة والحصافة والنضج قبل الأوان . فكتب إلينا قارئ أديب يستغرب ما قلناه ويستفسره وبحسبنا أخطأنا الرأي فيه وعدونا الصواب . ولو فطن إلى حقيقة ما أردنا لرأى أن الغمط لحق البطولة والإصغار من قدرها هو ما توهمه وقاراً جديراً بها حين خطر له أنها أسرع من غيرها إلى إدراك تلك الحكمة النبوية التي أساسها أن لا يدخل المرء في مالا يعنيه وأن لا يعنيه إلا ما يعود على شخصه من خير وشر . فإن هذه الحكمة الرخيصة إنما يجاد بها على من ليس يرجى منهم خير لغير أنفسهم ولا تفضل من قواهم بقية تزيد على مصالحهم . وأما الذين نديهم الله لنفع أمهم أو لنفع الناس عامة وأنساهم في الغيرة على هذا النفع العام غيرتهم على أنفسهم فقد سلبوا - والحمد لله - هذه الحكمة وجردوا من هذه الحصافة ولم يسلم منهم أحد من مظنة الجنون والفرارة ، لا لأنهم أقل من غيرهم عقلاً وأبطأ إدراكاً ولكن لأنهم أكبر نفساً وأبعد مطلباً وأعلى شأواً في الحياة من عامة الناس .

ولسنا نند عن موضوعنا إذا نحن فصلنا هذا الرأي بعض التفصيل على

(١) الأفكار ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

أترأه كان يحظر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته فيغدو ويروح في ثياب من أرخص ما تتسج الهند أو تعيش على الفاكهة والأرز المسلوقة ؟ ولقد صار للدين ومكارم الأخلاق كل ما عمله غاندى ونطق به . حتى الدعوة إلى نبد مظاهر المدنية الغربية وجد لها حجة من مكارم الأخلاق تحت عليها !! فكان يقول لجماعته : « إننى لأستحي أن أخاصم رجلاً من على يتسج ملابسى » وما هو بهازل ولا متكلف في ما يقول .

وتحيل إلى أن ضمور الشخصية أفاد غاندى أكثر مما أضر بنفوزه وأكسبه من الأنصار أكبر من أبعده . إذ كانت الشخصية الضامرة هي التي ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة التي مهدت له سبيل التمكّن من أقوى جوانب النفس الحسية - وهو جانب الشعور الدينى - فإنه مازال من سمات النساك والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية . بذلك يتسم النساك المتصنعون . وكذلك يترأى للناس النساك المتصنعون ، فصاحبنا غاندى في بنيتة النحيلة وقده الصغير أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة إلى الصلاح والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز أن الطبيعة تورعت في تركيبه فلم تعتمد إلى البذخ والروعة : فكان الرجل متقشفاً في الحياة وكانت الحياة متقشفة فيه !!

وكثيراً ما رأينا الكبراء من ذوى الصلف والنفوذ يقبلون الطاعة لأمثال غاندى ممن لا سلطان لهم في ذواتهم ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله الذى لا يتعالى على سلطانه عظيم ولا حقير ، يقبلون الطاعة له ولا يقبلونها لمن يتقدم إليهم بمزايا من جنس مزاياهم ، لأن الأول يترك لهم الدنيا التي هي موضع تفاخرهم وتناحرهم ومثار التنافس والحسد بينهم فيخرجونه من ميدان المناقسة ولا يرون على أنفسهم غضاضة من تقديمه عليهم جميعاً . والثاني يتقدم إليهم بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن مناقستهم فيسلمون له عند العجز مجبرين أو مختارين كمجبرين .

وللضعيف الهيئة في بعض الأحيان أن يغتبط بضعفه الظاهر ويحمد عواقبه . لأن الناس لا يكلفونه ما يكلفون القوى ولا يقيسون أعماله بمقياس ذوى

وتستأنف الكلام على غاندى فنقول :
إن غاندى كما رأينا مما تقدم صاحب زعامة خاصة بموقفه ومهمته - أى أنه لم يخلق ليكون زعيماً على كل حال . ولا نقول ذلك بخساً لشمائل الرجل ولا تنقصاً من قدرته ، فإنه فضلاً عن فصاحته وسهولة اجتذابه للشامعين حاصل كما نعتقد على صفتين من أزم صفات الزعامة على الناس ، بل هما أزم صفاتها قاطبة ولولاها لما أقمع داع قط ولا استحق الكرامة - زعيم . وهاتان الصفتان هما الإخلاص والإيمان .

فإخلاص غاندى فوق كل شبهة ، وإيمان غاندى قد صفته المحن ومحضه النسك وتزهد عن الشكوك الهادمة والوساوس الدنية . عرف له إخلاصه وإيمانه أبناء قومه فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع . وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ إنهم يلقبونه النبی أو الروح العظيم (ماه - آتما) وهى منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها فى دين البراهمة إلا منزلة واحدة . هى الروح الكلية (بارام - آتما) وهى روح برهما : روح الله .

ولم ينفرد بتزئيد غاندى عن التهم أبناء وطنه من البراهمة والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من الأوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الإنجليز ، بل شهد له قاضيه الذى أمضى الحكم بالسجن عليه . ورأينا بين كتاب الإنجليز من يقول فى مجلة « نيشن » غير متلعم ولا محترس « إنه ليس من التجديد أن يقارن بين غاندى والمسيح » وهى كلمة كبيرة من إنجليزى مسيحي !! ولم يستطع السير فالنتين شيروول أن يلقي عليه الغبار الأسود الذى لا يعيبه إلقاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطانى ؛ فقال إنه فى الحركة الهندية « بلا فأس يشحذها لنفسه » وهذه الفأس عندهم هى كناية عن المصلحة الشخصية والأغراض المريبة ، وكم من فأس خلقها شيروول وشحذها على حسابها لأناس لا يحملون الفؤوس !!

وغاندى الآن يمضى فى أول الحلقة السادسة من عمره ولا يدري أحد كيف يتم هذه الحلقة . أيعود إلى الحياة العامة قريباً أم يتم أيامه فى السجن فيكاد

القدر الكافى لدفع الالتباس والخطأ ، فإن غاندى أيضاً من شرفتهم العناية الإلهية بروح الطفولة الخالدة . فلننظر هنا ما معنى الغرارة التى بوصف بها الأبطال ، ولننظر قبل ذلك فى معنى غرارة الطفولة ومعنى الحكمة الفردية التى تؤدى إليها التجربة .

ويكون الطفا غراً لأنه لم يزن طاقته ولم يقس نفسه على القوى المحيطة به . فهو لا يعرف أين يقف بهواه ولا كيف يكبح شوقه لأنه لا يعرف القدرة الضرورية لتحصيل مطالبه . ولا يزال يصادم « الظروف » والظروف تصادمه حتى يقبس ذرعه بمبارها ويلانم بين قوته وقوتها ولا يذهب إلى أبعد من الحد الذى عرفه لقوته . حينئذ إنه رشد ونضج عقله وتعدى طور السذاجة الأولى . لأنه وفق بين نفسه والوسط الذى يعيش فيه . ولكن هل هذا النضج الذى يتاح لعامة الناس مما يمكن أن يتاح لنواحي الأبطال ؟ وهل فى وسع بطل أرسلته العناية لإصلاح وسطه أن يوفق بين نفسه وهذا الوسط الذى ليس يرضى عنه ولا هم له إلا أن يغيره ويهذبه على حسب ما يبدو له أنه الكمال والصواب ؟ إنه إن فعل ذلك لم يكن أكبر من بيئته والتهمة البيئية كما تلتهم اللجة غريقها فلا يخرج من جوفها ولا يبين له أثر فى غمارها . وما كان العظيم عظيماً إلا لأنه أكبر من البيئة المحيطة به وأعلى مطلباً من أن يندس فيها كما يندس سائر الناس . فإذا رأيت بعد تجربته للحياة « غراً » يقدم على تجربتها مرة أخرى وثالثة ورابعة فذاك لأن قوته لا يجدها زمنه ولا ينتهى أملها عند معرفة ما يطلبه لنفسه . وما هو فى الحقيقة بغير إلا من وجهة النظر إلى مصالحه الخاصة . أما إذا كان مقياس الحكمة فى اعتبارنا هو أن يقبس الإنسان قوته على قوة بيئته فالبطل هو المثل الأعلى للعقل الحى لأنه فى الحقيقة لا يمنع أن يخضع للواقع إلا هذا السبب . وهو أنه قاس قوته على القوى المحيطة بها فوجد - شاعراً بذلك أو غير شاعر - أنه قمين أن يكافحها ولا يخضع لها ، ومادام بينه وبين دنياه هذا الكفاح فهو الطفل الكبير الذى تعاوده الغرارة ولا يفرغ فى التجربة .

بيد أننا لا نعجب من هذا الخطأ عجبنا من كتاب الصحف الأوربية الذين يأبون إلا أن يضطروا غاندى إلى اقتباس قواعد دينه من كتاب أو قصة يخترعها الغربيون أو أشباه الغربيين . فإنه لمن المضحك حقاً أن يسترسل هؤلاء القوم في الغرور بمدنيتهم إلى هذا الحد فلا يسلمون لشرقى بآثرة لا يكون لواحد من أبناء الغرب أصعب فيها . بل تدرون من صاحب الفضل على غاندى في فلسفته وآدابه ومن الذى لقته أصول دين البراهمة ؟؟ إنه هو تولستوى !! كذلك قال شيخ صحافتهم لورد نورثكليف غفر الله له بعد عودته من الهند !!

وما لنا نلوم كتاب الصحف وهذا رينان المؤرخ اللبيب والباحث النزيه يقارن بين الشرقيين والغربيين فيخالف المعروف المتفق عليه ويميز الغرب على موطن الأديان ومهبط الوحي بخلوص النية وصفاء العقيدة وبراءة العاطفة الدينية من الزغل والمواربة !! ويقول في هذا المعنى في صدد كلامه على معجزات السيد المسيح : « إننا نحن بما لنا من طبائع باردة مترددة قلما نفهم كيف تستحوذ على الإنسان إلى هذا الحد فكرة كان هو صاحبها الذى تدب نفسه للدعوة إليها . فنحن أبناء الشعوب التى تأخذ الأمور مأخذ الجد نفهم أن الاقتناع معناه إخلاص الإنسان بينه وبين نفسه . ولكن الإخلاص للنفس شئ ليس له كبير معنى عند الأمم الشرقية ، فاليقين الصادق والادعاء نقيضان في عرفنا لا يقبلان التوفيق ، أما في الشرق فالمنافذ الخفية والسراديب الملتفة التى تصل بين هذين النقيضين كثيرة لا تحصر . وكم من رجل من أرفع الناس نفوساً كأصحاب الأسفار الدينية الضعيفة السند - ولنذكر منهم مثلاً دانيال وأخنوخ - قد اقتصروا بغير حرج من ضمائرهم أعمالاً قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن إلا أن نسميها افتراء ؟؟ فالتدقيق في الصدق الحرقي خصلة قليلة القيمة جدا في نظر الشرقي ، وهو مفضول على أن ينظر إلى كل شئ من خلال خواطره ومصالحه وخواجج نفسه . »

وإذا كان هذا رأى مؤرخ بعيد عن الشبهات السياسية كرينان فالحق أن نورثكليف وغيره من سماسرة السياسة لهم العذر الواضح إذا هم خلطوا بين

ينقضى من الآن دوره في سياسة بلاده ؟ . على أنه قضى هذه الحياة العامة في ما هو حسبه قضى ثلاثين سنة في أشرف الأعمال . وأطهرها لم تؤخذ عليه في أثنائها سيئة واحدة تشينه ولم يخامر الشك أحداً في صدق نيته ، وإذا كان لا بد من الاستقصاء فنحن نستثنى تلك الحادثة التى جرت له في إفريقية الجنوبية في أول عهده بالأعمال العمومية . فقد قيل إن الهنود كادوا يقتلونه هناك لسوء ظنهم به واتهامهم إياه بالخيانة وأنهم أوسعوه ضرباً حتى أغمى عليه وتركوه وهم يحسبونه قد مات . وهى ريبة غريبة يعذرون عليها لفاقتهم وحاجتهم إلى الإنصاف . ولعلها خامرتهم من فرط تشده في إنكار العنف وكثرة إلحاحه بتوخى المسالمة والتزام حدود الاعتصاب الرصين . وكان القوم لا يفهمونه يومئذ فاتهموه وأضرموا له السوء ثم أنزرا منه هذه الدعوة فزال ارتياهم فيه .

ولقد رأيت أناساً كثيرين كانوا يعتقدون حتى بعد محاكمته أنه إنما كان يوصى بالسلم والمودة احتيالاً على القانون وهرباً من العقاب ، وليس أظلم للرجل من هذا الاعتقاد . فإنه لأرفع من أن يخشى عقاباً وهو الذى يدين بإنكار الذات والصبر على الآلام ويرى المثل الأعلى للحياة في الاستخفاف بأكدارها وشروها . وعدا هذا فإن وصايا غاندى قد نشأت قبل أن يولد غاندى ، وقبل أن يضع الإنجليز قدماً في الهند ، وقبل أن ينشق حجاب التاريخ عن كيان الدولة الإنجليزية - نشأت من عبادة بوذا المبشر بدين الرحمة والإخاء القائل لتلامذته « إن الواصل إلى الله لا يغش أحداً ولا يضر حقداً لأحد ولا يجره الغضب إلى الإضرار بأحد » وأن « عليه أن يطوى قلبه على حب لا يمحصر لجميع المخلوقات ، يجهم كما تحب الوالدة ولدها الذى تحميه بحنانها . ومن فوقه وما دونه ومن حوله فليمدد رواق حبه . وليكن حبا لا تعترضه الحواجز والعقبات ولا مسحة من قسوة أو تحزب ، وعليه واقفاً كان أو قاعداً أو ماشياً أو مضطجعاً إلى أن ينام أن يظل فكره عاملاً على الخير لجميع العالم » .

وهذه وصايا تكررهما كتب الهند المقدسة بلا ملل ولا اختلاف ، ولنذكر أن غاندى رجل متعبد ولدته أم متعبدة في أمة الديانات والنسك ، فليس يجوز لمنصف أن يؤول كلامه على غير معناه الصريح .

الحقائق والأهواء وعبثوا بحرمة التواريخ والزقانع الملموسة واقترفوا بغير حرج من ضمائرهم أعمالاً قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن إلا أن نسميها افتراء !!

وعلى أنه إن كان لابد من فضل للمدنية الغربية على غاندي فإنه فضلها إذ علمته كيف يشتمزمتها ويحتقر أباؤها وما يستوعب نفوس أبنائها وعقولهم من صفاتها وشهواتها . وهذا وأيم الله فضل ليس بالقليل ، وما فتى النبي الهندي يشكره لها الشكر الجدير به .

المتأقون

في التاريخ حوادث عظام لا تعد ، أحدثها رجال على حالات مختلفة من الأخلاق والمواهب ولكن لم يكتب لأحد من المتأقن أن تجرى حادثة منها على يديه ولا أتبع لأحدهم أن يكون ذا قوة منشئة أو أثر دافع في تاريخ عصره ، وقد يضل منهم من يصل إلى مقاوم الرفعة والنفوذ بفضل النسب والحسب أو بفضل المال أو الصنف ، ولكنه يظل بعد وصوله إلى تلك المقاوم ذلك تعاجز الحصر الخابي النفس والعقل الميئوس من همته واجتهاده . وتراه في دست الأحكام كما تراه في مجلس المدام : إنساناً مستظرف المحضر ، إن كان به ظرف ، وإلا فمشجب حتى عليه من أدوات الزينة ما كان قبل هنيهة على مشاجب أخرى من الخشب والحديد .

وفي تاريخ الكياسة والتأنق والأدب مثلاً واضحان على هذا العجز الذي يسهل عند التصدي لعشائهم الأمور وجسام الأعمال ممن جعلوا همهم في الحياة التأنق واللباقة والتخذهما وطيفة في الدنيا ينصبون لها ويزدهون بها ، أحد هذين الذين عسرى والآخر أقدم منه بنحو قرنين .

فأما الأول فهو « دي شانل » الأديب السياسي الكيس الذي ارتقى إلى رئاسة الجمهورية في فرنسا بعد بوانكاريه . كان هذا الرجل كاتباً بارع الإنشاء مصقول العبارة وسياسياً يسمع له رأى في دوائر الأحزاب ، وكان متأقفاً جد التأنق تتوجه إليه الأنظار ويقتدى به أنداده في هندامه وآدبه ؛ فلما صعد أو صعدت به الظروف إلى دست الرئاسة ظنوا به خيراً وانظروا منه الشيء الكثير ، ولكنه لم يوفق لسوء حظه إلى تصديق ظنونهم وإرضاء تشوفهم ولم تمض عليه هنيهة حتى ظهر عليه ضعف العقل الذي كان مكنوناً فيه قبل ذلك ، والذي هو من طبيعة هذه الأمزجة المشغولة بالأناقة والمظاهر .

وغرابة مرجعها إلى ما يرضى الناس ويبهروهم ويروقهم . فهي منوطة بهم ومولية إليهم .

إن التيار الجارف هو الذى يشتق لنفسه طريقه ويقذف فيه بأمواله أما الماء الفاتر فلا يحصى له عن الوقوف عند الشطوط يدور معها وينحصر في نطاقها ، ومهما ظهر لك س ظاهراً المتأنقين وقيامهم بما يغضب الناس . أحياناً وصبرهم على المخالفة في بعض المعضلات فلا يغرك هذا من أخلاقهم وأذواقهم فإنما أساسها كلها فقدان تلك القوة الدافعة التى يقدم بها المرء على اقتحام العقبات ، وقرارها كلها ذلك الماء الفاتر فى طباعهم الذى يقف بهم أبداً عند الشطوط .

والمتأنقون لأجل هذا كانوا أقل الناس صلاحية لقيادة الأمم ولا سيما فى عهد النهضة القومية . لأن النهضة تحتاج فى كل عصر إلى المجددين المقتحمين لا إلى الفاترين المتدللين ، وتريد النفوس الطامحة القلقة ، ولا تريد النفوس الوادعة المترفقة . وليس من قوانين النهضة التوفيق بين الإنسان وبين ما يجده من ميسور حاله ، وإنما قوانينها أن يتمرد الإنسان على حاضره شوقاً إلى ما يرجوه من مآله .

ولعلماء الجرائم الذين ليس أمامهم مثل للشذوذ ومخالفة البيئة غير أمثلة المجرمين وحثالة الناس أن يعتبروا الملاءمة بين المرء وبين بيئته نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه آداب الفرد فى الجماعة ، ومثالاً للحياة المستوية السليمة ، ذلك لأنهم يطلبون سلامة المجتمع ويحرصون على أن تجرى الأمور فى مجراها وبحسبون ذلك غاية الأمم التى لا تنزع إلى أبعد منها ، وقسطاس الشرائع والأنظمة الذى لا يقبل التغيير والتحول . لكنهم يظلمون العلم ، ويظلمون أنفسهم ، ويظلمون الحياة إذا جعلوا الملاءمة بينها وبين البيئة التى هى فيها قانونها الأسمى أو حسبوا هذه الملاءمة طبيعة عنصرها والمحرك الأول لها . فإنما قانون الحياة الأسمى وعنصرها الأصيل قائمان على الشذوذ لا على مشابهة البيئة ، وأول ما نشأت الحياة كانت شذوذاً مخالفاً لما حولها ، وكذلك أول كل ارتقاء فيها كان اختلافاً مبايناً لسنة البيئة وثورة قائمة على النظام المألوف فى الطبيعة ، فكلما

أما الآخر فهو لورد شستر فيلد الذى يعرفه كل دارس لآداب الإنجليزية ، صاحب الرسائل البديعة التى خط بها لولده دستور الكياسة والظرف ، فجاءت طرفة من طرف البلاغة وآية فى جمال اللفظ والأسلوب ، ولد هذا الأديب فى بيت من بيوت المجد والغنى وتثقف عقله كأحسن ما تثقف العقول فى عصره ، ووصل إلى مجلس النواب فحسب عارفوه ممن كانوا يلتفون به ويكبرون لباقته فى الأندية وبجالس السمر أنه سيشرق على المجلس نجماً ساطعاً وسيرقى منه إلى أرفع منزلة فى المملكة بجده وأناقته وحسن تخريجه للأمور !! فما كان إلا أن خيب فيه كل أمل ولم يسمع له صوت يذكر فى المجلس ، وقد لزم الصمت فى دور نيابته ، ودان خطيباً مقبولاً ، لسبب مضحك مزر لكنه ملائم لطبيعة مزاجه .

ذلك أنه كان بين الأعضاء رجل هزأة يحسن محاكاة الخطباء فى حركاتهم وجرس أصواتهم ولهجاتهم ، وكان إذا خطب الخطيب قام فرد عليه بصوت كصوته ولهجة كلهجته وإيماء كإيمائه فيعرضه للضحك والسخرية أحياناً ويتغلب على سخريته الأعضاء الأقوياء كثيراً ..

فمن هذا الرجل خاف لورد شستر فيلد وقبح فى المجلس لا يتكلم . فكان هذا السكوت منه خوفاً من الضحك ، كذلك العناية الدقيقة التى يعنى بها فى انتقاء كل قطعة من ملابسه لئلا تعاب أو لا يستحسنها الناظرون .

ليس بعجيب أن يخفق أمثال دى شانل وشستر فيلد فى عالم الجهاد السياسى أو يظهر منها ضعف العقل عند المعركة . إذ ما هى طبيعة التأتق فى لبائها ؟ أليست هى أن يعيش الإنسان عندما يستحسنه الناس منه وبلغت أنظارهم إليه ؟؟ فالمعقول فى هذه الحالة أن لا تكون للمشغولين بالتأتق تلك القوة الدافعة المتجربة التى لا تحفل بأراء الناس ولا يكرهها رضاهم وغضبهم ولا يصددها عن طريقها استحسانهم واستهجانهم ، والمعقول أن لا يكون منهم زعماء فاتحون لعهود جديدة أو معتسفون أطواراً كانت مجهولة ، لأن الزعامة لا تتم بغير تلك القوة الدافعة ، فلا جرم يكون محل المتأنقين فى السياسة إذا ولجوا بابها محلاً خاملاً لا يؤبه له . نعم إن التأتق يستدعى بعض الغرابة للفت الأنظار فيخيل إليك أن أصحابه على نصيب من الجراءة ، ولكنها جراءة كاذبة

تقدير الشيخ على يوسف

لا يقنعني^(١) بأن الصحافة المصرية لم تتجاوز بعد سن الحدائة مثل آفتين مما تبلى به كل صحيفة: أحدها ملاحظة المشتركين والثاني إغارة الصحف والمجلات .

وكثيراً ما سألت الصحفيون: ما يال الصحافة المصرية مبتلاة بداء المظل من مشتركها حتى لا تكاد تظهر صحيفة إلا صادفها من ذلك عقبات تقضى عليها أو تلجئها إلى غير مواردها؟

ولا علة لذلك سوى أن الصحافة لم تدخل بعد في عداد الضروريات في حساب المصرى . وأنه لا ينتظرها كما ينتظر الرجل شيئاً لازماً لا غنى عنه ، ولا يتعقب آراءها تعقب من يعتقد أن لتلك الآراء مساساً به ودخلاً في حياته .

تبلغ الصحافة هذه المنزلة في « البلاد الاجتماعية » وأريد بالبلد الاجتماعى ما تتكون فيه جامعة قومية محسوسة تربط بين سكانه بصلة من التضامن في الشعور والمرافق العامة ، وليس للمصريين هذه الجامعة اليوم ، ويكاد لا يدور لها خيال في أذهان الكافة من أبناء هذه الديار . فإنهم لا يزالون يرددون اسم المصرى ويقصدون به المولود في مدينة القاهرة ، وليس عندهم إلى اليوم كلمة للقومىة المصرية اللهم إلا ما تلقفه بعضهم أخيراً من مستحدثات الكتابة ، وما هم بالكثيرين .

أما في الأوطان الاجتماعية فالصلة بين أهلها أقرب من ذلك ، هناك يترقب القارئ الصحيفة كما يترقب الرسائل الشخصية ويرى في كل خبر رسالة من الأمة إليه أو منه إلى الأمة . فلا يخطر لمثل هذا القارئ أن يتأمل الصحيفة في

(١) نشرت في يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ بإحدى الصحف الأسبوعية .

كان الإنسان أقرب إلى الحياة وأبعد عن الآلة الميتة كان شوقه إلى التجديد والافتحاح أشد وأقوى ، وكلما كان أعمق مستقى من ينبوع الحياة وأوفر نصيباً من دفعة تيارها كان الاختلاف بينه وبين عامة الأحياء كبيراً بعيداً ، والاندفاع فيه إلى التغيير ملجأ شديداً ، تلك سنة الحياة منذ نشأت وتلك هى الروح الإلهية التى تستفزها إلى طلب الكمال وتحثها أبداً على التوغل فى أسرار الوجود والتزيد من حظوظه وأفراح فتوحاته . ولولا هذه الروح لركدت الحياة وأسن ماؤها وانعزلت فى بؤرة حاضرها عن المجرى المنطرد بين الماضى والمستقبل . ولولاها لكافت الحياة كالتربة القاحلة تلقى فيها الحبة فتأخذها كما ألقيتها حبة واحدة لا تزيد ولا تتغير ، اللهم إلا أن تكون زيادتها وصراً ورجساً ، وأن يكون تغييرها تعفنًا وبيساً ، وإنما وظيفة الحياة أن تحطى أضعاف ما تأخذ وأن تكون فى داخلها أكبر مما يحيط بها من خارجها . لا أن تجعل ما تعطيه على قدر ما تأخذه ولا أن تكون هى وما يحيط بها على حال سواء .

أليس من الغريب إذن أن يكون الوداع المتأق الذى لا يشغله من الدنيا إلا الرضى من نفسه ومن غيره ، قائداً للأمم فى نهضاتها وتدوة لها فى إبان انطلاق آمالها ونشاط حياتها؟

بلى والله إنه لغريب طريف ، وإنه ليدع فى التأق ولكنه غير جميل ولا ظريف ! !

كنا ليلة دفن الشيخ على يوسف في مجلس مع بعض الأصدقاء فقال واحد منا : اليوم يحزن فلان وفلان ، وعدد أسماء جماعة ممن كان الشيخ سبباً في إيصال النفع إليهم ، وتمهيد سبيل الوظائف لهم . قلت بل اليوم فليفرح هؤلاء لأنهم لا يدينون للشيخ بالحب والإخلاص ولكنهم يدينون له بربا ذلك النفع ، وقد استراحوا اليوم من الغريم الذي كان يسأريهم ذلك الربا . وما مساعدة هؤلاء الناس لأصحابهم إلا كمقارضة المقامرين . يقرض أحدهم زميله ليسترد ماله وقرضه قبل أن يبرح مكانه ، فلا بدع إن كان أحدهم يفرج عنه بعد صاحبه كما يفرج عنه بعد الغريم الملحاف .

قال بعض المجالسين : لكأنك سمعت معي ما قاله أحد أصدقاء الشيخ الأقرين ، فقد سمعته يعجب لنفسه كيف لم يغمم لوفاة رجل كان موضع سره . وشريكاً له في أكثر مساعيه ، ويقول إنه على جلده لفراق الأصدقاء وصبره على كوارث الموت ، ما كان يحسب أن يقابل موت ذلك الصديق بمثل هذا الفتور .

وقال : لقد حضرت اليوم الجنائز فرأيت فلاناً يتأبط ذراع بعض إخوانه وهما يتغامزان ويضحكان ، وكنت أتوقع أن أراه في ذلك المشهد باكياً أو خاشعاً - أما فلان هذا الذي رأه محدثنا فرجل جرى له على يد الشيخ رزق لا يقل عن خمسين جنيهاً في الشهر .

ولا عجب في هذا الكنود ، فإن الناس يحبون من ينفعهم إذا كان بره بهم صادراً عن حب لهم ، أما إن كان لغير ذلك فهم يقبلون بره ويحافظون على ظاهر الود له ليستزيدوه منه ، ولكنهم لا يحفظون له جيلاً ، إذ كانوا يعلمون أن جدواه عائدة عليه قبل أن تعود عليهم .

فالشيخ على قد أفاد بعض الناس ولكنها فائدة لا تنتمي إلى عاطفة من حب الخير ، فلم يفجع الموت فيه صديقاً مخلصاً ، ولم يرق له من أسدى إليهم البر بحق الوفاء . وفرق بين هذه الحالة وحالة العطاء الذين يخرجون من الدنيا وما تركوا فيها صديقاً يبكيهم . لأن الناس ربما جهلوا قدر أولئك العطاء فلم يفهمهم ولم يحزنوا لفقدهم ، وأما هؤلاء فليس جمود الناس عن بكانهم إلا لأنهم قد فهمهم حق الفهم .

أجرها ، ولا يستحسن أحد أن يستعير منه صحيفة ليقرأها كما يفعلون هنا ، لأن الناس يخجلون من استعارة الشيء الضروري الذي يعتقدون أنه لازم لكل فرد من الناس .

ليست المماثلة من طبيعة المصري ، ولا الاستعارة من دينه . فإننا لا نسمع بالمماثلة في ثمن الخبز إلا نادراً ، ولا نراهم يستعرون الملابس مثلاً ، إلا أن تكون محلاة ونادرة (وذلك في القرى التي تعد الحلى من قبيل الزينة الكمالية) . ولكن النفوس مجبولة على أن لا تحسب حساباً لغير ما يلزمها . والمصري اليوم لا يحس الحاجة الماسة إلى الصحافة . فلا جرم نراه يسقطها من حسابه ولا يفرد من دخله قدرًا يدفعه إلى الصحيفة متى طالبته بحققها عليه .

نقول ذلك بمناسبة موت ذلك الصحفي الذي قال بعضهم في رثائه إنه كبير بالصحافة ، وأنه استمد نفوذه منها ، لنقول إن الصحافة المصرية ليست من القوة بحيث تكسب صاحبها نفوذًا صحفياً كالذي يكسبه بأفلامهم كتاب الإفرنج . وإنه على كون الصحافة الإفرنجية لا تنهى ولا تأمر ، ولا تنصح ولا تزجر ، فالكتاب فيها أكبر شأنًا من الوجهة الصحفية من كاتبنا الذي لا يعول في الصحافة على غير قلمه .

ليس الشيخ على يوسف صحفياً كبيراً ، كلا ولا هو بالرجل الكبير . وإن كنا لا ننسى أنه ولد خاملاً فمات شهيراً . ونشأ نشأته الأولى مترباً ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيهاً .

ولكن هل ذلك حسب الرجل من حياته ؟ أو ليس على المرء إلا أن يسعى لينجح فيذكر اسمه على كل لسان ثم لا يسوغ لأحد بعد ذلك أن يذكره بغير المدح والتبجيل ؟

ذلك ما لا يقوله قائل . فإنما للنجاح وسائل كثيرة وأكثر من وسائله غاياته . وقد ينجح الرجل فلا يكون له حظ من العظمة غير اسمها وزنها . وينجح غيره أقل من نجاحه فيكون نجاحه عرضاً غير مقصود لذاته وكأنه مخرج لما يمتلئ به صدره من الرغبة في النفع وكراهة النقص وحب الكمال .

ولو أن الشيخ على جدد سيرته هذه الأيام لما قدر على أن يعيدها كما بدأها .
ولما كان مستطيعاً أن ينال من السمعة مثل ما ناله بين أرباب الأقلام ، أو قريباً
منه .

أصدر الرجل جريدة الآداب في أول نشأته ، وكان كل من يكتب من أبناء
مصر يومئذ كاتباً كبيراً ، لأنه لم يكن ثمة من هو أصغر منه ، وكان الأدب لذلك
العهد في حضيض من الضعف والتدلي يقرب من الموت . فلا كتاب في البلد
ولا شعراء ، ولا تصنيف فيها ولا قراء . ولم يكن المطابع قد أخرجت دقائق
الأدب العربي القديم فيتخذها الناس معياراً يقيسون عليه مقدرة الأدباء إذا
أعوزهم المثل من كتاب عصرهم وأدبائه . فكان الذوق الأدبي معتلاً والحاجة إلى
الكتاب شديدة . وفي ذلك العهد كتب الشيخ على يوسف فاستحق الثفات
رياضاً بأشأ ، وفتح له ذلك الالتفات باب الأمل ، فلم يقصر في السعي إلى
غايته .

وكان الشيخ على يقرض الشعر ليمدح به السراة والأغنياء ، فلما حصل من
الكتاب على ما يزهده في طرق هذه الأبواب رأى أنه استغنى عن الشعر ولم تعد
به حاجة إليه ، فتركه ومضى في الكتابة . وكأنا صارت هذه له حرفة رابحة
بديلاً من تلك الحرف الكاسدة ، لا أكثر ولا أقل ، فأصبح بعد مزاولتها
عشرين عاماً اخصائياً في الباب الذي اختاره من الكتابة الصحفية . إذا تخطاه
زلت به القدم .

وقد عنف بعضهم عليه في حياته لانتفاضة على رياض باشا ، وقالوا : لقد
رأينا الرجل أياماً لم يبق أحد من أصحاب الأيادي إلا أحسن إليه ثم رأيناه
أياماً لم يبق فيمن أحسنوا إليه أحد إلا قد أساء إليه بقلمه أو بكيد . ونحن
لا ييمنا نكرانه جميل هذا الإنسان أو ذاك ، ولكننا نعيب عليه هذه الخلة . ثم
نحن نرى له بعض العذر في الارتداد على فريق ممن أسلفوا له الخير ، لأنهم
ساعدوه وهو فقير خامل فلما أصبح من أهل الرتب والوجاهة أبوا أن ينسوا
خوله وفقره وظلوا يرون فيه ذلك المجاور القديم الذي كانوا يعرفونه من قبل .
وأبى هو أن ينسى مكانته الجديدة التي جاهد لها ذلك الجهاد كله ، فقلب لهم ظهر

ولقد أراد أكثر من كتبوا عن الشيخ على يوسف أن يستدلوا بوصوله إلى
منزلة يضر بها وينفع على نبوغ عظيم فيه ، وهذا جهل عظيم بمعنى النبوغ ، فما
يليق بهذه الهبة السماوية وهي ثمرة الإنسانية جمعاء وبنيت الخلود بأسره أن
تقاس بمقياس المهارة في الوساطة عند فئة من الناس في فترة من الزمن ، ومن
شاء فلينظر إلى أضراب الشيخ على ممن وصلوا إلى مثل منزلته يجد بينهم من
ليس له في النبوغ أقل دعوى ، ومن ليس هو من رجال العلم أو العمل ، ومن
لم يفكر قط في أن يكون واحداً من هؤلاء . ولكنه مع هذا ينفع ويضر ، والناس
يزدرونه وإن كانوا يحسنون منه ويخشون .

إنما يعين هؤلاء على النجاح نشأة نشؤها لم تجعل لمبادئ الكرامة سلطاناً على
عقولهم ، فخف على أقدامهم وقر الذم ، فنهضوا ، وهذه سيرة العظمة الأجلاء
نراجعها وننعم النظر فيها فنرى أن أصعب ما كانوا يعانونه من العراقيل
والعقبات إنما هو ما أرسدته لهم ضمائرهم وأقامته أمامهم وجداناتهم ،
لا ما يقيمه في طريقهم أعدائهم ومناقضهم . ولذلك يقل بين ذوي الحاصل
الكرمية والسجايا النفسية العالية من ينجح في هذه السبيل نجاح أناس هم دونهم
ذكاء وقدرة وأخلاقاً .

ولا ننكر على الشيخ على ذكاه واستنارته . لكنه ذكاه وخبص المعدن ونور
مختلس كالمصباح الذي يحمله المدلج المتسلل في الظلام . فليس هو من النبوغ
المشرق ولا مما يلحق بسمو اللب وسعة الذهن . وعندى أنه أشبه بالحدق في
حرفة من حرف الكسب ، وأقرب إلى السر المحتر الذي يحتفظ به صاحبه منه
إلى المواهب المباحة التي يشرك فيها غيره ، وهناك نسبة بين هذا النوع من
الذكاء وتلك الحيلة التي يبثها الله في طباع مخلوقاته لتستعين بها على مراوغة
أعدائها والأمن على حياتها .

لو كان الرجل سامي اللب واسع الذهن لكان تقديره للعظمة أسمى وأكبر
من تلك الغاية التي نصبها غرضاً له في حياته ، وبذل كل ما يعز على النفس بذله
لأجل دركها .

البخيل

كان في من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أبخل منه^(١). كان هذا الرجل إذا اشتتهت نفسه الشيء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكول والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر إليه نظرة العاشق المدنف إلى معشوقه ثم رده إلى الكيس وقال: هذا القرش لو أضيف إليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيهاً، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير^(٢)، وهبني تهاونت بإنفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً. فإنما القروش كلها واحدة في القيمة وليس قرش بأعلى من قرش. والشهوات حاضرة في كل وقت، فكأننى أنفقت اليوم بإنفاقى هذا القرش جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال. وفتحت على نفسي باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء، إن أنا وقمتها^(٣) الآن ماتت واسترحت منها وإن آتيتها على ما تدعوني إليه كل ساعة كنت كمن يرمى الوقود في النار ليخمدتها، وكنت كمن يشتهي الفقر ويتمنى الإعدام، وتلك والله الحماقة بعينها.

وكان إذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق ثقب له ثقباً في غطاءه، ولم يجعل له مفتاحاً لئلا يتعود الفتح والإقفال، ويجراً على ذلك الذخر بالكشف والابتدال، وخوفاً من أن تراوده نفسه لفرط شغفه بالذهب على مس جنيته من تلك الجنيهات فيجر المس إلى التحريك ويجر التحريك إلى الأخذ فالإخراج فالصرف، وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى، ويقول إن سلماً أنت واقف على قمته حرى أن تصل يوماً ما إلى أسفله. وما لك أن لا تغلق

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥.

(٢) مال حير أى كثير جدا.

(٣) ردها.

المجن، وكانوا في امتنانهم عليه أحق باللوم منه في جوده لأبيادهم عنده. وإني ليشق على أن لا أجد له عذراً من تقيصة غير هذه، وأن لا أراى قادراً على أن أنتعه بتلك التعوت التي جمع فيها مؤبته كل مزية من المزايا الموزعة بين كبار رجال العالم، يفعلون ذلك وهم لا يؤمنون بصدقه، ما يكتبون، ولماذا؟؟ لأن الرجل ليس بحى اليوم، فهل حقيقة أمس وغد تتغير اليوم؟؟ وهل يسوى الموت بين جميع الأعمال؟؟ أما أنا فلست أعلم كيف يمحو الموت السيئات ويكبر الحسنات. ولا لأى شيء ندع الحكم للتاريخ البعيد الذى يجهل الرجل ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة كما هى عن كتب، وعلينا قبل غيرنا واجب الصدق في تأيينه وتقديره.

إلا أن أحق موقف بأن تقيده فيه السيئة إلى جانب الحسنه هو موقف الرثاء. وأولى الأوقات بأن تتمثل فيه عبرة الحياة هو الوقت الذى تنتهى فيه الحياة. وذلك أمر هدى إليه الناس منذ فقهوا معنى الثواب والعقاب، ألم تكن عقيدة الحساب بعد الدفن من أوليات العقائد التي تخيلها الناس في أقدم الأديان الوثنية؟؟ فلو تغاضينا عن النقائص والمعائب لبطلت حكمة الذكر ولحق الخبيث بالطيب. وما كان التساهل في النقد والمؤاخذة محموداً في وقت من الأوقات، فكيف به في وقت طمس معالم الضمان وضلل الأبصار والبصائر - فحسبنا هذا ولا يبلغن من فساد وقتنا أن يغتم فيه المرء غفلة الفضيلة حيا وميتاً.

وغاية ما يقال أن الشيخ على يوسف جد في حياته وراء مآرب تستهوى أمثاله فاستطاع قضاءها. ولم يستطع أن يكون عظيماً حتى في قلوب أشياعه وأتباعه.

الليل الاعكر سارقاً ينيش القبور عن أكفانها ، وقد غلّك الملع من حراسها وسكاتها ، أو لحسبت أنك تشهد كأنها متحنّتا يقوم عند صندوق النذور مع بأن يد يده إليه فيتخرج من أن يستحل ورائه لئلا يحل عليه قصاص الله وكيف به غيبه ، فإن ألت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ أو يرد إلى الصندوق ما استعاره منه . وقد لا تجد بين ألف بخيل واحداً يجتث في هذه اليمين .

ولكنك لا تجد بين ألف بخيل واحداً يجتث في هذه اليمين . وفي وقتك من تلكم الوقتات اقترض البخيل من صندوقه جنيهاً وآل بالطلاق من عروسه أن لا يدخل البيت إلا والجنيه معه . وذهب إلى السوق فكسح فيها ما كسح واحتمل حتى استرجع الجنيه نصفاً ذهباً . نصف الباقي قطعاً فغيبه . وكانت تلك عادته إذا أهدل الفضة بالذهب . كي تكون كل قطعة من حة صماماً حديداً يحبس فيها ما تحويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتسرّب إلى إحداها نزعات الجود ووساوس النفس الأمارة بالجميل ، والغبث يسره . انظر بنفسه وتهمها بالسماخ عن القليل اللطيف مداعبة لها وإدلالا عليها . وإلا فقد وثق وثوق المؤمن بإيمانه أنه لو اتناثت عليه تفقد المشرفين والغريين ذراهم ودراهم وسحابت لا سولت له نفسه أن يتفق سحتواً منها في غير ما يرفع التلّف جوفاً والملاك عرباً ، فما تمهل حين صار الجنيه في يده إلا أن أخرج إلى الصيرفي فناروله إياه مقرّفاً وقال أعطني به جنيهاً ذهباً .

فإن له الصيرفي : هات خمسة مليمات .

قال البخيل : وعلام هذه المليمات الخمسة : إنك تأخذ هذا الجمل من الناس على أن تقدمهم الفضة بدل الذهب . وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهباً ، أفلا تحمد الله على أنني صفحت لك حقى وجنتك ساعةً إلى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفي على أن وكزه في صدرة وكزه قدفت به إلى الجانب الآخر من الطريق . فما عمل الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث قدفت به الكرة صامتا والصيرفي لا يشك في أنه ينتظر أن يمر الشرطى فيستعديه عليه . فمر شرطى

(١١) الهات .

الشر من بابه وترفع الفتق من أوله وتتلاقى الأمر في بدايته قيل أن تتصرف عليك نهايته !! وكان يرعى الفتر من بعيد فيظنه أدنى إليه من حبل الوريد . فالتفر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، وما دام فقيراً فالاطمئنان محال عليه .

ولقد أئنا أن نسمى البهلاء عبيد الذهب . وكان الأضرب أن نسميهم عبيد الفتر لأنهم يضحون للذهب للفتر . وهم يحبون الفتر ويخشونه . وكبرونه فيعيشون عيشة الممسين والبؤساء مع فككهم من الثراء ، ويخشونه فيفقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاه .

فإذا سقط الجنيه في ذلك الصندوق لا بل في تلك المفرة ، كانت تلك السقطة آخر عهدك بالهراء والثور ، وآخر عهدك بالميات والبروع ، وآخر عهدك بالأنامل والككوف ، وهوى من ذلك الصندوق في منجم كالنجم الذي كان فيه ؛ وشتان المهذ والمحد . ومات مية لا تنتشره منها إلا يد الوارث إن شاء الله . وقد فعل .

ولو أتبع تلك الجنيهاً أن تتحدث في ذلك السجن العلق عن ماضيها كما يفعل السجناء ، إذن لسمعت من أحاديثها العجيب العجيب . بين جنيته رحائه جواب ، يتنقل بك من السريد إلى الكاب ، ويتنقل عن الأعاجم تارة وتارة عن الأعراب . وجنيه فرار عذار ، ما سلم بالليل إلا ووع بالهار ، وجنيه نشأ في الحانات والبراقير ، فاسترق رنته من رنات الكورس والقوارير . وجنيه عاشير الأبرياء والجناة ، وراقق النساك والعوارة ، وجاور العوزين والسراة ، وور بالمساكين والعامة ، وطف من الأصدقاء إلى الأصدقاء ، ومن العداة إلى العداة . وكلها تشهد شهادة لا يجان فيها أن مالها الأخير أقدر من قصص الديباج : من الأبرار والفجار ؛ وأخبر من صاد النصار ، من الشطار والأحبار ، وأول من راض هذا الممدن السيار ، على السكينة والقرار .

ولو أتبع لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وأجانه الضرورة إلى الاستعداد منه - وناعيك بها من ضرورة - إذن لحسبت أنك تشهد في جنتك

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعا شديداً ، وكان جزعه لأنه سموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة ، وكان ذلك كل أربه من الحياة . واستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم في أوصاله وعظامه ، فأمره أن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لا فلسفة . قتملص بحايل الداء وتملق الطبيب عسى أن يعدل عن وصفته ، والداء يأبى إلا لحوم الطير والطبيب مصرّ على رأيه . ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يزدردرها بعملية حساب وهل أصعب في الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الأرقام الصماء ؟؟ ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحاً أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يبرأه الغذاء . وما ذاك إلا لأن الطبيب داواه بالطب الذي يداوى به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسى أنه يداوى داءين لا داء واحداً ، وفاته أن داءين أحدهما مزمن والآخر طارئ لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضاً غير أمراضها وأن الغذاء الذي ظن أنه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضاً على مرضه . فقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق هذه الدنيا ندمه على تلك الدراهم التي أطاع فيها الطبيب جزافاً . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقده سوى حياته ؟؟؟

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه ، فكان لا ينقضى له يوم إلا على نادرة ظريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين ، وكنت أستظرفه فأتودد إليه وأشابعه على مذهبه فلا أقتصد في إطراء الاقتصاد ولا أبخل بكلمة في مدح البخيل ، وإذا طارحته الأدب أو طالعت معه في الكتب لم يكن أحقر على لساني من أسماء هرم بن سنان وحاتم طي وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب ، فأشنع بهم وأسأل الله السلامة من مثل مصيبتهم في

وثان وثالث لا يدعوهم ولا يبرح مكانه . والناس يظنون أنه يتحدث نفسه بانقضاء على الصيرفي فيوسعة ضرباً ولكناً فيخطوته وبلومونه وينصحون له بأن يعتذر إليه ويسترضيه . وبيننا هو كذلك إذ أقبل على الصيرفي شيخ ريفي ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده إلى جيبه وصاح به : رويدك يا هذا . انك تريد أن تبدل جنيتها وهذا اليهودي يتقاضاك خمسة مليمات ، وأنا أقنع منك بليمين ، فهالك الفضة وهات الذهب . والتفت إلى الصيرفي فقال بارك الله فيك ، فقد قيضت لنا رزقاً كنا في غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا . ثم ولى والصيرفي يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكأني بك أيها القارئ تظن أن الرجل آتى بالطلاق وحرص على أن لا يبين فيه وفاء لزوجته وضنا بذات فراشه واحتفاظاً بأم بنيه ، فإياك أن تظلم الرجل بهذا الظن . إن الاحتفاظ والضم بشيء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الأيمان كفارة وأصعبها كلفة ، فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان في الصيام من الاقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختر بين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الأولاد ومصاريف القضايا ثم لا بد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق وهذه الزوجة لا بد لها من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق وهذه الزوجة لا بد لها من مهر قل أو كثير ، دع عنك الأعراس وما تستدعيه من الخروج عن العادة في الإنفاق ليلة أو ليلتين . فإذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيذاً لا يستطيع منه فكاًكاً . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق . والحقيقة أنه لا يجتنب حدود الله إلا لأن اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوماً إلى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه مرة . فإذا استعار منه في الصباح سدد له الحساب في المساء .

وقيل لك إن هذه الدابة منفردة بهذه الأظوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر إلى تلك المدينة أو تمنى أن تساق إليك تلك الدابة الغريبة في تكوينها الشاذة في أظوارها . التي تعد من الناس وليست منهم . وتجانسهم في الصورة والقوام ولا تشاركهم .

إن الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . فهل العلاقة بين البخل والمال إلا كالعلاقة السطحية بين العلم والأوراق ، وبين الشجاعة والسيوف ، وبين الزمن والساعات ؟؟ وقد وجد البخل قبل أن تحتجن الأموال وتسك النقود ، كما سلف العلم قبل أن تصنع الأوراق ، تقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ، ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الأموال وفنى من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء ، لما قدمنا من أن البخل شيء يعزل عن المال .

وإنما البخيل عاثة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بني جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقاً عجيباً كل حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع في طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخل عاثة واحدة بل هو جملة عايات مثلة في هذه العاثة . فهو مزيج من الجبن الدقء الذي يصور للمرء الخطر المستحيل كأنه قضاء حتم لا مرد له . ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والنعيب . وتلحق عنده مراغة الهوان بمقام السؤدد . ومن البلاد التي تمت فيه كل أريحية حتى لا تمتاز في نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه .

وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتعدنوا بألاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقا قبل أن يمتتوه مجتمعاً . وغاية الفرق بيننا وبينهم أنهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويضمون حقه ويدوسون حرمة ولربما ظلوا دمه وتبراً منه ولاة تأره . وأما في مدينتنا هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها محل وبيرم ، ويؤخر

عقولهم وأموالهم . وأقول : ما أجدر ما دراً بتمثال من الذهب !! فيقول أي وأبي ! لولا ما في ذلك من الإسراف .

ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكة . فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرجهم وأحقهم . بادوا وخلفوا وراهم للناس مثلاً سيئاً وقدوة سيئة . وكانت له في أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما يتمسك به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فواقه . ما نكبه ولا قتلهم إلا الإسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذروا أموالهم في الصلات فحسدتهم الموصول وسخط عليهم المحروم . فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم في أرواحهم وأموالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذوؤهم . ولو أنهم بخلوا لبانت عنهم الأنظار وخرست عنهم الأفواه . لأن من نعم الله على البخلاء أنه يجمع لهم بين مزيي الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الأمان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما ينتغون ومن الفقر القناعة بيسير ما يأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لا يجمعها الله إلا لمن رضى عنه من عباده !!

بيد أنني في صحبتي له كنت لا أستطيع ساعة أن أفكر بأنني أصاحب إنساناً له على مثل الذي لي عليه . وكنت أحمل نفسي على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عيني فلا تدعن . وكيف وهي لا تحس أدنى اختلاف بين ملاطفتي إياه وملاطفتي الكلب أو القرد الأليف ليأنس بي ولا ينفر مني ؟؟ ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعند البخلاء يضاعف وإياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف إلى رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فأخبرك بأن في مدينة كذا دابة تموت من الطوى" وبين يديها الطعام الفاخر ؛ ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه إلى الأرض الخسنة ، وتطلق في الفضاء الفسيح فتزجر وتن ، وتسجن في قفص الضيق فتضطرب وتطمئن .

اللغات والتعبير

لولا أن الناس من أصل واحد في الخلق ، ومن لحمة قريبة في النسب ، بحيث إن ما يعرفه أحدهم يعرفه جميعاً وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدت عنهم اللغات في كتابة أو كلام ولا اعتقلت ألسنتهم عن كل فهم وإفهام .

ولو كان التقارب بينهم تاماً ، والشبه في السن والميل والسليقة محكماً لما افتقروا إلى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم في روعه ما يقوم في روع الآخر من غير حاجة إلى الشرح والبيان .

ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضح والمفسر لما عساه أن ينبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير وجداناته . أما حالته النفسية فهي أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها إذا حاول إخفاءها .

وما كان الإنسان قبل آلاف الحقب أيام هو بعد بهيم سارح في مراتع العجمة - يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ؛ ومن صدقه أو مكره ومن أمانته أو خيانتته ، على شيء غير ما يتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان إذا كلمه لم يكذب بكلامه ويأمن اغتياله أو (١) يطابق مدلول أقواله ما وقر في قلبه من مغزى إشارته ومعنى ملامحه ، فهو يأتمن السليقة ويرتاب في اللسان . وهذا سبب إعجاب الناس بالأشعار والخطب والكتب التي

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

(٢) أو هنا بمعنى حتى .

ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع إليها بيد فيها المال ويد فيها جبينه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك . وإنا لعمرى لمن الخصال التي انحطت بها المدنية عن الهمجية ، وما هي بالقليلة ، فكم من خصلة في المدنية يستحب المدني الهمجية لأجلها ويأنف الهمجي بحق أن يتصف بها ؟؟

أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم أنه لا يربحك من هذه الأفكار إلا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجد ولو على البعد من يعانى مثل هذه الأفكار فيحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ويسبح معك برهة في عالم لا ألسنة فيه ولا آذان .. !!

يتحدث الرجلان وبينها تنافر في الأمانى والأذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويمتص غرار حجته ، ويستنفد أفانين حيلته ، ويحسب أنه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وإن بينها من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ؛ ويجلسن غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا في الطوبة ، فيقضيان الساعات لا ينبسان إلا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما إلى أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته في صدره . وما منا من لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحياناً مقدار حدانة لغات الكلام .

وإني لأصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التي تقوم بوجودانات الإنسان ولا يحس بها ، والتي يحس بها ولا يعبر عنها ، والتي يعبر عنها ولا تصل برمتها إلى عقل سامعها ، فيتأكد لي أن الناس في حاجة إلى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوى . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التي تقع بينهم أماً وأفراداً ، وتزول لو كان التفاهم بينهم كاملاً .

فليتخذ الناس اللغات رموزاً وإشارات تتوب عن المعاني لمن يعرفها ، ولا تمثلها لمن لا يعدها أو يأنس بها . وليعلموا أنهم ما داموا لا يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وإن نطقوا . وإنما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الإشارة بلسانه أو براعه . ولن تفنيه هذه الإجابة عن أن يكون سامعه ممرناً على التخمين والتخمين . وأما من أخطأه هذا المران ، فسيان عنده الإشارة باللسان ، والإشارة بالبنان !!

مصدرها السليقة وامترائهم فيما تبعث به يد الصنعة . لأنهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ إلى سلاتتهم ويصيب مواعده منها ويحرك من نفس القارئ مثل ما حرك نفس الشاعر أو الكاتب ، فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون إليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم ؛ وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمل للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفى وجهه أو يبديه في غير صورته ، أو يرانيهم بتجميل هيئته وتدميم طلعتة فيخالطهم الشك فيه ويعرضون عنه . إلا إذا كان القارئ من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فإنه يقبل - كل قول على علته ، فلا تمتعه المماذقة عن المصادقة ، وتكسر خزانة نفسه ببرد اللص أسهل مما تنفتح بمفتاح صاحب المال .

ولقد واه أحسن جولد سميت إذ يقول في إحدى رواياته : « لسنا نستعمل الكلام للإفصاح عن حاجاتنا بقدر ما نستعمله لمداراتها » . فقد طمس الكلام إلى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الأكاذيب . وضل من المهتمين أكثر مما هدى من الضالين ، وإنك ربما تقترب من الرجل فتطلع من سيماءه على ما يريبك فتتوجس منه فإذا سألته وكان من ذوى اللباقة والبراعة في المراء والمخادعة ليس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فيضحك لسان جانه ويغشك لسان مقاله . وكان آمن لك لو أنك صدقته ساكتاً ولم تصدقه ناطقاً .

هذا فيما يملك الناس أن يبينوه أو يكونه . وإن هناك لأفكاراً تلتوى على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق في هذه الأفكار على الأعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الأبهكم ؟؟ لا فضل ولا زيادة .

ومن الأفكار ما هو أعوص من أن يعبر عنه ولكنه أقوى من أن يكتم : السكوت عنها ممض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام إلى أعماقها فيخرجها ، وليست هى بالتأفة الضئيلة فتدفعها في مهدها وتدرجها . وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم تجتمع فليس بين

على بركة الله أشمن للتعب والعمل وأخففها عنى بما أرجوه من المنفعة لى
وللناس .

فكان أول من سنع لى فى صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد
تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر
فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يمين على ألواح
البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤومة . ولو كنت بمن
يتطهرون لأغلقت دكاني لساعتي وجزمت بالفشل ولكنى تصبرت ولبثت ألاحظه
وهو تارة يحلق إلى وتارة يتهجمى العنوان حرقاً حرقاً حتى أتى على حروفه بعد
شق النفس ، ثم قال لى وكأن روحه تصعد مع كل كلمة :

أأنت صاحب الدكان ؟ قلت نعم . قال أنت بعينك ؟ قلت أنا هو بعيني
لاسواى .. قال وتبيع قوة الإرادة ؟؟ قلت من جميع الأصناف والأثمان . قال
ولنا أيضاً تبيعها ؟؟ .. لاتواخذنى فإنى أحب أن أسأل .

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها .

قال : فأنا أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر- وأجىء فى هذه الساعة
فيتقلنى النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الإرادة أنسلط به على
النوم ويقوينى على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا الصنف من الأصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن
باعه الأخلاق لانقل فى الأمانة لصناعتنا والحفاظ بدمتنا عن الصيادلة . وقد
تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافاً أصلح
لك من هذا الصنف ، فهل لك فيها ؟

قال أرنبيها ..

فسردت له أسماء الأصناف التى فى الدكان وأريته كل صنف منها فى علبته ولم
آله تفصيلاً لفوائدها وترغيباً فيها ، وبسطت له أسماء الإرادة المانعة وخواصها
منع الناس من مقارفة العادات الضارة ، من التدخين إلى المقامرة ومن الكذب
إلى الرقية . وتختلف المقادير والأثمان باختلاف الإدمان والأزمان .

قوة الإرادة

خطر لى أن أبتدع فى التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر^(١) بالأخلاق
النافعة للمصريين . فاقتديت بأولى الخبرة والنظر البعيد من التجار إذا عزموا
الاتجار بسلعة من السلع فى بلد من البلدان ، توخوا حاجة السوق واستقصوا
عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد فى رواج
بضاعتهم . فتوخيت حاجة السوق فى مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت
عن الخلق الذى ينتقصهم أكثر من أى خلق سواه فعلمت أنه قوة الإرادة فعولت
على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الأخلاق .

وراقنى هذا الخاطر فمנית نفسى رواجاً سريعاً وربحاً جزيلاً وأنى سأكون
أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين ، لأن حاجتنا إلى
الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولاسيما قوة الإرادة . وفى مصر
كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليهم نعمة الأخلاق فغنوا
فيها عن المزيد . وذهبت أحصى أرباحى ومكاسبى فى السنة الأولى فالسنة
الثانية وفى الستين التالية فضاقت بها الحصر ولم يستوعبها الحساب . وسرنى أن
أحلم بأنه سوق لا يكون فى الاثنى عشر مليوناً الذين يسكنون وادى النيل
مصرى إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارنى ، فقلت إنها والله للتجارة التى
لاتبور .

واكترت الدكان فى أوسع أحياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان
وزخرفته أياً زخرفة فصنحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه
من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ماخط الكاتبون كتبت عليها
« هذا دكان قوة الإرادة . يعطيك على نفسك سلطاناً لا حد له » ثم جلست

(١) من مقالات الشذور التى طبعت سنة ١٩١٥ .

فلاناً فقد عرفه وفحصه قليلاً فرده إلى مشمئزاً وهو يقول : خذ يا شيخ ! فقد سئمتنا هذا السخف والتدجيل وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضاً ؟؟ وإذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطراً من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقي فأنت لاشك الذى يقال فيه أنه عذر نفسه .. فخل عنك هذه الأضاليل ولا يغررك ماتقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد ، فلو كان في هذه التجارة سِرٌّ ١١ غفل عنها الناس إلى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهذار وندمت على انتفريط في العلبة ، وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمي بأنه ممن يميزون أمثال هذه الأصناف ويحسون نقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفى عنى غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بينى وبينه منافسة عليها . ولكنى وقفت فيها بعد على سبب ذلك وهاك بيان ما وقفت عليه :

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدّر لها الريح الطائل والردء السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الأغلاق النادرة : تزيينها كثير والغش فيها جائز ، وذلك لأن عارفيها معدودون ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرواق . وليس بالثمرة والجوهر . فقرّر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص نفسه بذلك الربح فما وفى دون أن فتح له دكاناً تجاه دكانى وتأتق في تزويقه وتنظيمه ، وكتب عليه « هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة . يعطيك سلطاناً لا حد له على ملذات الحياة »

فتح الدكان واستأجر له دلالاً سليطاً يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الإرادة الصادقة ، حتى على الغنيمة قبل فواتها ؟؟ ياعشاق العزيمة الماضية ، هلموا إلى أعظم معمل للعزيمة الماضية من معدنها ، هيا إلى أرخص سلعة سعراً وأسرعها فعلاً وأصمدها على الطوارئ

وأصناف الإرادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبراً على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق همامات الأنفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه . وهى أعلى من الإرادة المانعة لأن القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحذور . وأعلى من هجرك ماتواخذ به فطرك . اتحمد عليه . وعدادت له أساء نفر من عطاء الرجال الذين دفعتهم قوة الإرادة ودفعت بهم أمهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرا . وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغى إلى بما بقى في حراسه من الانتباه ، فأطعمنى إصغاه فى أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق إعلان عن الدكان . ورأيت يطرقت ملياً ثم قال : ولكن من يضمن لى جودة الأصناف ويكفل نقاوتها من الأخلاط والأوشاب

فقلت فى نفسى سبحان الله : هذا الذى يذهب كل ليلة إلى الخمار لا يسأله أيسقيه ساء أم خمرًا ، ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الإرادة إلا بضامن ؟؟ ولكننى جاريتته وقلت له . لاخوف عليك من هذه الجهة ، فسأعطيك علبة نوذجاً فجرّبها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار .

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إلى فى اليوم الثانى مقيماً صاحباً فجلس بتؤدة وأدب وقال لى : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدرى أفضّل العلبة ذلك أم لنفاد المال منى . وكنت إذا نفذت المال منى اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدرى أيضاً أكان ذلك قوة فى الإرادة أم حياء من الرفض . وكنت لا أستحي فلا أدرى والله أكان حيائى خلقاً جديداً اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة .

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسأل يوماً سيحرم على أننى سألت التجار تاجرًا تاجرًا فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه وانفقوا على أنهم لم يسمعوا به فى الشرق ولا فى الغرب ماعدا التاجر

مواضع الملاحظة

مهما تعمقوا في تعريف الملاحظة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها^(١) ما يشبه قولهم في السحر أو الروح واليوم الآخر ، فلا أخالها ترد في بادئ أمرها إلا أنها شارة في أظهر عضو من الجسم - أعنى الوجه - كانت ولا تزال في بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية في جسم الرجل أو المرأة .

إن أظهر مآظهم الملاحظة من معارف الوجه في العين والشفة . لأنها الجارحتان اللتان ترسم فيهما حالة النفس وإحساسها بغاية الوضوح والجلال . وبها تختلف أمة عن أمة وجنس عن جنس . فالعربي والمصري والصيني والإنكليزي والألماني وغيرهم من الملل والأمم يتماثلون في كثير من ملامح الوجه وقسماته ويندر أن يتماثلوا بالعيون والشفاه . وكذلك الرجل والمرأة . وأصدق وأجز ما يقال في هاتين الجارحتين إنها نافذة النفس ، فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا للناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا .

لا بد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون . وقل مثل ذلك في الغادر والأمين ، والفظ والوديع . والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فإن لكل منهم نظرة غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فمعلومة ملحوظة ، فاعين بهذه المثابة هي عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولا بد من صلة بين الشفة والإحساس لأن الشفة هي منتهى أعصاب الوجه وهي أدق أعصاب الجسم . فلا تهيج في الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلا يبدؤها أثر على الشفة . فتفتت أو تهدل أو تنقبض أو تتقلص أو ترتجف . وترى

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

أثراً ، إرادة لا تتكاهدها^(٢) عقبة ولا تصدها عن غايتها طلبية . فمن اشتبه السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويغاف عندها كل جلاوة ، ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة إرادتنا فأصبح لا يحفل بالعذل والملام ، ولا يبالي بالضميم والسقام . ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الإملاق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك المنة . ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مرید إرادة ، ولكل إرادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الأسعار ؛ فاليوم بدرهم وغداً بدينار .

فإن شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، إذ من أين له أن يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع إرادة الجد والعمل ، وهو يبيع إرادة اللهو والكسل . ولكن سرعان ما أخطأ حسابي وارتد على تكهني . وما راعني إلا الجماهير على أبوابه يتكوفون^(٣) وبضائعه في كل واد تسير ، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادي ، ولم ينته الشهر حتى فتح دكاناً جديداً إلى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له في الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار .

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلية لذلك السكران فكانت أول وآخر ما صدر من دكاني . ومرت أيام وأيام . وتلتها شهور وشهور . وتمت ثلاث سنوات مجرمات^(٤) ، وأنا بتلك الحال أراقب التلف يدب في بضاعتي وأعاين السوس ينخر في إرادتي - وما الإرادة إلا كالسيف يصنؤه الإهمال ويشحذه الضراب والتزال - فدهشت وغضبت ، ثم صبرت وتعلت ، ثم يشست وسلمت . فأقفلت الدكان وطلقت التجارة . وهأنذا أسأل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح .

(١) تكاهده العقبة وقتت في طريقه .

(٢) يجتمعون .

(٣) السنة المجرمة الكاملة .

غير اتصالها بالإحساس ذلك الاتصال الذي معنا إليه لما أبصرنا لها أية مزية سواها . فلماذا لانقول إن الأصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر أجزائه للناظر ؟؟ أفي ذلك بخص للجمال ؟؟ ما الجمال إلا صبغة لاتفارق الجسم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته .

هذا كلام لايرضى عشاق الجمال ، وليس يروق هؤلاء العشاق أن يكون حبهام له نوعاً من جس النبض وفنا من الفراسة . فإن كان إرضائهم لا بد منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ، وأنتا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الأجداد .

الإحساس في الشفة يتوق إلى مقابلة مثله ، لأن الإحساس يبلغ فيها أشده - وهذا هو الميل إلى اللثم والتقبيل .

نعم إن الأعضاء كلها تميل إلى الممارسة ، ولكن الميل إنما يكون على قدر إحساس كل عضو . فلا تميل اليد إلى اليد كميل الشفة إلى الشفة ، لأن الفرق بينها في الإحساس كالفرق بين المنة والفتنة .

وقد وضعت هذه الحساسية في الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة إلى خاصة ظاهرة تجيد له جس الأشياء قبل وصولها إليه ، ولهذا نرى الأعمى أكثر مايعتمد في جس الأشياء على شفثيه لأنه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر في جسمه بما هو أطف على المس من شفثيه .

فالشفة هي رجمان الإحساس وبجس العواطف . وإذا كان في الإنسان خاصة تتصل بالإحساس فهي أخرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصة .

فقليلاً مايلتبس عليك الصابر الكظوم بالنلق اللجوج أو الأريب الكيس بالحقيقة الأبله . من التأمل في شفاههم وهيئة أفواههم ، وربما التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو ولكنهم لايلتسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤلنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذي شوقنا إليه منظره . ووجه أقل منه جمالاً وصباحة وأخفى روعة ورواء لكنه يسبينا ويشير بلاهنا ويستولى على إعجابنا . وهذا ما نعلله أحياناً باختلاف الأذواق أو خفة الدم ، على أننا لو أنعمنا النظر في ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ماتسميه تارة باختلاف الأذواق وتارة بخفة الدم هو معاني تتضمنها العيون والشفاه ليست هي من جمال الصورة ، ولكنها هي شطر الجمال الأكبر . وهي التي تفيض على ذلك التناسب الهندسي المملول روحاً حياً جذاباً .

إن لكل عضو جماله الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لايجمل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال

غلطات فردية يحاسبون عليها وحدهم ولكننا لانجيز لأنفسنا أن نتسكت عن سرقة تلتصق بالامة على غير علم منها فيلزمها منها سبة في فنونها وغار على أخلاقها .

أما الفكرة التي بنى عليها التمثال فمأخوذة من صحيفة مصورة نشرت في أوائل الحرب العظمى صورة رمزية تمثل موقف انجلترا حيال فرنسا . وكان الجيش البريطاني في ذلك الحين يستكمل أهبطه ويرسل المدد إلى فرنسا فرقة بعد فرقة فتمثلت الصحيفة هذا الموقف في صورة رمزية هي صورة الحرية تضع يدها على رأس الأسد البريطاني الرابض وتستنهضه للمعونة ، وهو يتحفز من مريضه في بطء رصين وتعازم مخيف ، وهذه كمالا يخفى على القارئ هي فكرة تمثال نهضة مصر بعينها لـ لا أن لهذه الصورة معنى وأن الصورة كما اقتبسها مختار افندى لامتني لها .

فأما معنى هذه الصورة فظاهر لمن يعرف أن في فرنسا تمثالا للحرية كاد يكون من الأعلام الفنية على الأمة الفرنسية وأن رمز الأسد يدل على الدولة البريطانية بين الدول كما كان يكتفي بالدب عن الدولة الروسية والنسر عن الدولة الألمانية . ولا نعلم ما هو أدق في تمثيل استنجد فرنسا بانجلترا من تصوير الحرية تهنخوة الأسد ، ولاسيما حين نذكر أن فرنسا كانت تنادي في هذه الحرب باسم الحرية والمدنية وأن انجلترا كانت في ذلك الوقت بالأسد الرابض المترفق أشبه منها بالأسد الصائل المهتاج . فالفكرة على هذه الدلالة دقيقة والتمثيل جميل .

وليست كذلك فكرة « نهضة مصر » لأننا لانعلم ماذا تمثل الفتاة فيه وماذا يمثل أبو الهول . فإن كان أبو الهول هو مصر الناهضة فمن تكون الفتاة المائلة بجانبه ؟؟ وإن كان أبو الهول هو مصر الأولى فما معنى حركة تاريخها الباقي وهو مصون بجديد سواء نهضت مصر الحديثة أو لبثت قيد الجمود والهوان ؟؟ ونعود إلى تفسير آخر فنقول إن الفتاة هي مصر بتاريخها القديم ونهضتها الحديثة فهبها كذلك فما شأن أبي الهول ؟؟

ومن ثم ترى ان فكرة التمثال مسروقة أو مسبوق إليها وأنها على ذلك غير متقنة . وهذا هو التمثال الذي يقيمونه باسم الأمة المصرية ليصور نهضتها

تمثال نهضة مصر

في ميدان (باب الحديد)^(١) حيز من الأرض بينون فيه تمثال نهضة مصر^(٢) ليكون غداً عنواناً خالدًا للفن المصري ومثالاً باقياً لما يفهمه المصريون من مقدرة الفن ومن معنى التخليد بآثار الفنون .

وتتمثال نهضة مصر هو كما يعلم القراء من صنعة الشاب المجتهد محمود افندى مختار أحد شباننا المشتغلين الآن بالفنون الجميلة . وقد رحبنا بصنعة ورحبت بها الأمة يوم عرضت في معرض باريس وسكتنا يومئذ عن عيوبها وعمما فيها من مواطن الضعف لأننا أردنا أن نرى فيها باكورة يانعة يحق لها التشجيع والتحييد وأن تعفيها الأفلام من النقد المحص حتى تتضج وتقوى على احتمالها والانتفاع به . فأما وقد عَنُّ هُم أن يرتفعوا بها عن قدرها ويحملوا على الأمة زينها وشينها فقد وجب أن نقال فيها كلمة على غير ذلك المنحى الذي قولت به عند ظهورها . فالיום لانرى صنعة مختار افندى أماننا ولكننا نرى ذوق الأمة وإدراكها يراد بها أن يمتلا إلى ما شاء الله في صورة ذلك التمثال . فمن الواجب أن نبرئ ذمة الأمة بكلمة نقد لا ننظر فيها إلى تشجيع أو مجاملة .

فكرة التمثال مسروقة . وهذا أول ما ينبغي لنا أن نتحرى التنبيه إليه وتتوفاه . لأن مصر المقدسة بفنونها وآثارها لا يحسن بها إذا هي شاءت أن تصور نهضتها الحديثة أن تحتلس الفكرة التي تصورها بها اختلاساً من فضلات الفن في أمة أخرى ، وإنها لبئس النهضة نهضة تسجل في تاريخ الأمم بفكرة مختلسة .. وليس بنا ههنا أن نشهر بسرقة لمختار افندى فإن سرقاته وسرقات أضرابه

(١) نشرت بعدد جريدة الأفكار الصادر يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٢ .

(٢) نقل هذا التمثال من مكانه في السنوات الأخيرة . ووضع مكانه تمثال قديم ضخم لـ (رمسيس) . كما تغير اسم الميدان . (الناشر)

فقر في الادراك لاحاجة بنا إلى التسليم به . فاجعلوا تمثال نهضة مصر باكورة
محمودة وأفيضوا عليه ما يروكم من التشجيع والاستيثار ولكن لاتنصبوه في
الميادين العامة ، إذ ليست ميادين الأمم محلا لعرض خطوات التدرج في تعلم
الفنون وترتيب النماذج في أطوار مراتها . محل هذا في مدارس الفن أو في
المتاحف الخاصة . أما الميادين فلاتسع لغير الأعمال الصحيحة التامة التي
تجارى الأمم في حياتها وتستمد حقها في البقاء من المنارة الخالدة لا من
التفاضى والمحاباة .

لا لهذا الجيل وحده بل لكل جيل يأتي عليه في المستقبل ، ولا لمصر وحدها بل
للعلم قاطية .

وفي التمثال عدا هذا عيب آخر يحسب من عيوب النظر الفني والنظر
التاريخي معاً . ذلك أن أبا الهول المصور فيه لا يشبه في شيء من ملامحه
أبا الهول القديم الذي بناه الفراعنة وإنما هو صورة منقولة عما في معابد
البطالسة من هذه النصب ، وإنه لمن الخطأ في فقه الفن والتاريخ أن يختار
لتصوير نهضة مصرية نصباً بنته في مصر أسرة أجنبية وعندنا تمثالنا ذاك العريق
المهيب قائم لمن يريد النقل عنه بلا حاجز ولا رقيب ، ولكننا نحسب صاحبنا
مختار افندى لما عقد النية على إخراج تمثاله رجع إلى كتاب المسيو ماسبيرو وفتحه
على صفحة تماثيل أبي الهول فاختر أقربها إليه ثم أقفل الكتاب وحمد الله على
الظفر بنموذج سهل لا يكلفه انتقاء ولا أجراً !

وعيب آخر في التمثال أنه يوهنا كأنما أبو الهول الرابض كان رمزاً إلى
الجمود والتأخر ، لأنه يتخذ من نهوضه وتحامله رمزاً إلى الحياة والتقدم وليس
أضل من هذه الفكرة لأن أبا الهول قد بنى رابضاً هكذا في دولة مصرية كان لها
من البأس وعلو الكعب في الفنون والصناعات ما لم يكن لدولة غيرها في تاريخ
الأسر العشر الأولى . وقد أرادوا أن يرمزوا بربضته هذه إلى الركابة والثبات
والمهابة فليس من دقة المغزى الفني أن نقابل الثبات بالجمود والهيبة بالمذلة ،
وإلا فلو شاء أحد أن يقارن بين أبي هولنا القديم وأبي هول النهضة الحديث فأى
معنى يتجلى في هذه المقارنة ؟

كل هذا - لابل بعضه - كاف لفتح الأعين وتنبه أصحابنا الذين يحسبون
أنهم يكرمون الفن أو يشرفون مصر بإقامة هذا التمثال مقام العنوان الخالد على
نهضتها وشعور الفن في نفوس أهلها . وما هم بمكرمين الفن فيه ولا بمشرفين
مصر ! إنما هذا عنوان على فقر في الفن قد نسلم به طائعين لولا أن يضاف إليه

أن يستشف منها نيته وكمين قوته . وهي عادة ترجع في الحيوان إلى غريزة حب الذات والحيلة لسلامتها ، وترقى في الإنسان وراء ذلك مراحل شتى .

ولا أظن هذا الميل وجد في الإنسان عبثاً ، أعنى به الميل إلى رؤية أولئك الذين يسمع عنهم ما يدهشه ويلفت عنايته . فلا بد أن تكون ثمة صلة بين البواطن والظواهر ، وبين قوى النفس وملامح الوجه . أقرب مظاهرها إلى الحس الفرق بين نضرة الصبا وغضون الشيوخه ، وأخفاها الفرق بين نظرة العالم ونظرة الجاهل ، والاختلاف بين سمة الرزانة وسمة البلادة . وصدق لافتر منشئ الفراسة الحديثة إذ يقول إن بين لحظات الفيلسوف ولحظات النجار الساذج تبايناً لا يستطيع إنكاره ، فإن لم ينفذ العلم اليوم إلى سر هذا التباين أو تعذر على الباحثين تقسيم حدوده وترتيب أنواعه فليس لأحد منهم أن يجزم بإنكاره أو يقلل من شأنه . وربما كان تقسيم تلك الحدود وترتيب تلك الأنواع مستحيلاً ، بيد أن الفرق بينها يبقى مع ذلك ثابتاً بحققا كثبوت الفرق بين الأجناس البشرية مع استحالة تمييزها بفواصل قاطعة في العصر الحاضر .

اشتغل لمبروزو العالم الايطالى الكبير بهذا البحث في عصرنا هذا وألف فيه كتباً عدة أشهرها كتاب « الرجل العبقري » وكتاب « الرجل المجرم » وفي كلا الكتابين يثبت المؤلف علامات في الوجوه والأجسام يستدل بها على العبقرية أو طبيعة الإجمام . ولقد استرسل في التعميم حتى تناول الجسم جارحة جارحة وأظهر ما يتوسمه فيها من الخواص المميزة . فأتى بحقائق لانقول أنها كل الصواب ولكننا لانراها كذلك كل الخطأ . فإلى أى حد يا ترى تفيد حقائقه وتجدى ملاحظاته ؟؟

أسأل هذا السؤال وبين يدي صور أربعة من كبار المجرمين : أربعة لم نسمع بأبشع من جرائمهم وأتامهم في بلدنا هذا وفي وقتنا هذا - تهاقت الناس على صورهم كما يتهافتون على صور العطاء . لاحبا في اقتنائها ولا إعجاباً بأصحابها بل لكى يروا كيف تكون تلك الوجوه التى تخفى وراءها قلوباً تعيث فيها شياطين الجرائم وأسرار الدماء وتستقر فيها الجيف في هاوية عميقة من

رَبِّياً وَسَكِينَةً

« بين لومبروزو وأنتوا فرانس (١) »

من عادة الناس أن يربطوا بين المرء وظاهره بسبب ، فإذا أعجبتهم أو أدهشتهم مقدرة فائقة من رجل أو صفة شاذة في خلقه تاقوا إلى رؤية وجهه ليعرفوا من تقاسيمه وملامحه أى رجل هو ويشهدوا مكان تلك المقدرة أو الصفة من ذلك الوجه . فإن لم يتمكنوا من رؤيته عياناً سألوا عن أوصافه وبحثوا عن صورته ، وكلنا نعلم مقدار أسف الأدباء على أنهم لا يرون اليوم صور ملوك العرب وشعرانهم وعظماهم ممثلة إلى جانب سيرهم وأخبارهم ، مقرونة بأشعارهم وأثارهم . وهم لا يستفيدون من صورهم شيئاً وإنما هى العادة بل نكاد نقول الغريزة تشعرهم بالحاجة إلى مشاهدتها وإجالة النظر في معارفها . وأنت قد تسمع المعنى يردد غناءه فتلتذذ وتطرب له ولكنتك إذا حال حائل بينك وبين وجهه استشرفت له ولم تقنع بسماع الصوت الذى هو بغيتك منه ، وربما كان دميم الوجه لا يزيدك النظر اليه سروراً بغنائه بل قد تعرض عنه إن رأيته صامتاً ، ولكنه الإنسان قلماً يشغف بمعنى مجرد أو صفة محجوبة ولا غنى له عن تشخيصها وتجسيمها في شكل من الأشكال المنظورة . ولو شئنا لرددنا إلى هذا الطبع فيه تخيل أربابه الأولين ورفع النصب والأصنام لعبادتها بل لرددنا إليه حبه للجمال في الوجوه الآدمية لأننا أبعدنا في تفسير هذا الجمال فلن نخرج به عن كونه مظهرًا تتعلق به غريزة حب البقاء والخلود في نوع الإنسان

ولانغالى إذا قلنا أن هذا الطبع عريق في الحيوان قبل الإنسان ، فإنك قد ترى حيوانين يتقابلان فيحقد أحدهما صاحبه ويظيل النظر إلى عينيه كأنه يريد

(١) نشرت هذه المقالة في الأهرام يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ .

شيوعتها سلامة الانسانية بأسرها والتي يستنكرها جميع الناس بالفطرة ولا يتعلق استنكارها بعصر دون عصر ولا بقبيل دون آخر .

يتساءل أناتول فرانس : « أنقول مع مودسلي إن الجريمة تستكن في الدم ، وأن في المجتمع طائفة مجرمة كما أن بين الغنم شبهاً سوداء الرؤوس ، وأن تمييز الأولين من السهولة بحيث لا يحتف عن تمييز تلك الشياه من قطعها ؟ أنخوض في آراء رجل من أشد الباحثين اقتناعاً بذهبه ؟! ذلك الإيطالي مؤلف « الرجل المجرم » ؟؟

ثم يقول : « الحق أن الباحث الإيطالي لن يوفق إلى حصر جميع المجرمين في صنف معين . وعلة ذلك أن المجرمين بطبيعتهم مختلفون بعضهم عن بعض وأن الاسم الذي يجمعهم لا يحضر في الذهن شيئاً واضحاً . والسنيور لبروز لم يفكر في تعريف كلمة المجرم فلماذا تراه يقبلها على معناها الدارج ، وبهذا المعنى يسمى الرجل مجرمًا إذا اقترف بدعاً خطيراً في الآداب وشذوذاً عن أحكام الشريعة . ولما كانت الشرائع كثيرة والآداب غير محدودة فقد صارت أصناف المجرمين بلا قيد ولا حد . والواقع أن ما يسميه السنيور لبروزو مجرمًا إن هو إلا مرادف لكلمة السجين ولا بد أن يتشابه السجناء فإن تشابههم في المعيشة يحدث بينهم على الأقل تماثلاً يميزهم عن يعيشون أحراراً . وقل مثل ذلك في جميع الطوائف المستقلة بأزيائها فإننا قد نعرف أفرادها وإن خلعوا ملابسهم » .

وفي هذا القول الذي يقرره أشهر المنكرين اليوم جانب صحيح وهو تعذر الفصل بين طبقات المجرمين وحصرهم في صنف واحد . أما قوله أن التشابه بين مجرم ومجرم يأتي من تشابه المعيشة في السجن فرأى سطحى بعيد عن الحقيقة لأن الاستعداد للقتل أو السرقة أولى بأن يخلق الشبه من الاشتراك في المطعم والمسكن سنة أو عدة سنين .

على أن أناتول فرانس يوغل في الإنكار إلى أبعد مداه فيقول : « إن الجريمة في أصلها ملتبسة بالفضيلة وهي لم تفصل عنها إلى اليوم بين القبائل السوداء في أواسط إفريقيا . فهناك كان يقتل الملك متيزاً ملك طوارج ثلاثاً أو أربعاً من نساته كل يوم . وقد أمر بإحدى نساته أن تقتل لأنها أجمت بتقديم زهرة

الشروز -^(١) يسألون أنفسهم : أتكون تلك الوجوه كوجوه الناس ؟؟ تلك هي صور المرأتين سكينه ورياً ، وزوجيهما محمد عبد العال وحسب الله سعيد ، وهم المتهمون في جرائم إخفاء النساء بالاسكندرية . فماذا يتوسم الناظر فيها ؟؟

يخيل إلى بعض القراء أنه سيرى في تلك الصور وجوهاً يفر منها هلعاً ورعباً كما يفر من أشباح جرائمهم وبشاعة نفوسهم . وهذا هو مصدر الخطأ في إنكار الفراسة ونفى العلاقة بين سمات المرء وأعماله . فقد يقترب المجرم أشنع الكيائير ثم لا يكون ذلك متأبياً عن نفس مرعبة تغلى بالشر وتتوذب إلى العدوان بل يكون كل مافي الأمر أنها نفس ميتة يمر بها الناظر فينقبض لمرآها كما ينقبض لمرأى العظام النخرة والبث المشوهة ، فإذا لم يجد صورها من بواعث الرعب والهلع مثل ماتبعته في خياله جرائمها وذنوبها توهم الخطأ في آراء السائلين بالفراسة وخفي عنه مصدر الخطأ من تصوره .

وكذلك صور هؤلاء المجرمين فإنها لا تشف عن طمع قوى أو غيظ سريع أو حيوية ضالة جهنمية وإنما تشف عن بلادة الموت وخمود العقل ، وكلما اندس منظرهم بين المناظر العادية التي تشاهد في كل يوم كان ذلك أدل على اختلاف طبائعهم وتميز نفوسهم لأن الذي يقترب أفضع الأنام ولا تبدو على وجهه آثارها جليلة شاخصة لا يكون مخلوقاً عادياً من عامة الناس .

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى الذي نعنيه بكلمة الجريمة في هذا البحث فنقول إننا لانعنى جرائم العرف لأنها مما يتغير بتغير القوانين والمجتمعات التي تسنها . فما يكون جريمة في عصر من العصور أو مجتمعات قد لا يكون كذلك في عصر آخر أو في مجتمع غير ذلك المجتمع . ومن البديهي أن مثال هذه الجرائم العرفية لا يلزم أن تصدر عن طبيعة خاصة ولا أن تبدو لها على ظاهر الجسم علامة موسومة . لأنها جرائم ترجع إلى مصطلحات الوقت لا إلى طباع الناس . ونحن لانعنيها كما قلنا حين نذكر الجريمة ولكننا نعنى تلك الجرائم التي ينافي

(١) كان هؤلاء المجرمون ومن معهم يقتلون النساء ويدفونهم في حجر النوم ويأكلون ويقصفون فوق رفاتهم .

ضروب الإلحاد

يقولون إن نوايس المادة غفل من القصد الأدبي . فالنار تحرق من يقتحمها سواء أكان المقتحم متطوعاً للخير رحيماً بالضعفاء يغيثهم ويجازف بحياته من أجلهم أم كان لصاً أثمياً يسطو عليهم ويسلبهم متاعهم ، والسيل قد يسقى الأرض البور وقد يجرف الأرض العامرة ، ولا حساب في حركة من حركات هذا العالم لوجود الأحياء كأنما هم واغلون فيه ينزلون من ساحته في غير العنصر الذي خلق لهم . ليس يختل قانون من قوانينه قيد شعرة لإعفاء نفس صالحة من أحكامه الصارمة ولا للإبقاء على أمة كاملة ولا نوع بأسره . يقولون ذلك ويستدلون به على خرق هذه النوايس المادية وجريانها على حكم الضرورة العمياء ثم لا يقفون عند هذا الحد بل يتخذون منه دليلاً على خلو الكون من الحكمة المدبرة والنظام المقصود !!

والظاهر من قول هؤلاء المعارضين أنهم يريدون من المادة أن تحابي وأن تقف موقف الحكم بين الأخيار والأشرار فتساعد على عمل الخير وتمنع في عمل الشر . وحينئذ يخرج الرجل فيقتحم النار إذا نوى الخير فلا تحرقه ويخوض الماء فلا يغرقه ، وتصادفه العقبات فتتطامن له ، والمصائب فتتنحى له عن طريقه . ويخرج الشرير فيجد أمامه من السهل جبلاً ومن الفضاء أسداً ويجرد السلاح الرميض فيكفل في يمينه ويعالج تسخير المادة فتلتوى عليه ، فيتوب مجبراً عن نيته .

هب ذلك كان ، فهل يسمونه حينئذ نظاماً مقصوداً وحكمة مدبرة ؟؟ وهل يكون الخير خيراً والشر شراً على هذا التصريف ؟

كلا ! بل الذي يكون أن تنتقل حرية الإرادة من النفوس الحية الناطقة إلى المادة الميتة الصماء ، ويصبح الإنسان في العالم وهو أحط ما فيه من الأشياء ،

إليه . على أن متيزاً هذا حين اتصل بالإنجليز أظهر ذكاء عجيبياً واستعداداً يذكر لفهم أفكار الشعوب المتحضرة . ولعمري كيف نستطيع الإنكار ؟ إن الطبيعة لمهي التي تعلم الجريمة . فالحيوانات تقتل مثيلاتها لتلتهمها أو غيره منها أو لغير سبب قط . وإن بينها لعددًا عظيمًا من المجرمات ، تلك هي الجريمة ، فإن كانت العجماوات الكئيبة غير مسؤولة عنها فلا مناص من اتهام الطبيعة .

هنا نرى أن تعميم لبروز ومهما توسع فيه أجدر بالمتابعة من تعميم أناتول فرانس لأن الأول يقول شيئاً والثاني لا يقول .

وليس يزعم أحد أن الصفات التي يذكرها العلامة الإيطالي ستيني الحكومات عن الشهود والقرائن والتحقيقات وتتخذ أدلة ينص عليها في القوانين . بل لا أنكر أن صور المجرمين الذين تتكلم عنهم قد تمر دون أن يلتفت إليها ، ولا سيما صورتي الرجلين . فإن بلادة الشر على وجهي المرأتين أظهر منها على وجهي زوجيهما وأثر الإدمان فيها أقيح وأبلغ . ولكن الأمر الذي لا أشك فيه أن بلادة الحس ظاهرة على وجوههم جميعاً ظهوراً لا يتخطاه النظر أحياناً إلا لأن البلادة من طبيعتها أن لا تلفت الأنظار ولا حاجة بنا إلى أكثر من هذا الأثر البارز للدلالة على ما وراءه من النفوس .

وفيم كل ذلك ؟ فم يختل اطراد القوانين الطبيعية وفيم تنشأ الحوادث ليستدل بها الإنسان لا لتعمل عملها ؟ في شيء هو إلى العبث والتلهي والفرجة أقرب منه إلى الجد والحكمة ، في منظر عارض تتوق إليه نفس فارغة ، في حجة جدلية إذا كانت هي المؤسس الوحيد لبواعث الإيمان في هذه الدنيا فلا حاجة إليها ، لأن الدنيا على ذلك لا تكون مستحقة أن يؤمن بها ولا تكون في ذاتها إلا دليلاً ناقصاً على لا شيء . وإذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسرى إليها الإيمان به من داخلها كما يسرى عصير الحياة إلى الشجرة اليانعة من مغرسها ، فسريان الإيمان إليها من الخارج مستحيل .

إن القلب ليشك ولكنه إذا شك بحق فلن يلبث أن يؤمن بحق أكبر وأعلى ، وليس بقليل عدد أولئك الذين سلكوا هذه الطريقة من الإيمان الأعمى ، إلى الشك ، إلى دفع الشكوك ، إلى الإيمان البصير .

ومن المنكرين غير من أشرنا إليهم آنفاً من يغريه الخيال بالإلحاد ، فلا يجيء إلحاده عن بحث ولا وسواس ضمير ، وذلك إذ يسترسل الخيال في تصور هذا الكون متروكاً إلى نفسه متخبطاً في دياجير الأبد المجهول ، لا عين تراه ولا رائد يرسم له خطاه . كون ضال حائر في ظلمات اللانهاية !! يا لها من صورة يرتع فيها خيال الشاعر فترة فتلهيه عماءها من البيوسة والعقم والخواء . وما من شاعر أهد إلا كان له من تلك الصورة شركة خلافة واستهواء .

ومن الإلحاد ما تدعو إليه الرغبة في التمرد وحطم القيود الموضوعية . وكلما كانت القوة التي يناصرها الملحد أهول وأعظم كانت المعركة أجل وأشبه بالبطولة الرائعة المعجبة التي يسمع عنها في أساطير المردة ووقائع الجنة والشياطين . وهذا إلحاد يفرص صاحبه وجود القوة التي ينكرها ليوثب نفسه بمعاندتها وتحديها . وهذا أيضاً من الإلحاد الشعري . وهو إلحاد لا يدفع بالحجة وإنما يدفعه الخيال الذي أتى به .

تختار له وهو لا يختار لها وتحكمه وهو لا يحكمها ، وتسوته فينساك ، وتوصد أمامه الطريق فيعتاق . فلا مشيئة له بل لا حياة . فهل هذا ما يؤثرون ؟؟ ويقولون إن الإنسان نفسه لا يتبين في حادثة من حوادث العالم ما يشتم منه علو الخير على الشر ورجحان الحق على الباطل . فقد يعيش الرجل كنيئاً محسوراً ثم يموت بغصة المغبون وهو في صف الحق عاش وفي صفه مات ، وقد يعيش سعيداً موفقاً إلى النجاح ثم يموت ظافراً قرير النفس وما قرت نفسه بغير التنشئ من ذى حق ولا نجح إلا في مؤازرة باطل ، فأين الله وما هي الغاية ؟ وكأن هؤلاء يرضيهم أن يعيش كل إنسان حتى يرى حادثة يقلب فيها الخير غلباً تاماً ويفشل فيها الشر فشلاً تاماً وتكون الوقعة الفاصلة التي لا يخشى بعدها مساجلة ولا تنتظر لها بقية - إذن يؤمنون بالغاية في الوجود !!

ولا نجيب هؤلاء بأن تحققهم من غلبة الخير دائماً ، وفي كل حالة ، هو تحقق ينفي معنى العقيدة ويخالف طبيعة الثقة بالمجهول ، ويشط بواعث الجهاد في الحياة ، ولا نقول لهم إن بواعث العمل في الحياة لا تتوقف على ما يطلبون وإن الرغبة في التحقق من غلبة الخير إنما هي رغبة عقيمة لا تؤدي إلى عمل . لأن الشكوكيين الذين تعوزهم الأدلة لا يعملون ، واليقينيين الذين يعملون لا تعوزهم الأدلة - لا نجيبهم بهذا ولا بذاك ولكننا نسأل : هل البرهان الذي يطلبونه ليؤمنوا معقول وجيه ، وهل البصيرة الرشيدة تحتمه ولا يقر قرارها إلى سواء .

ولكى نجيب على ذلك نفرض أن الإنسانية كتب لها من العمر على هذه الكرة مليون عام . فالمعقول هو أن الغاية من هذا العمر القصير في سياق الأبد لا تتحقق إلا في أواخره ، وأنه إذا وضع نظام لسياسة هذه الإنسانية كلها فإنما يحسب في أدواره وتقلباته حساب مليون عام لا عشرة ولا مائة ولا ألف . فإذا طلب كل إنسان أن يرى تتحقق هذه الغاية ليوقن بها في أثناء حياته ، ألا تراه كأنما يطلب أن تنتهي سياسة الكون ثم تبدأ من جديد مرة في كل ستين أو سبعين سنة ؟ لا بل مرة كل يوم بل كل ساعة !! لأن السنة التي توافق السبعين من حياة إنسان قد تكون السنة الأولى من حياة إنسان آخر والعاشرة من حياة غيره وهلم جراً .

الحياة فإنما هو شعور بعظمة الله الحقيقية ، وهو الإيمان الحق المقصود ، وكل ما عداه فمن جرثومة الكفر وإن هتف باسم الله ، ومن معدن الإلحاد وإن صلى وصام .

ولحكمة ما شاعت كل هذه الضروب من الإلحاد في القرن الماضي . فقد كان الناس في حاجة إلى من يقيمهم على صراط الإيمان السوى . كانوا يؤمنون بالله ولا يدركون عظمة الكون ولا يفقهون شيئاً من أسرارهِ ولا يشعرون بجمال الله في خلقهِ ولا يملؤون نفوسهم من نشوة هذه الحياة التي يبثها في وجودهِ . ولكنهم كانوا يؤمنون به على النسبنة انتظاراً نعم آخر تتجلى فيه قدرته ويرون فيه من آياته ما لا يرونه هنا . كأنما ليس في هذا العالم الكفاية للإيمان القوى الصحيح ، وكأنما ليس لله حق الإيمان عليهم إلا من طريق ذلك العالم الذي ينتظرونهُ ، وهذا ضلال شنيع . بل هذا هو الكفر بعينه . أليس الكفر هو الحماة بالله ؟ فأى جهل بالله أشنع من هذا الضلال الذي يترأى لنا في ثياب الرشاد ؟؟ وإنما الإيمان الذي يبني على غير تقدير من النفس كالإعجاب الذي يبني على السماع ، وكالحب الذي يبني على الوهم ، كلها شعور فارغ لا يصدر عن صميم النفس ولا يدل على عطف بعيد الغور ، ولكنه عبث وقشور . وتعالى الله أن يرضى من أحد بالعبث والقشور ، ولا سبياً في الإيمان بأسرار الحياة ولباب الوجود .

إذن كيف كانت النفوس تهتدى إلى الصواب وتتجه في عقائدها إلى الوجهة المثلى ؟؟ كان لا بد لها من الالتفات بكل ما تملك من أمل وشعور إلى هذه الحياة . كان لا بد لها أن تقصر عليها الرجاء زماناً لترجع إلى كهوفها المهملة وسراديبها المهجورة ومحاسنها المجهولة فتنتقب عنها وتجلو الغبار عن نفائسها وتدفعها الحاجة إلى الرضى بخيرها وشرها فتعرف قدر ما كانت تزهد فيه من غير تجربة ، وقيمة ما كانت ترفضه من غير روية . وتستكشف من ثم هذه الحياة التي كانت تعيش فيها وكأنها من غير أهلها ، فتتكشف لها معالم الإيمان الصحيح من هذه الطريق ، ولا طريق سواها إلى الله .

وهذا ما تكفلت به المادية في القرن التاسع عشر ، وتلك هي رسالتها في هذا العالم !! وهكذا ما من شيء في هذا العالم إلا له رسالة يدعو إليها ، وعليه فريضة يقوم بها . حتى الكفر قد تكون له رسالة يؤديها في سبيل الإيمان الذي لا إيمان أصدق منه ولا أسمى . لأنه إيمان بعظمة هذه الحياة . وكل شعور بعظمة

مثلو المسرح جادين أو هازلين . وأن استراقهم في اللعب حتى تخال لعبهم
جدا ، ونسيان أنفسهم في تمثيل الخصومة حتى يحسب خصومتهم حرباً . إن هو
إلا الشغف بإجادة الصنعة وبراعة الإتقان ، وأنه هو الذي يجعلهم أحق بنشوة
الرياضة وتصفيقة الاستحسان ..

لم تقن الأعشاب ولا الهوام ذلك لدارون!! ولكن هل تراه سألها عنه
أو استقصى خبرها فيه ؟ لو طلب منها أن تقول لقاتل ولكنه اكتفى بما وعى
فسكتت . وهي لا تجيب حتى تسأل ، ولا تبذل جوابها كله لأول سؤال .

نعم يلعب الأحياء ولا يتنازعون ، وليس الأمر بمجهول فيعلم ولا يخفى
فيظهر ولا يبردود فيقام عليه البرهان . ألا ترى الفرسان يتهاكون شوقاً إلى
قصة منصوبة في العراء يسعد بها من يحرزها ويتحسر عليها من يخذله الجد
دونها ؟ بلى نراهم فلا تقول إن أولئك الفرسان المغاوير يقلقون بالهم ولا أن
الناس يهلمون لهم ويعجبون بهم من أجل تلك القصة . ولعلمهم بعد إذ يحرزونها
يلقونها في التراب .

وهذه الساء والأرض وما بينها تنبثق كلها عن حياة لا نظير لها في تراكيب
هذه الأكوان ، ثم يذهب أبناء الحياة يتخاطفون بينهم لقيمات الخبز أو أشباراً
من الأرض أو قطعاً من الحجارة اللامعة فماذا يقول الناظرون ؟ يقولون إنها
بغيتهم التي يتنازعون ، وإليها يتسابقون ، فيها ومن أجلها يخلقون - يقولون
إنهم يجدون ولا يلعبون ..

فحذار ! فلعلمهم أيضاً يلقونها بعد إذ يحرزونها في التراب .

زورقي الصغير لم يغير خريطة الأرض ولكنى قانع به وراض عنه . فما كشف
لى موقع قدم لم تطأه قبلى ألف قدم وزيادة ، ولا مر بى على حبة رمل واحدة يحق
لى أن أطلق عليها اسمى دون أساء الرحالين من قبلى . ولكنه ضاق من ناحية
واتسع من نواح لا عداد لها . فكم من بقعة في الساء ضللت عنها فهدانى
إليها ، وكم من ساحة من ساحات الرفيق الأعلى قربنى إليها وكان قد أقصانى

في الزورق

جولة في الماء محدودة وجولة في السماء غير محدودة^(١) . مسافة على الأرض
تذرع بالأشبار والأميال ومسافة أخرى في عالم لا تعرف أوائله ونهاياته
ولا تقاس أعماقه وآفاقه . تلك هى الرحلة المزدوجة التي أفضيها كلما ركبت
الزورق الصغير على النيل .

وربما استخدمت هذا الزورق كما كان « دارون » يستخدم سفينته
« البيجل » ، أى لتبديل الهواء وجمع المواد الأولية لتبديل المذاهب والأسماء ،
ولعمرك أين الزورق النكرة من (البيجل) المعرفة ؟ وأين راكبه من
(دارون) ؟ شتان شتان ، وهيهات هيهات ، ولكن فيما عدا ذلك فجولتى في
زورقى هذا رحلة ، وجولة دارون في سفينته تلك رحلة مثلها !! وقد أتى هو
بنتيجة ولم أعد أنا بغير نتيجة . فماذا كشف دارون في سفينته ؟ ألا يقولون إنه
احتقب في أوبته ألف حجة وحجة على أن الصالح للبقاء يبقى وأن غير الصالح
للبقاء لا يبقى ؟ ألا يقولون إن الأحياء يتخاصمون كثيراً ويتنازعون البقاء فيما
بينهم كبيراً وصغيراً ؟ ألم يقولوا .. لا أظنهم قالوا . أكثر مما تقدم ..

إذن أؤكد لهم أن الزورق الصغير قد يصل بهم إذا شاءوا وشاءت لهم الأقدار
إلى حقيقة أصدق من حقيقة دارون وأرفع منها قدراً وأقدم منها عهداً ، وألطف
على السمع وقعاً . وأن الزورق الصغير لا يبعد عليه الكرسي الذى تسأل أمامه
الطبيعة عن أسرارها ، ولا المنبر الذى تختطب من فوقه قائلة بأفصح ألسنتها
وأجهر أصواتها : إن الصلاح للبقاء كلمة لست أعرفها لأننى لست أعرف
الصلاح للبقاء !! وأن الأحياء لا يتنازعون ولكنهم يلعبون ، نعم يلعبون بملء
نفوسهم مرتاضين رائضين كما يتصارع الصبية جاذلين ضاحكين ، وكما يتناجز

(١) نشرت في العدد العاشر من الرجاء .

وتسمعها أو هي تُسمعك نفسها على غير انتباه منك فكأنما ترد عليك في الحلم بين وسوسة خافتة من جانب الشجر ، أو هتفة مفردة من طائر ملحق في الجو لا يكاد يتبعها بثانية ، أو خفقات الفراش فوق ورقة طافية تتهادى في النهر ، أو غمغمة الماء على قاب ذراع منك وكأنه في أقصى الأرض : حركات ترسلها الأذن قبل أن تمسكها ، وتعليقات على حواشي السكون تمر لحظة بعد لحظة وكأنما هي الجيل يمر بعد الجيل ..

وقاضت هذه السكينة على نفس النوتى فتسايلت منها في صورة حكاية مبتكرة لطيفة : حكاية ذات وقائع ومفاجآت جرت له مع الجان في هذه البقعة ، على مشهد من أمه انتى ماتت وأخيه الذى لا يزال صيبا . وقد أطمعه السكوت منى فأطال وأطنب وافتن وأغرب . ثم رابه هذا السكوت فأردف حكايته بأقسام كثيرة على صدق كلامه .

قلت لا عليك يا أخا النوبة ولا ريب عندي في صدقك . إن المكان مهياً لسكنى أصحابك كما أرى ، فإن كانت الدنيا تعوزها بعد هذه الخلائق المنقنة فأى ذنب في ذلك عليك ؟ إنه ذنب الدنيا ..

وفى ذات يوم ، قبل مرسانا على ير المدينة شاء الله أن يختبرنا بمحنة من محن السندباد البحري ، فتغير الجو وغامت أطراف الأفق واختلف مهب الريح فكثرت قيام النوتى وعوده بين مقدم الزورق ومؤخره وداح الزورق يترنج ذات اليمين وذات الشمال ويتكفأ بين الشرق والغرب تكفز السكران ، وأصبحنا نتقدم عشرين خطوة في كل ميل نعبه من هذا الشاطئ إلى ذاك ، فقلت للنوتى مالك لأ تستقيم في السير ؟

قال لو استقمنا لغرقنا . أو لا ترى الريح ؟

لو استقمنا لغرقنا !! ذكرتني كلمته هذه برأى في الإصلاح الاجتماعى والأدبى لعالم من علماء القطرين المعدودين مثله لى على أثر اختلاف على طرق الإصلاح ومذاهب الناس فيه فكان يقول : أعرف لعبور التيار طريقتين .

عنها غبار الدهر وعجاجة وقائمه !! ولقد أفسح الرحالون رقعة الأرض وضيقوا شقة الخيال ، فاليوم تسكن أصغر جزيرة في أقصى الدنيا ولكن لا جبال قاف بأهولة ولا قصور المردة بمعمورة . كلا ولا بحار العجائب بمطروقة الأثباج ، ولا هي يزخارة الأمواج ، من وراء ذلك الرتاج . تداعت وأقفرت رنضبت فهي اليوم طولل دارسة وبلاقع خاوية وبقايا مستدعة ؛ وحاشا لزورقى أن يصنع ذلك الخراب أو يغير على ذلك العالم العجاب ، فلا يزال له إلى عالم الخيال منفذ وبينه وبين وادى الجنة سلام ، ورب قارة رهيبه يحار فيها الدليل ويسكت فيها سليمان طرقتها به ولم يعرف لنا خبر ولم يسمع لتسليمتنا ولا لتوديعنا نامة أو صدى ، ولئن صدقتى الذاكرة لقد عرفت في جولة من جولات هذا الزورق أين كان مولد الجن "أولى أو عرفت على الأقل كيف ينبغي أن يكون .

قفى مفترق الجزائر الثلاث" ولدت بلا شك قبيلة كبيرة من قبائل الجن الوسيمة الوادعة ، وفى تلك البقعة بلا شك وهي قائمة إلى اليوم نعيش وترتع وتتوالد وتقضى حقوق الحياة ، وإنها وأيم الله بقعة خليفة بالجن والجن خليفة بها . يشارفها القادم من بعيد فيغلبه الصمت فلا يتكلم إلا هسأ ولو كان من أصخب خلق الله لساناً وأطوعهم للثرثرة عناناً ، وإنه ليضحك ويطنب ويتغنى ويصفق وهلل ما شامت له خفة الهواء في انطلاقه ومرح الماء في اصطفاقه حتى إذا اقترب من تلك البقعة الحرام تبدلت حاله حالاً وتزع عن خفته مختاراً ، وسرى إلى أجزاء نفسه السكون مسرى النعاس في مفاصل النائم المكدود ، فإذا هو مقبل بجوارحه كلها ينصت ويصغى ، ثم ينصت ويصغى ، ثم ينصت ويصغى في درجات من الصغوة تهبط كل طبقة منها إلى طبقة أعمق منها غوراً وأظلم جوفاً وأبعد ركزاً - وهل يصغى الإنسان إلى لا شيء ؟ إن اللاشئ يصبح شيئاً متى أصغى إليه الإنسان .

وأذكر أنني طرقت مرة ذلك الوادى الصامت . أذكر كيف احتوانا نطاقه المسحور كما تحتوى حبال الطلسم أسيرتها وشملنا منه ما يشمل وراده من سكينة مخيمة على جوانبه ومن هسات تتخلله تزيد الصمت صمتاً والهيام هياماً (١) كتبت هذه المقالة بأسوان . (حيث توجد ثلاث جزائر في بحرى نهر النيل - الناشر -)

وراق لشارد اللب في غوامض هذه اللجة إذ صفت باخرة ثم أرسلت إليها من دوليتها المريضة موجًا كغلمان القدر ترك زورقنا المسكين يعلو وتبسط كأنه كفة ميزان خيطها يد هوجاء . ثم خرجت في طريقها تنشق النهر شفا ولا تلتفت بيته ولا يسرة . فقلت للورق : ما بال هذه الباخرة تستقيم في سيرها ، ألا تحشى العرق ؟؟

فابتسم أخو الثوبه ولم يزد - ولو أنه اطلع على ما في نفسي لراد قائلاً : نعم إن الإصلاح طريقتين : طريقة الزورق وطريقة الباخرة ، ولكن الأتوباه لا يعرفون إلا طريقة واحدة وهي طريقة الباخرة .

* * *

عل أنه يحسن صنعًا إذ لا يطلع على ما في نفسي . فإنه يحاسني الآن على رحلة واحدة ، ولو أنه عرف إلى أين أذهب بزورقه في رحلتي الثانية لمطم الأجر وطال الحساب .

الحياة القلقة :

ما أتمس حياة الفطناء المسترشدين بإحساسهم المهتدين بماطفة الليل إلى الجمال في نفوسهم الذين يرون في كل شيء حسنا ويرون في كل شيء عيبًا . إنهم يرغبون في كل شيء لأنهم يعرفون حسنه ولا يرضون عن أي شيء لأنهم يلمسون قبحه ويكون حياة لا تستقر بين الطلب والنفرة والشغب والزهد والراحة والألم والعجطة والندم .

في الخطابة :

الخطباء اثنان : خطيب يسوق الكلام وخطيب الكلام يسوقه . والأول يملك السامعين ويتصرف بهم ويلعب بقولهم وأما الثاني فلا يتال منهم أكثر من إعجاب كإعجاب الأستاذ بتلميذه أو ثناء يلفظه اللسان ولا يتحرك له الوجدان .

فطريقة المجازفة وهي أن يبقى الإنسان بنفسه في غمار اللجة فيندفع من جانب إلى جانب لا تشبه بحرة الريح ولا خديعة الدوامات ، وليس يرتد عن عقبة ولو كان فيها الفلاك ولا يحيد قيد خطوة عن الخط التويم إلا مغلوبًا على أمره ، تقصاره بعد الجهد أن يلهمه الماء غريقًا أو يبلغ الشاطئ منهوك الجسد خائر العزبة وقد أضاع من راحته أضعاف ما كسب من الوقت والساعة .

والطريقة الثانية طريقة الأناة والموادة وهي أيضًا سيرًا وأقل جرأة ولكن نجحها مضمون والخطر فيها قليل . وهي أن ينزل السائح في الماء على مهل فإذا أحس صدمة من التيار انحرف عن طريقها وإذا بصر بوجه عالية لا مفر منها تطامن لها . وإذا قذفت به اللجة بعيدًا عن وجهه لم يعاندها مخافة أن تعطيه ، وإذا استوتق من السهولة والرفق عاد فاقرب عما كان يزورعه ، فقد يطول على ذلك صبره ومحاولته ولكنه بالغ في نهاية الأمر مكانًا قريبًا أو بعيدًا من الشاطئ الآخر وهو على يقين من السلامة .

أصاب ذلك العالم الحكيم . فإن للسلامة طريقًا غير طريق النفرة ، ولقد نظرت إلى النيل في تلك الساعة فكأنني أتمل فيه لجة الإصلاح الدافقة تزار زئير الضياغم في غايها ، وكأنني أشهد سباق الصالحين فيها من قديم العصور : فسائح جاش تيار الدم الحى في عروقه بأقوى وأجسر من تيارها فتخرج ظافرًا على استقامته يهز بالمعطب وبالنعيب ، وآخر يتخطى يأسًا ثم يهوى إلى الناح صائمًا لا تقلت منه صيحة استغاثة . هذا على مدى وثنتين من العاية يجمد كالشلول لا ترفع يده لتناول كأس النجاة . وذلك على حافة البداية يسرف في ضرباته ولا يدخر منها ضربة لساعة كلاله وقفوره . وأينما ارتمت عينك قابلك أنزع عمدة توشك أن تلتحق بأجسادها ، ويحث طافية أغمضت أجنابها على هذه الحومة الصاخبة ، وغاصون تأكلهم الحيطان فلا تبقى لهم أترا ، وسابقون يستترهم مثل العتير من رشاش ضرباتهم العاتية ، وصرخة واحدة تسمعهما من جميع الجهات وهي : إلى الأمام إلى الأمام .

تلك هي لجة الإصلاح .

لمحظة مع نيتشه .

أيام من التروعك نحب أن نشارك القارئ^(١) في خبرها ونسأل له الله أن يجيبه شرها . وما خبرها إلا صفحات من القراءة المنفرقة تزجي بها الوقت ونسرى عن الفكر بقدر ما تستطيع النفس العارزة والطبيعة المنخرقة . وليست هي والممدقة من القراءة السياسية فإننا نعد جو السياسة كجو المدن ما ينبغي أن لا يجوضه المرء أو يقر فيه إلا على أكمل صحة ، لأنه جو تختلط فيه الأتانس وتزدحم المناكب وتكثر الجلبة والصخب وينتشر عليه من مجاعة النفوس الكريهة ونفت الضمانز الموكرسة ما يحتاج الصبر عليه إلى مناعة وحيلة لا يطبقها من يطلب العافية والمعاياة . رأى جو من الأجواء السياسية هو أكثر وأسرع عدوى وأخبت جرثومة وأذق إلى تقئية النفس منجو مصر السياسي في هذه الأيام ؟ وستقتصر في ما نورده هنا على خلاصة ما تصفحناه من مجلة أمريكية قديمة وقعت في أيدينا مصادفة ، وهي مجلة أسبوعية ممتعة تقرأ في العدد الواحد منها ما لا تقرأ في مجلات مختلفة من طرق الأدب والعلم والفن ، ويجمع لك ناشروها على سبعين صفحة أو قراب ذلك موضوعات بينها من الاختلاف والتنوع ما بين الكلام مثلا على التصوير الياباني الحديث ووصف زيارة لنيته في مرضه ، أو ما بين « توجيه دورة الحياة » ومقال في نقد المواطن الضعيفة من الأدب الأمريكي . أو ما بين « مساعدات ماكس نوردو » في أسبانيا والنظر في مآل ألمانيا الجديدة . وهكذا ما ينتسط النفس إلى القراءة ويدفع عنها سآمة التشابه . وقد نكفي بما نورده في هذا المقال وقد نعود وقتا بعد وقت إلى موضوعات أخرى إذا رأينا في العودة فائدة ، وأبي القارئ إلا أن يشركنا في محضونا كله .

(١) نشرت في الأفكار في أول أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

الدين بين الخاصة والعامة :
ما حاجة السايح في المبدول إلى نجم القطب ؟ إننا بحاجة الماخز في المحيط
وكذلك العامة لا يحتاجون إلى الدين احتياج الخاصة إليه ...

من الشرقيين ، وكان يستكثر عليها الاشتغال بالعلم وطلب الحق ويقول
« ما للمرأة وللحق ؟ إنه من مبدأ الأمر لم يكن شيء أغرب عن طبيعتها
ولا أكره مذاقاً ولا أعدى لها من الحق .

وإنما صناعة المرأة الكبرى التزييف وهنّها الأعظم الظهور والجمال ، وكان
من قوله في موضع آخر « إن الرجل الذي يجمع بين عمق الروح وعمق
الشفوات والذي فيه من الخير العميق ما هو أهل للقسوة والخشونة ما يسهل
اختلاطه بهاتين المختلتي لا يسهل أن يرى في المرأة إلا ما يراه الشرقيون ،
لا يسهل أن ينظر إليها إلا نظره إلى قينة مملوكة وحرز مدخر ومخلوق مقضى
عليه بالخدمة وأداء واجبه بهذا الاعتبار . ولا مناص له من أن يتخذ موقفه في
هذه المسألة من مرتقى الحكمة الآسيوية الزاخرة معتمداً على تفوق ما في آسيا
من بدهة .. الخ .

فما الذي أعجب المؤلف الذكي من هذه الآراء في بنات جنسها ؟؟ اتراها
شعرت في صميم وجدانها بصدق حكمه فكان ذلك من بواعث إعجابها به ؟؟
ولكن ترجمة نيتشه وفلسفته وحياته كثيرة المتناقضات ، فليست هذه ولا
غيرة تلميذاته الأخر على التبشير بفلسفته بأغربها وأدعاها الى الدرس
والتأمل . وكفى أنه هو نفسه ابن قسيس وامرأة متعبدة يشن الغارة على الدين
ورجال الدين ويقول في النعي على عقيدة آباءه مالم يقله أحد قبله . وإليك كلام
المؤلفة الألمانية في ما وصفته من خلق أمه وسمتها : « وكانت أرملة القسيس
لاتريك في بادى هيئتها أعوامها السبعين ولا يتخلل شعرها الأسود أثر من
الشيب وقل أن تلمح على جبينها القوى تغضن الأسارير . وكانت جالسة إلى
مائدة للخياطة فاحمة اللون على مقربة من النافذة . وعلى النافذة لوحة مكتوب
فيها هذه الآية (إن الجبال تزول والهضاب تتحول ولكن لاتزول عنك رحمتي ولا
يتحول عنك سلامي) وهي تذاكر عطف أرسله إليها بعض الأصدقاء حين
علموا بمرض ولدها الشديد . ولطالما استقرت على هذه الأسطر عينان غشتها
الدموع والتقت أمامها ذراعان مطويتان للصلاة . ! »

فكم من نقيضة في الحياة يقرأها الفكر في هذه الكلمات القليلة !! أم تناهز

أما حديثنا مع القارئ فقيم يظنه يكون ؟ لا نخاله يجهل ما هو حرى بأن
يقع عليه اختيارنا لأول وهلة من بين هذه الموضوعات - إذ ماذا عسى أن يكون
أدعى إلى السلوى والاعتبار من وصف مريض نابه كان في كتاباته من أشد
الناس قسوة على المرضى وكان في حياته من أحوج المرضى إلى العطف
والرحمة ؟ ذلك هو فردريك نيتشه المفكر الألماني الذي حارب المرض أعنف
حرب حتى غلبه هذا العدو الغاشم فصرعه بعد أن قيده في أسره اثني عشر عاماً
بجمرات من أعوام الجحيم ، وبعد أن سلبه كل ما منحه الحياة والصحة : حتى
فكره وقلعه الذي كان أمضى أسلحته في هذا العراك الويبيل .

وليس نيتشه بحاجة إلى التعريف - ولا سيما بعد الحرب الكبرى - فتعرفه
إلى القارئ ، ولكننا نومي إلى أسباب مرضه الذي لزمه هذا الزمن الطويل .
وهي على الجملة سوء الهضم المزمن وكد الذهن وما كان يقاسيه من صراع
عاصف في أعماق نفسه ومن عننت متلف بين أبناء قومه ، وقد يضاف إلى ذلك
أثر من الوراثة . إذ كان أبوه كما جاء في بعض الأسانيد مصاباً بمرض في الدماغ
وظلت هذه الأسباب تتعاوره حيناً حتى ألقته طليح آلامها فخلوط في عقله ثم
جن جنوناً مطبقاً وظهرت عليه دلائل هذا الجنون في أوائل سنة ١٨٩٩ عقب
نوبة عصبية . ومن ثم بقى مذهب العقل منهوك الجسد ، لا يفوق فترة حتى
يتنكس ويعود إلى ما كان فيه أو إلى شر منه . ولبت على هذا الحال من الضنى
والعذاب اثني عشر عاماً طوالاً كان في أثنائها كالطفل الرضيع لا حول له
ولا حيلة موكولاً إلى ما يشمله من حنان أمه وأخته وعطف الأصدقاء من مريديه
والمعجبين به . حتى أدركه الموت براحة في أواخر شهر أغسطس من سنة ١٩٠٠
ففضى بذات الرثة . وكانت خاتمة علله .

والمقال الذي نشير إليه يصف زيارة قصيرة له في خلال هذا المرض . كتبته
مؤلفة ألمانية معروفة في قومها اسمها جابريل روتر ، وهي كما قالت ممن اتخذوا
نيتشه معبوداً أدبيا لهم . ولا يخلو من بعض العجب أن يكون لنيتشه عابدات بين
النساء المطلعات ، لما يعلمه قراؤه من سوء رأيه في المرأة وتغييره للمخدوعين
بدعواها ودعاوى أنصارها . فقد كان يستصوب في كلامه عليها آراء الجامدين

الجبين لا تشفى سحتته عن داء كمين . فلما كملت الصورة أرادت أن تتحقق صديقتها بالمشاهدة خطأ المصور وتقصيره ، فدعتها الى زيارة حجرته .

قالت الكاتبة : « فتبعت السيدة العجوز على الدرج الى الطبقة الثانية وكانت ركبتي - ولا أكنم ذلك - ترتعدان ، وفتحت الأم بابا وقالت وهي تدخل الحجرة : أقرر - إنه لن يشعر بك . فدنوت فإذا بي أرى قبالة الباب حيث يتجه بصرى عند دخولى فردريك نينشه جالسا على كرسى مائل إلى الورا . فوقفت لحظة أتأمل تلك المعارف المسمرة من لفح الشمس البالغة في لطافتها على ما فيها من القوة . وأنظر إلى لحيته الغزيرة وأنفه الدقيق الأثني وجهته النبيلة وكانت عيناه الواسعتان مصوبتين إلى بنظرة نافذة ملحة جادة ، وكانت يدها الشاحبتان البديعتان مكتوفتين على صدره كأيدى الصور المنحوتة على المقابر القديمة . وقفت ثمة أرثجف من وقع نظرتة التي كانت تتبعني إلى كأنما هي شعاع يومض من هاوية للألم والعذاب بعيدة القرار . ثم ارتخت عيناه بعد هنيهة وأغمضها إغماضة خفيفة فلم يبق باديا منها غير البياض يروغ تحت الأجنان المسدلة في غماية مخيفة » .

« ونادت أمه وكانت واقفة بجانبه : تعالى - فنظرت فإذا على ذلك الجبين الذى يحكى جبين الموتى خلجة مؤلمة تحفق عليه . وإذا بصوت يقول : « لا . لا . يا أماه . كفى ! كفى ! » وكأنه يخرج من أعماق ضريح وما كان فى الدنيا من قدرة كانت تستطيع هنالك أن تسول لى إزعاج ذلك المناضل فى سبيل الحق وهو فى سكينته تلك يفنى على مهل . فتراجعت . ومضت برهة قبل أن تثوب إلى نفسى وأقوى على مفاخرة أمه بكلمة » .

وهكذا كانت خاتمة أيام هذا الداعية الناقم على الرحمة والرحماء ، القائل أن ليس للضعفاء من معونة لدينا إلا أن نهدبهم إلى طريق الفناء ، شاءت الأقدار أن يتفق من عمره المنغص المضطرب اثنتى عشرة سنة لامعول له فيها على شىء غير ما كان يحوطه من رأفة ذويه وأصحابه . ولسنا ندرى كيف كان ينظر نيتشه إلى تلك الرأفة لو قدر له أن يتناول قلمه مرة أخرى ويكتب فلسفته من جديد : أكان ينظر إليها من جانب أنانيته فيحدها ويذكرها أم ينظر إليها من جانب

السبعين ولا تشيب وولد تبرح به الأسقام فى عنفوان الصبا ... وعزاء تجده الأم فى تلك الآية يخفف عنها ما يكرب نفسها من رزينة ولدها ، وقد أطار البحث فى هذه الآية وأشباهاها صواب الولد وأقلق راحة نفسه وجسمه ورمى به فى ظلمة لا يغنى عنده فيها إيمان ولا عزاء - والنفسان بعد أقرب ما تكون إحداها إلى الأخرى ! ؟

ومما حدثتنا به الكاتبة أن هذه الأم الصبور كثيرا ما خطر لها أن تلتمس الغفران فى الدار الآخرة لولدها بإحراق مخطوطاته التى لم تطيع . وكادت تفعل لولا أن ابنتها عادت إذ ذاك من أمريكا فألقت أمها على هذا العزم تهم بإبادة كل ما فيه خروج على الله من تلك الكتب . فلقيت عناء كبيرا فى صرفها عن هذا العزم وأقنعتها بعد مشقة بترك هذه المخطوطات فى صندوقها ، لأن كتابة العبرى ليست بملك لأهله ولكنها ملك العالم أجمع .

ثم تعود الكاتبة فتتحدث فى اختلاف أهواء القلب الإنسانى وتعجب لزهو الأم بشهرة ولدها التى كانت تسوق إلى منزلها كثيرا من الزوار المعجبين به . وما كانوا يعجبون من آرائه إلا بما كانت تود هى إحراقه ومحو آثاره !

أما الزيارة التى قصدت الكاتبة وصفها فقد جاءت اتفاقا على غير انتظار . وكانت لاتطمع هى فيها ولا تطلبها . إذ كان المريض معرولا وحده فى حجره منفردة لا يدخلها غير أمه وأخته والطبيب الذى يعالجه ولا يسمح بالدنو منها لأحد غير هؤلاء . وكان لا يسمع له صوت فى المنزل غير ما يتردد بين حين وآخر من أنين خفيض مكتوم ينطلق منه على غير إرادة ولا شعور فى معظم الأحيان . وسبب الزيارة أن أحد المصورين رغب فى تصوير نيتشه فى بعض فترات صحوه حيث كان يجلس ساعات طويلة تحت دالية من دوالى الحديقة الصغيرة . فأجيب إلى طلبه ولكنه لم يوفق إلى إرضاء أم المريض ولا أخته وجاءت أعراض السقم فى الصورة أظهر مما أحببت تلك الأم المسكينة أن تراه على ملامح ولدها الذى انقطع الرجاء من شفائه - وكان لا يزال من أسباب العزاء لقلبيها أنه على خطورة سقامه وتقل وطأته كان فى ما ترى من ظاهره مشرق الطلعة وضاح

معرض الصور المصرى

للفن دلالة على مزاج الأمة وخواصها لا يدلها العلم ولا الصناعات ، لأن العلوم تنقل والصناعات تقتبس فتساوى فيها الأمم من علم منها ومن تعلم ، وإذا هى تفاوتت قبيها فشيبه أن يكون تفاوتها فى المقادير لا فى الصفات والكيفيات . لأن القضايا العقلية كالماء الطهور لا لون لها ولا طعم ولا رائحة . والمصنوعات اليدوية آلية يكاد يتمثل فيها الإنسان والأداة الجامدة ؛ فلا فرق بين نظريات أوقليدس يدرسها السويدي فى أقصى الشمال أو الإفريقي فى أقصى الجنوب ، ولا خلاف بين الآلات يركبها الأمريكى من مواد معروفة وبمقادير محدودة أو يركبها الزنجى من تلك المواد وبتلك المقادير - وإنما تفاوتت خصال الأمم وتمايز ملاحظها الباطنة بالفنون والآداب . فالنغمة الموسيقية تترنح لها أعطاف أمة طرباً وزهواً ، والصورة البارعة تترأى فيها نماذج الجمال فى نفوس أبناء تلك الأمة ، والقصيدة البليغة تلمس بها مكامن شعورهم ونجوى ضمائرهم ، والرواية الصادقة تعرض لك علاقاتهم وأواصرهم وتمثل لنفسك طبائعهم ومآلفهم - هذه المبدعات الفنية أو واحدة منها تنبئك عن أخلاق الأمم ومبلغ رقيها النفسى بما لا تنبئك عنه جميع علومها وصناعاتها ومخترعاتها ، فلا تؤمن برقى أمة بلغت فيها المعارف العقلية والصناعية أوجها الأعلى إذا هى كانت مع ذلك مقفلة الفنون ضئيلة الآداب ، إذ لا عبرة فى رقى الشعوب بغير الرقى الذى تشترك فيه الشاعر والحوالج النفسية ولا فائدة من علم سام لا تستخدمه نفس سامية . وعلى أنه هيهات يتقدم شعب فى علم أو صناعة إن لم يصحب تقدمه هذا تقدم فى فنونه وأدابه ، لأن نهضة العلوم لا تتأتى بغير دوافع نفسية وهذه الدوافع لا تكون حيث لا تفقه النفوس بحاسن الحياة ومغازى الشعور الصحيح ثم تعرب عنها فيما تنغنى به أو تنشده أو تصوره أو ترمز إليه . لذلك يسرنا ما نراه من بوادر النهضة الفنية فى مصر ونستبشر بمظاهر هذه

فكره فياسف لها ويشكوها ؟؟ ولاندرى كذلك أيها كان خيرا له فى الحقيقة : أن تزهره القسوة لأول عام من مرضه أم أن يثوى فى قبضة المرض معذبا ميثوسا من صلاحه هذا التواء الذى يمل فيه التعميم والدعة فضلا عن المحنة والبلاء ؟؟ تلك مسألة فيها نظر .

عل أنه مما لاشك فيه أن الطبيعة لاتستغنى عن فضيلة الرحمة . ولو كان يسعها أن تستغنى عنها لما احتاجت إليها فى أهم أغراضها ، وهو حفظ النوع . فأودعت قلوب الوالدين هذه الرحمة الخالصة بالبنين .

تهويل المصلحين :

معظم المصلحين - حتى الكبار منهم - لا يقدرّون مناعة الإنسانية حق قدرها ولا يحيطون بقوة قابليتها للتوليد والتشكل على حسب الأحوال ولا يعرفون ذلك الينبوع الزاخر الذى منه استمدت وجودها ومنه تستمد العون كلما تقطعت بها الأسباب وخيف عليها الهلاك - تلاحظ جهل المصلحين هذا فى شدة وجلهم على الإنسانية وهول إنذارهم لها كلما رأوا منها ما يحسبونه انحرافاً أبدياً عن الصواب أو شططاً باتناً عن سبيل النجاة . وشكراً لذلك التهويل منهم . فإنهم لو فطنوا إلى قوتها وصلابة عودها وأن لها بنية على طول الزمن تهضم الأدوية كما يهضم الشباب القوى وعكات الهوام لتبدلوا من غيرتهم تراخياً ومن غضبهم تقاضياً . وأنى يكون لهم أن يفلحوا فى دعوة خير بغير تلك الغيرة وذلك الغضب ؟

وعندى أن فن التصوير يترقى في ثلاث درجات لا يصعب على مصوريها الأماثل بلوغ ذروتها العليا مع المثابرة والتوفيق فأول هذه الدرجات درجة النقل البحت والثانية درجة النقل بتصرف يوحى إلى الناظر إحساس المصور بما ارتسم في نفسه وجرى به ريشته . والثالثة درجة الابتداع والرمز المعنوي وهي القمة التي لا يتسبوا بقلده ولا يسمو إليها إنسان من غمار الناس مهما بلغ من فوطه تعلقه بالفنون واعجاباه بطواهرها .

في الأولى يظهر نظر المصور وبهده ، وفي الثانية يظهر ذوقه وشعوره ، وفي الثالثة تظهر روحه وعبقريته . ولعل هذه المرتبة هي التي يقصدها جني شكلا ، « إن أسنى وظائف كل فن هو تمثيل صورة لقيقة سامية في زوا . تحتاج محسوس » والقدرة كل القدرة إنما هي في إدراك الحقيقة السامية ، فإنها لا تحتاج إلى حاسة مضافة في الإنسان ولكنها تحتاج إلى نظرة تحسن تصور المحسوسات المدركة رفيعها ووضيعةها . فمن استطاع قتل الحقائق السامية وتقبلها كان لبصائر الناس بمثابة المجهول لأبصارهم ؛ يترجم ما كانوا يحسونه ضباباً مهما فإذا هو أمامهم نجوم واضحة مستقلة تدور في أفلاكها بحساب ونظام مقدور . فلا يلتصق الناس بتأثير الفن النادرة في عالم الضباب والأوهام ولا في عالم الانشقاق والسراديب فإن عالم الفن مشرق الساء واضح النهار ، لا تلوخ الأشباح والغمغمة في لياليه إلا لأطفاله وجهاله ، وإنما هي آفة النظر القصير ترى صاحبها الضباب حيث تسطع النجوم وتبدي له الخيالات الوهمية حيث تبدو الحقائق السامية .

وفي المعرض المصري الكبير من صور النقل المحكم وليس بالقليل من معروضاته ما توحى فيه أصحابه التصرف الموزن بالنباح والإيقان المبشر بالاختراع والإبداع . فبينهم ما يلقوه وترجو لهم الزيد الفرد . وتقول لهم إن بين أيديهم وأيدي عشاق التصوير عامة أمانة كبرى يؤدونها لمصر فليقبلوا جهده المطبق وليؤدوها على أحسن ما يستطيع من الإخلاص والوفاء .

لقد كان لمصر فن جليل نشأ في حجر الموت القدس والتلود فخلا من بهجة الفن الإغريقي ورشاقة الفن البيزنطي ونبغ الفن الفرنسي وتيسق الفن

النهضة لأنها الدلالة الصحيحة على تطور الأمة المصرية في مساعيها الباطنة . وليس من انفتاح المصادقات هذه النهضات نراها في آن واحد تظهر في غناننا وتقبلنا وتصويرنا وشمرنا الحديث - فالشعب المصري اليوم يفهم ما يفهمه فلا يحيل الكلمات مطايا بكاء لا معنى لها إلا أن تحمل إلى آذانه الأملحان السقيمة والنغمات الفاترة ، وهو يشهد على مسرحه تقريبا يتدرج إلى الوصف الاجتماعي الصادق ، ويرى من أبنائه من يشتغل بالتصوير ويعنى بإتقانه والتبريز فيه حيا في الفن لا طمعا في الكسب ولا تطلما إلى الشهرة بين الجماهير ، وقد أخذ الشعر المصري يطق بلسان آدمي بعد أن كان يروى عن تائبيل جوفاء صاغتها البلادة والقديم - حدث هذا الانتقال في أوقات مقاربة ترجع كلها إلى أوائل العقدين الأخيرين من الجيل الذي نحن فيه فكان التوافق في نفس الفنون كلها تنفس الحياة واستيقاظها دليلا على تنبهه قد شمل الأمة بأسرها ، وحق للمفكرين أن يستنتجوا من وراء هذه اليقظة الفنية روحا قومية ناشطة من سبات الجمود كما يستدل المفحص على جيشان الماء في جوف الأرض بانجاس يتابعه في الأماكن المختلفة دفعة واحدة .

ومن أقرب شواهد هذه اليقظة الفنية انفتاح معرض الصور المصري الذي أعده في هذه الأيام عشاق التصوير وطلابه وقصروه على الصور من صنع المصريين وحدهم ليكون عنوانا خاصا تبرز فيه الروح الفنية بالروح القومية ، فأحسنوا صنعا ودلوا على ذوق سليم .

زرت هذا المعرض أسس قرأيت زرعاً يتجهم في منبت خصيب وأملا يشرق في سماء صافية . فإذا سلم الزرع من لوانح السوم وخطت الساء من دواهم الغيوم ، أصبحتا بعد قليل ولنا فن مصري رائع يذكر كلما ذكرت فنون الأمم ، ويسمع الناس اسمه فلا يكون عندهم وقتاً على محادثات مجدنا القديم وبقايا فن الفراعنة المهجور .

لا أقول إن معرض الصور المصري بلغ الغاية وتتره عن المأخذ فهذا ما لا يقال في معرض من معارض العام . ولكني أقول إنه في طريق التقدم والإيقان وفي النهج القويم إلى التكميل والتخج ، وهذا كل ما يطلب منه اليوم .

كتاب الأخلاق

هو عجالة مفيدة في الأخلاق^(١) ألّفها لطلاب هذا العلم الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد أمين المدرس بمدرسة القضاء الشرعي وسن بها سنة محمودة لمدرسي الأخلاق في مدارسنا ومعاهدنا العلمية ، فقد كان العهد بالفصول الأخلاقية أن تكون موضوعات إنشائية فارغة يفتتحها مؤلفوها بأبيات من الشعر أو مقتبسات من الحكمة في الحث على هذه الفضيلة أو التنفير من تلك الرذيلة ، وكثيراً ما يدحون الخلة الواحدة ويذمونها في صدد واحد ، ويعدون ذلك من آيات البراعة والافتتان . وكانوا إذا كتبوا في مناقب النفوس أو مثالبها نظروا إليها كأنها أجزاء مودعة في النفس بعناوينها كما تودع العلب والحقائق رفوف التجار . وكأنما ليس عليهم إلا أن يرفعوا حجاب النفس فيروا فضائل الشجاعة والصدق والعزم والمروءة ماثلة في أماكنها أو يروا هذه الأماكن خاوية منها تنتظر إياها إليها . وما أحقر علم أخلاق يكون على هذا المثال .

أما العجالة التي بين أيدينا فقد خالف فيها مؤلفها ذلك النمط العتيق وعالج رد الأخلاق إلى عللها الطبيعية فجمع بين النفس والجسم بسبب ، ولحظ طبائع الحيوانية وهو يتكلم في خصائص الانسانية ، ورأيانه يكتفى بالقواعد المجملة ولا يستطرد إلى ما وراءها من المسائل الخلافية والشكوك التي لا آخر لها ، وحسناً فعل ، فإنه خليق بالطالب أن لا يتعلم طلاس وشكوكاً تضل ليه وتبلبل قلبه وحسه أن يجد من مادة التعليم ما ينتهي منه ببحثه واطلاعه وتجربته وتفكيره إلى حيث يقوده استعداداه .

ومع ثنائنا على هذا النحو الذي نحاه المؤلف ننبه إلى تساهل في العجالة وددنا

(١) الأهرام ١٠ مايو سنة ١٩٢٠ .

العربي . ولكنه أمتاز بالضخامة ومسحة الدوام والثبوت فلم يضارعه في هذه الميزة فن من الفنون . بيد أن مصر اليوم غير مصر القراعنة الأقدمين ، فمن الرجوع إلى الوراء أن نبني على أساسهم وتنسج على منوالهم ونحن في القرن العشرين .

نشأ الفن المصري القديم في ظلال الموت والخلود فلينشأ الفن المصري الجديد في كتف الحياة والمثل الأعلى . وإنه لن يخسر بذلك ، بل هو لا شك يكسب وينمو ويقوى لأن الحياة أعمق من الموت والمثل الأعلى أسمى من الخلود .

الوصف الشعري :

تذكرني آراء كتابنا في الوصف الشعري بقصة ذلك الحاكم الأمي الذي جيء له برجلين يمتحنهما في الخط ، فأمرهما بكتابة كلمة تور وكان أحدهما أمياً مثله فرسم التور رسماً ساذجاً وكتب الثاني الكلمة بأجود خط وأحسنه فاستجهد الحاكم صاحبنا هذا وقضى للأول عليه لأنه رأى قرني التور وذنبه وأظلافه في ورقة الأمي ولم ير أثراً لذلك في ورقة الكاتب الخبير .

وكذلك يظن كتابنا عفا الله عنهم أن الوصف الشعري من شأنه أن يمثل المناظر للعين فيغنيها عن النظر ويجهلون في أميتهم الفكرية أنه وصف يرمز إلى العواطف والاحساسات التي في النفس كرمز الحروف إلى الصور المعنوية ، فإذا وصف الشاعر الوردة فليس المقصود من وصفها أن تعلم أي شيء هي في النفس . والشاعر المطبوع لا يعنيه أن يشبه حبيته كما يشبه الشرطة المجرمين في أوراق تحقيق الشخصية وإنما يعنيه أن يشبه كلفه به وهيامه بحاسنه . وما يأتي في خلال ذلك من تمثيل تلك المحاسن فإنما يأتي عرضاً ظهاري مبلغ ذلك الهيام . أو للدلالة على استحقاق المحبوب له إن كان لتلك الدلالة قيمة .

الحق والباطل :

كثيراً ما يكون الباطل أهلاً للهزيمة ولكنه لا يجد من هو أهل للانتصار عليه .

لا يستفاد من فتى في هذه السن ليلقى على الطلبة أو يدرس لهم كما تدرس
صفوة الحقائق وخلاصة التجارب ، ولا سيما إذا كان ذلك الفتى يسوق بطل
روايته إلى بخع نفسه حزناً وانقباضاً وأسناً على شيء يفوت الكثيرين
ولا يقتلون أنفسهم أسفاً عليه .

لو خلت منه ، وهو تحميل التعريفات والضوابط فوق ما يتحملة لفظها ، ومثال
ذلك قوله في تكوين العادة « كل عمل خيراً كان أو شراً يصير عادة بشيئين ميل
النفس إليه وإجابة هذا الميل بإصدار العمل مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً .
أما تكرار العمل الخارجى وحده أعنى مجرد تحريك الأعضاء بالعمل فلا يفيد
تكوين العادة . فالمرضى يتجرع الدواء المر مراراً وهو في كل مرة كاره له يتمنى
اليوم الذى يشفى فيه فلا يتجرعه ولا يصير شربه الدواء عادة له . » .

ولقد كان يصح إطلاق هذا القول لو أننا شاهدنا رجلاً يكرهونه على تجرع
الأفيون فيتجرعه مرة بعد مرة كارهاً مجبراً ثم لا يرغب فيه مختاراً بعد الامتناع
عن إكراهه عليه ، أو لو رأينا رجلاً يصاب بالصرع فتجرى منه أعمال وأقوال
تعودها كلها أخرجته النوبة عن طوره واستطعنا أن نقول إنه يميل ويجيب داعى
الميل في هذه الحالة ، أو لو أمكننا أن نجزم بأن مشى النائم في نومه لا يسمى
عادة يصدق عليها كل ما يصدق على العادات من مران الأعصاب على تكريرها
وسهولة إتيانها بها . فأما قبل أن يثبت شيء من ذلك فلا يصح أن نجعل العادة
رهينة بالميل والإجابة بإصدار عمل . ثم إن المعروف أن العادة تكون في
العجماءات كما تكون في الإنسان ، فإذا سيرنا حيواناً في طريق واحدة مراراً
متوالية صعب تحويله منها إلى غيرها ولا نحسب نظرية الميل وإجابته بإصدار
العمل تفسر العادة في هذا الحيوان .

ومما يؤخذ على المؤلف استشهاده بغير الثقات أحياناً ونقله أقوالاً لرجال
مشهورين كتبوها في أعمار لا يحتج فيها برأى الرجل مهما كان نصيبه من
العبقرية وخصوبة الذهن ، من ذلك ما استشهد به على كتاب آلام فرتر للشاعر
جيتي إذ يقول « ما أولى انقباض النفس أن يكون غيظاً كميناً من نقص كفاءتنا
وسقوط قدرتنا وسخطاً على أنفسنا مصحوباً برذيلة الحسد التى تهيج فينا الزهو
الشديد والعجب المفرط الخ الخ » .

فقد يستظرف المقال أو القصيد يصنعه الشاعر النابغ في الرابعة والعشرين
من عمره يصف فيه عشقه وهو اجس فزاده ، ويتمنى فيه ويتخيل ما شاء له
الصبا ونجاة العقل ، فأما الحكم على حالات النفوس وأصول الأخلاق فما

لكن الرجاء لا يدين بهذا المنطق العقيم . إنه يقول لها انهضى فتنهض ،
مزقى غلافك فتمزقه ، وشقى أديم الأرض فتشقه ، وكافحى الرياح
فتكافحها ، وابلغى حظك من التمام فتبلغه . فإذا هي زرع بهيج مستو على
سوقه يعجب الزارع .

وما أحسن حظ الأحياء !!

إن تلك الحبة لا تستشير الفلاسفة ولا تأخذ بنصح الحكماء - إنها لا تسمح
لأولئك القادة المفكرين ، الذين إنما يبيحون أممهم من حق الحياة على حساب ما
بينها وبين القوى المقاومة لها من الفروق ، والذين يقولون لأممهم في كل مطلب
تطلبه أنك ضعيفة وأنتهم أقوياء ، والذين يستحتمون تلك الحبة في مجازفتها
ولو أنها كانت مثلهم في حذرهم وأنتهم لما نبتت على ظهر الأرض نابتة ، ولما توا
جوعاً قبل أن يولدوا في هذا العالم الطائش المجنون !!

أيها الرجاء !

ما أحوج الناس إليك وما أسهل طريقك إليهم . كذلك عهدنا بالزيم حاجات
الأحياء : الهواء والماء والضيء ، ولعمري أن حاجتهم إليك لأكبر ، وإن طريقك
إليهم لأسهل وأيسر ، لقد تخطبت بهم سدود الموت فمددت لهم من ورائها رواقاً
رحيباً ينعمون بانتظاره قبل أن ينعموا بجواره . وفتحت أبواب السماء فغمرها
الإنسان بأحبابه وأنصاره ، واتجه إليها بصلواته وأفكاره ، واستأنست له أعالي
الكون وأسافلها فكأنما هو منها في قرارة داره . وكأنما أنت الأثير المفروض
لا يخلو منه فضاء ، بل أنت أثير الروح لولاك - أشرق عليها ضياء ، ولما جال
في نواحيها جمال السماء .

ولقد قبل لأحدهم . كيف تكون جهنم؟؟ فقال مكان لا رجاء فيه . وقد
صدق . فحيث يسود القنوط فهناك عذاب أليم وشيطان رجيم . وحيث يقيم
الرجاء فهناك جنة نعيم ، ووحى من الله وتسليم .

الرجاء

إن الرجاء طبيعة الحياة ، لا بل هو اسم آخر من أسمائها" ، فما كانت
الحياة إلا أملاً يتحقق لصاحبه على غير إرادة منه ، وما كان حتى قط إلا أمنية في
ضمير الغيب ، غلب فيها الإقدام على الإحجام . والترقيق على الجبوت ، وسنة
الخلق على فوضى الإهمال . فإذا هي ذات سوية ، ونفس شاعرة ، ظهرت
يسبقها الرجاء ويحدوها الرجاء ويستاق ركايبها الرجاء ، ولو كان غير الرجاء
عنواناً للطبيعة لما كان لنفس حية من سبيل إلى الوجود .

أرأيت حبة البر الضئيلة متروكة في حيث يترك الرفات السحيق؟؟ أين هي
في قلتها وصغرها من عناصر الشك المحدقة بها ، وزواجر الخوف المترصدة لها ،
تثقلها الأرض بأديمها ، وتنذرها الرياح بسمومها ، ومن فوقها منجل للحصاد
كم حصد من قبلها سنابل وحبوباً ، لا بل قبائل وشعوباً ، وألواناً من نبت
الحياة وضروباً ، فما كان يعوزها في كل ذرة من التراب نذير جهير ، وفي كل
صوب من الفضاء عدو قدير .

تلك الحبة لو وقفت لحظة في مكمنها تزن قوتها إلى تلك القوى ، وتقسم
جرمها على تلك الأجرام . وتقيم حقها في البناء على ما ظهر لها من هذه الفروق
وتبنى أملها في الفلاح على ما أصاب الزروع الفانية من قديم : - فأى مثوى
كانت تراه لمداراة ضعفها وذلتها أرأف بها من التراب؟ وأى مقر كان أحق بها
من ذلك القبر المستور؟؟

إنه مأمنا الذي لا تخاف فيه ... وفي القبر يأمن الأموات !!

فائدة من أفكاره

ذكرني الجزء الثاني من كتاب الراقعي^(١) بجزئه الأول . وكتبت قد رأيت ولم أقرأه إلا إماما . فلما تناولته هذه المرة كان أول ما انفتح لي فيه فصل في مناطق العرب .

فقرأت منه إلى قوله : « وكذلك وجدوا اللغة الهيروغليفية القديمة . وهي من أقدم اللغات المعروفة ليس من حروفها في المنطق (بـجـ د ز ظ ض) بل أنت ترى الدليل الذي لا سبيل إلى رده في هذه الحروف الطبيعية الخالدة التي لا يزداد فيها ولا ينقص منها وهي ما يتهاى من منطق الحيوان السائم فإنها على قدر الحاجة الحيوانية مما لا يتجاوز معنى الإحساس الذي هو المنطق الباطني » .
وكأنما بدا للمؤلف أن بين القول بصدور اللغة في الحيوان عن الإحساس وبين كونه يتعلم حرفاً أو أحرفاً من لغة الناس ، تناقضاً ولبساً لا يحسن أن يترك بغير تفسير واستدراك فكتب في الهامش : « أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها وبذلك تأتي لبعض الألمانين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الألمانية ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضا » .

وهذه أفكاره لا ضير على الأديب الراقعي ولا على أحد سواه في أن تتخذ منها فائدة أو تقيس عليها مثلاً نيين به طريقة بعض الناس في القياس .

الكلام في مخارج الحروف . فكان سبيل الراقعي بعد أن ذكر لغة الهمج وأنى على ما ينطقونه من الحروف وما لا ينطقونه ثم أطنب فذكر لغة الحيوان

(١) التزيد ١٦ مايو ١٩١٤ .

حزن المصريين :

يعجب بعضهم لشدة حزن قدماء المصريين على مراتهم وفرط تعلقهم بذكراهم ولا يرون ذلك يوافق الاعتقاد الثابت بخلود الروح وبقاء الحياة بعد الموت ، والحقيقة أن هذا التعلق الدائم هو الدليل على الاعتقاد بوجود الميت واتصال حقوقه على ذويه فلا ينسونه ولا يهملونه . كأنما هو قريب مغترب لا تنقطع عنه الرسائل والهدايا .

العصرية في الشعر :

إن وصف الطيارة لا ينم على روح عصرية إلا كما ينم وصف قطار من الجمال دخل مدينة لوندرة أو باريس على جاهلية الشاعر الانجليزي أو الفرنسي ، فإذا مثل الطيارة بدوى قادم من جوف الصحراء فليس يستخرج أحد من ذلك أنه حديث الذهن مدني النفس . إذ ليس المعول في معرفة عصرية الشاعر على وصفه الاختراعات العصرية . ولكن على كيفية الوصف ووجهة النظر .

كذلك يسهل عليه أن يتلفظ بما يقابل هذه الكلمات في لغات العالم أجمع - وهي كلمات يتألف من مجموعها معجم ضخم يشتمل على مخارج الحروف الآدمية من أنقلها إلى أخفها ، فمن أين للكلب هذه القدرة ؟ أو يكفى أنه يسغب ويظماً لتكون قوة النطق فيه كما هي في الإنسان ؟

هذا مثال من أقيسة الرافعى . وإن الرافعى ليعلم كما نعلم أنه منشئ مكين ولكنه يحس من نفسه اضطراب القياس ويظن أن الناس يحسون منه ما يحسه من نفسه ، فيكثر من القياس كما يغالى الفقير بظاهره ليستر فقره ، وهو كلما عمد إلى الاستقراء والاستنتاج ونع في مثل هذا الخطأ .

ونحن لم نقل عبثاً في مقالنا عن جزئه الثانى أنه أعمل القلم ولم يعمل الرأى ولكننا نقول الآن أنه ما كان ليستطيع أن يصنع غير ذلك . فإن شاء عددنا كتابه كتاب أدب ولكننا لا نعد كتاباً في تاريخ الأدب . لأن البحث في هذا الفن يتطلب من المنطق والزكاة ومعرفة (النطق الباطنى) ما يتطلبه الرافعى نفسه ولا يجده في استعداده .

الظواهر والبواطن :

ليس بين ظواهر الأشياء وبواطنها حد فاصل . فكل البواطن ظواهر مكشوفة لو أحسن النظر إليها من الجهة المثلى ، وكل الظواهر بواطن خفية لو أسوء النظر إلى تلك الجهة منها . ومن البدييات عند قوم ما يعد أسراراً مغلقة عند قوم آخرين .

الشر الدخيل :

من الناس من يفعل الخير لأنه لا يجد حجة يسوغ بها عمل الشر أو يوارى بها فعل السوء وليس يزعه عن اختلاق تلك الحجة إلا بلادة حس وجود عقل . أما من هم أمهر من ذلك من الأشرار وأطبع على الأذى فيخلقون الحجة في كل حين ويفعلون الشر كلما وجدوا حجة له .

(الطبيعية الخالدة) أن يقارن بين اللغتين ، فإن توسع فليبين كيف ترقى لغة الهمج عن لغة الحيوان ويظهر منزلة الأصول الصوتية الأرى من اللغات قاطبة . وإلى أى حد تتقارب فيها أصوات الحيوان وأصوات الإنسان . ولكنه جاء إلى هذا المسلك المأبور فأغلقه حين قضى على حروف الحيوان بأنها لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإنما كانت جملة معترضة بها لتحلية الكلام فاعترضت كما ترى بينه وبين سبيله - وأحب الرافعى أن يكون عميقاً في حكمه ، بعيد الملاحظة في رأيه فأعرض عن آلات النطق في الحيوان ونزل إلى مقر الإحساس منه . فمد بسبب بين خفة الحرف أو ثقله على اللسان وبين ماسمأه النطق الباطنى ، ولما علم أن العلماء سهلوا على جهاز النطق في الكلاب أن يتحرك ببعض الألفاظ الأوربية لم يعلل ذلك بأن جهاز النطق في الحيوان مهياً للتحسن والاكتمال ولا بأن الأصوات الحيوانية أصل نمت منه فروع اللغات الإنسانية . بل رأى أن ذلك إنما كان لأن الكلمات التى تعلمها الكلب « كانت في الجملة من حاجاته الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضاً » .

وعلى هذا فالكلب لم يع من الألفاظ إلا ما هو من معنى الطعام لأن إحساس الحيوان قاصر على ما يتصل بأكله ومشربه وما ناسب ذلك من الشهوات التى يضيق نطاقها كلما انحط المخلوق في مرتبة المخلوق . وليس لأن العالم الألمانى خفف عليه نطق الكلمة بالنعود والمران . كذلك يقول الرافعى !! فلو أن العالم عالج تلقينه اصطلاحاً هندسياً أو أخلاقياً لما نسب به لأنه ليس من حاجاته الطبيعية . نعم ولو كان هذا الاصطلاح قريباً في حروفه من كلمة في معنى الطعام كالمقاربة التى بين كلمتى سَمَكٌ وَسَمَكٌ وَعَظْمٌ وَعَظْمٌ !! كذلك لو عالج العالم الألمانى أيضاً أن يلحن نملة أو برغوئاً ما لقنه ذلك الكلب لما استعصى عليه ذلك ، لأن الأكل والشرب من حاجات النمل والبراغيث كما أنها من حاجات الكلاب . ولا عبرة باليون البعيد بين آلات النطق في الكلب وبين آلاته في النملة أو البرغوئ فإن هذا لا يضعف من ذلك الإحساس الطبيعى أو النطق الباطنى !!

وكما سهل على الكلب أن يتلفظ بكلمات الأكل والشرب في اللغة الألمانية

خطرات وشدور^(١)

الشرق والعرب :

الفروق بين أساليب الشرقيين والغربيين في التفكير كثيرة ، ولكن لعل أوجزها وأجمعها فرق واحد : هو أن الشرقي ضبع على النظر إلى غايات الأشياء ، وأن الغربي طبع على النظر إلى عللها ، وربما كان سبب هذا الاختلاف أن الشرقي وجد ثمرات الطبيعة مجهزة أو سهلة التجهيز فنظر إلى معناها وفحواها ، وأن الغربي احتاج إلى استخراجها فنظر إلى أسبابها ومناشئها .

العدل والقوة :

أيها خير للناس جميعاً وللأقوياء والضعفاء معاً : أن يكون القوى عادلاً ينصف الضعفاء من نفسه ولا يستأثر بحظ من حظوظ الحياة دونهم فيظل قويا بلا منفعة له من قوته ويظلون هم ضعفاء بلا ضير عليهم من ضعفهم ، أم أن يكون مفتنتاً طاغياً يؤث باستعلائه وكبريائه نيرانهم ويتغلغل بسطوته في دخيلة نفوسهم وفي حيث يخامر الذل قلوبهم فلا يدع ثم موضعاً من مواضع الدعة إلا زلزه ولا عدة من عدد النهضة إلا شحذها ، حتى يضطرهم اضطراراً إلى تنكب أسباب الضعف والأخذ بأسباب القوة ؟

الذي يحصل هو هذا والذي يتمناه الناس هو ذلك ولكن الذي يحصل هو الخير والرحمة والذي تمنوه هو الضير والوبال .

مادام في الأرض ضعف وقوة فمن الرحمة بالعالم أن لا يتساوى الضعفاء والأقوياء .

(١) نشرت طائفة من هذه الشذرات في صحيفة الرجاء .

ذم الحياة :

إن الذين يذمون الحياة هم الراغبون في حياة خير منها لا الراغبون في الموت كما يتوهم الكثيرون . وربما كان ذو النعمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون في صفوها ونعيمها . كما يكون المقامر الخاسر أرغب للاعبين في ملازمة مائدة اللعب إلى النهاية .

كل ذي عاهة جبار :

يؤثر الإنسان أحياناً أن يكون عرضة للمقت والغیظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف - وهذه علة ما يرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة من تعمد إسخاط الناس واستنفاد صبرهم . يحاولون الهرب من رحمتهم إلى نقيمتهم ، ومن إحسانهم عليهم بالعطف إلى مساواتهم بالمنازلة .

الأزل والأبد بما تهيج من عواطفه وتبلبل من خواطره . كما تحجب الكف القريبة من العين اتساع الفضاء الذي لا نهاية له .

أمن الصغير :
لا يهز الإعصار الجارف ماء الحوض الصغير ولكنه يقيم الخضم الواسع ويقعده .

المجاملات :
الصادقون في عواطفهم لا يبالون بالتحيات ومظاهر المجاملة . والذين لا يشعرون بصدق العاطفة يسبون أن هذه المجاملات هي الإخلاص بعينه والحب في لبايه . وقد يتفق أن يرغب المخلصون في مجارة الناس فيتكلفوا المجاملة فيبدو عليهم كأنهم براءون في إشاراتهم وأقوالهم وكأنهم يظهرون من العطف للناس غير ما يبطنون لهم . على أن غيرهم يجامل بلا كلفة فيلوح عليه الإخلاص والصدق وهو بعيد عنها .

ولسنا نقصد بالإخلاص هنا ما يقابل الختل والغش . وإنما نقصد به اشتغال العاطفة على النفس وشيوعها في كل جزء من أجزائها . ونقصد بما يقابله ذلك الشعور السطحي الذي لا تعرف النفوس الضئيلة نوعاً من الشعور غيره . وهو شعور لا يبالي صاحبه قبلته منه أو رفضته لأن محوه أو استئصاله لا يكلفه إلا أن ينزع عن نفسه غشاء رقيقاً مفصلاً عنها لا يمس نزعة اللحم والدم . أما شعور الإخلاص الحق فشديد على نفس صاحبه أن يفارقها ، لأنه يخرج منها خروج الحياة من أوصال الجسم فيزعجها من أعماقها - وكثيراً ما يساء الظن بالمخلصين فيكون احتقارهم لمن يسوء بهم الظن شديداً ويزيدهم احتقاراً للمرتابين فيهم أن يروهم يحسنون الظن بغير المخلصين . ومن ثم خرج أصلح الناس للحب الطاهر من هذه الدنيا وهم متهمون جهلاً باحتقار الناس وبغضهم إياهم . وقل في عارفهم من يعلم أن لهذه الجفوة سبباً هم متصفون فيه غير ملومين .

نشر الدين :

الغيرة على نشر الدين مقصورة على الموحدين ولا أظن الوثنيين كانوا يرتاحون إلى مشاركة الأجناس الأخرى لهم في نحلهم وأديانهم ، لأنهم يعتزون بامتيازهم بدين خاص لهم اعتزازهم بجنسهم ونسبهم ولغتهم . يبرون آهنتهم كأبائهم وأجدادهم ينبغي أن تكون لهم بلا شريك .

محاكاة الطبيعة :

القول بأن الشاعر يغني محاكاة للطير في شدوه لا يقل في الغرابة عن القول بأن الإنسان يطهى الأطعمة محاكاة لأكلة البرسيم ونهشة اللحوم من الدواب . إن حاجة الشاعر إلى الغناء كحاجة الطير إلى التغريد فلم يكون أحدهما حاكياً ؟

حكم طبيعة المرأة عليها :

الله مذكر في اللفظ . ولو أمكنك أن تخطف أجوبة الرجال والنساء من قرارات أفكارهم وعلى غير انتباه منهم وسألتهم : هل الله مذكر أو مؤنث لأجابوك على الفور : بل هو مذكر . فلإله صفة الذكورة الوهية في بدائه الرجال والنساء على السواء ؟ ونعني بالبدائه ذلك الجانب الذي لا يعيه الذهن ، حيث مستودع التصورات والأخيلة التي لا سلطان للبحث ولا للروية عليها . فالمرأة لن تستطيع أبداً أن تتصور في أبعاد خبايا نفسها أن يكون هذا الإله الفرد بصورة الأنثى ولن ترى من حق تنزيه الإله عليها أن تتصوره كذلك . فكيف تراها تصدق في الإعراب عن حكم طبيعتها إذا قالت إنها لا ترى فرقاً بين الرجل وبينها ؟

شواغل الحاضر :

شواغل الحاضر الضئيلة قادرة على أن تحجب عن بصيرة الإنسان جلال

والجثث البالية والذكريات المحزنة ، فقال أحد الحاضرين ولعله كان متهكماً :
هذا حسن ! هذا انتصار للحياة على الموت .. أليست الشهوة من الحياة ؟
ولا أدرى بعد : لم لا يكون هذا الفجور في المقابر انتصاراً للموت على
الحياة ؟ أليس هو انتصار للدعارة على الخلق الوثيق والطبع السليم ؟ نعم
وما أقرب الدعارة من الموت وما أضيع الحياة بغير خلق وثيق وطبع سليم .

إرادة الراحة :

لو كانت الراحة غرض الحى من الحياة لوجب أن يكون الكسل أصلح
حالة يستقيم عليها نظام الجسم ، وهذا خلاف المشاهد فإن الكسلان المتراخي
تداعى قواه النفسية والعقلية والجسمية ويهبط تسيباً فسيباً إلى الضعة والعتة
والسقم . فإذا كان قولهم أن المادة تقتضى الطريق المريح صحيحاً في الجمادات
فليس بصحيح أن تقاس حركات الحياة على هذا الحكم كما فعل سبنسر ، ولا بد
من تعديله عند النظر إلى الأحياء ، ومع هذا أرى أن أى قول من الأقوال في
بيان المحرك الأكبر للحياة سواء أكان قولهم بإرادة الوجود أم بإرادة المعرفة
أو السعادة أو الاتصال ، خيراً وأشرف من القول بإرادة التطفل التى ذهب
إليها « نوردو » غلوا في تطبيق رأى سبنسر . لأن الأقوال الآتفة تعين لنا
أغراضاً نسعى إليها وأما قول سبنسر أو قول نوردو فلا يعين لنا إلا مهرباً من
أغراض شتى . وإلا فماذا فى قولك أن الإنسان يريد أن يستريح من العمل
أو يريد أن يعمل له غيره ؟ ثم ماذا يعنيننا أن نعلم أن المادة فى الإنسان خاضعة
لأحكام المادة العامة إذا كنا نعلم أن الحياة هى قوة تحرك مادته فتتقاد لها وأن
هذه القوة لا تملك زمامها حيال قوى أخرى مجهولة ؟ نعم ماذا يعنيننا أن الحجر
يؤثر السكون وهو لا يملك لنفسه الحركة أو السكون ولا مناص له من قوة
تقذف به مرة من المرات لأنه لا يقذف بنفسه ؟ إن الذى ينبغى أن نبحث عنه
هو طبيعة هذه القوة لا طبيعة الحجر . فهل هذه لقوة تؤثر الراحة ؟
كلا فالذى يبني علم الأخلاق على حب الإنسان للراحة ويجعلها مرمى كل
حركاته وسكناته هو كمن يبني علم « الميكانيكا » على طبيعة الثقل فى

الشر النافع :

لا يتندر أن يكون القضاء على رجل شرير قادر فى شره أضر بالعالم من
القضاء على رجل غفل لا يرجى نفعه ولا يرهب له أذى .

العصية :

لا يقدر أحد على أن يخدم الناس جميعاً . وإذا نصب نفسه لذلك أوشك
أن لا يخدم أحداً . فلا بد من العصبية التى تجعله قوة فاعلة فى جانب من
الجوانب فيؤدى ما عليه من واجب عام من طريق الواجب الخاص .

أنانية الإنسانية :

العالم الإنسانى شديد الأثرة . فهو لو علم أنه ينال الخير من يسديه إليه
ولكن بعد تحطيمه وإتلافه لم يحجم عن ذلك ولم يذكر للمحسن إليه حق الشكر
ولا خطر له أنه مدين به لذلك المحسن المغمور . وكثيراً ما يكون الانتفاع
بالخير وإهلاك جالبه أقرب طرق الإنسانية إلى اغتنام ذلك الخير .

بين الموت والحياة :

أقمت زمناً فى « الإمام »^(١) ، وكنت أرى الموت هناك فى كل ساعة فكان
يتمثل لى كأنه وحش فائق لكنه من الدواجن التى تقيم بين البيوت ، وكان
يخالجنى فى معظم الأوقات شعور لا أدرى أهو الاستهزاء بالموت أم الاستهزاء
بالحياة ، ولعل الشعورين بعد متقاربين ، فما استهزأ أحد بالموت إلا كان
للحياة نصيب من ازدرائه .

وكان يوم عيد . فقبل لنا إن هذه المدافن كثيراً ما تكون مواخير للفجور
يغشاها الفساق أيام الأعياد والمواسم قضاءً للبانات الهوى بين العظام النخرة

(١) اسم منطقة القبور والمدافن - خارج مدينة القاهرة .

كتمان غضبهم وامتناعهم فتغرس في نفوسهم الحقد والضغينة وتبدلهم من عدوان الغضب عدواناً هو شر منه وأضعف . وعندى أن كظم الغيظ ما لم يكن مظهرًا من مظاهر ضبط النفس وغلبة الإرادة على الأهواء فهو هزيمة لا انتصار ورذيلة اضطرارية لافضيلة مختارة .

طلب السعادة :

إن طلب السعادة - إن صح أنه العامل الوحيد في حياتنا - لا يفسر لنا لماذا تكون سعادة هذا الرجل في إيذاء الناس بينما يلتمس غيره السعادة في الترفيه عنهم . فلا بد أن يكون هناك غرض آخر وراء السعادة إذا اصطدم بها أهلها الإنسان مختارًا أو مكرهًا لأجله . وقوام هذا الغرض الضمير .

الرياء والصراحة :

بعض الرياء خير من بعض الصراحة . أما الرياء الذى يفضل على الصراحة فهو رياء من يحس في قلبه مثلاً أعلى للأخلاق ويشعر من نفسه بالتقاصر عن شأوه فيتجمل بستر عيوبه ليظهر للناس على مقربة من مثله الأعلى . وهو رياء مبعته حب الكمال وحسن الظن بمستقبل الإنسان .
وأما الصراحة المذمومة فهي صراحة من لا يرجو للناس أملاً وراء حاضرهم المحسوس . يرى العيوب فاشية والعصمة معدومة ولا يجد أحدًا براءة من نقیصة ، أو مستجمعًا لكل ما يحمد من فضيلة ، فيخلع العذار ويجهر بالفجور كأنه فى حل من إتيان ما يشتهى من منكر إذ كان الناس لا يخلون من مثله ، وهذا خلق أشبه بالرياء منه بالصراحة لأنه يجعل قوام الفضائل كلها موافقة الناس . فلا يشعر صاحبه فى قلبه بحب الفضيلة لذاتها ولكنه يجبرها إذا وجد حوله من يشاركه فى حبها .

فذاك رياء أصحاب الطبايع الصادقة الذين ينظرون بعين البهاده فيعلمون أن للناس على نقصهم الحاضر أملاً فى الكمال وأنهم مازالوا يتكلمون منذ خلقوا

الأجسام ، لا على أحكام القوى المحركة لها ، وهذا الذى فعله سينسر ومن حذا حذوه فى علم الأخلاق .

حب المرأة :

كل اهتمام قوى وشيك أن ينقلب فى نفس المرأة إلى سب ، حتى الاهتمام بالاحتقار .. على أن الاحتقار شعور قلما يتفق للمرأة أن تطيل فيه إلى أن يبلغ حده . لأنها إذا أخذت فى احتقار رجل لم يلبث أن يتحول احتقارها إلى مقت أو شفقة ، وبين المقت والشفقة وبين الهوى فى نفس المرأة حجاز لا تطول شفته ، ولا سبها إذا كان المحقر رجلاً لبق اللسان بصيرًا بأهواء القلوب .

الأنانية :

اعتاد الناس أن ينظروا إلى الأنانية كأنها أجبولة ينصبها الحى ليصطاد بها الحياة . فلماذا لا ينظرون إليها كأنها أجبولة تنصبها الحياة لتصطاد بها الحى ؟؟
إننا نعلم أن الحى لم يطلب الحياة ولم يدعها إليه ولكنها هى التى طلبته ودعته إليها . فالأولى أن تكون هى التى تخدعه بالأنانية لتقنعه بأنه رابع منها وتضطره إلى الصبر على ملازمتها . ولينقرر ذلك فى أفهامنا نفرض أن الأحياء خلقوا بلا أنانية ألا تراهم حينئذ يخلعون ثوب الوجود لأول صدمة يلقونها فى سبيله ويرونه أهون عليهم من أن يصيروا له على أم أو يتعللوا من أجله برجاء ؟؟ وإذا فعلوا ألا تكون الخسارة إذن كونية عامة لا أنانية محصورة ؟؟ فالأنانية الصحيحة هى الإيثار الأكبر فى هذا الوجود . والذى يعمل « لمصلحته » إنما يعمل لشيء أكبر منه فى الحقيقة . ولهذا تتقارب الأنانية والغيرية فى النفوس العظيمة حتى يوشك أن لا يختلفا ولا يمكن الفصل بينهما .

جناية آداب المدنية :

كل اضطراب نفسانى شديد لا يظهر أثره على العضلات والأعضاء ينقلب إلى شعور مكظوم . ومن هنا نرى جناية المدنية على الأخلاق إذ تضطر الناس إلى

المذبذبون :

إذا كان الرجل خليطاً من الشرف والنذالة لم يكذب يصنع في الحياة شيئاً ذا خطر لأن الخلقين يتجاذبان من ناحيتيهما فيقف في موضعه كالمشلول أو كمن شد إلى الحبل بين متنازعين على قوة متقاربة وإنما يندفع إلى الأعمال الكبيرة من غلب عليه الشرف أو غلبت عليه النذالة .

السخر بالحياة :

من الناس من يسخر بالحياة سخر العمود بالمائدة . ومنهم من يسخر بها سخر المتخوم المكتظ بظعامها . فالأول يسخر بالحياة لأنه لاحظ له فيها والآخري يسخر بها لأنه أصاب منها جميع حظوظها . وربما كان الأول أظن إلى العيوب وأسرع وقوعاً على القبائح المتوارية من صاحبه لأن رغبته في إظهار هذه العيوب والقبائح مقرونة بألم السخط والحمران

خداع الأغبياء :

إن خداع الأغبياء قد يحوج الخادع إلى قسط كبير من الغباوة . وإلا لم يكن سبيل إلى التفاهم . ولم يتح له التسرب إلى جهات الغفلة التي يؤتى المخدوع من قبلها وينفذ منها إلى شكوكه وظنونه ومهاد ثقته وطمأنينته . فالأوروبي مثلاً لا يتأتى له خداع الزنجي كما يتأتى ذلك لزعيه الجاهل . لا لأنه أضحى من ذلك الزعيم عقلاً وأقصر حيلة . ولكن لأنه أوسع منه عقلاً وأرفع حيلة . وما يقال عن هذا الزعيم يقال عن زعماء الغوغاء في كل أمة فإنهم أقدر على إقناع أتباعهم من أقوى المناطق حجة وأصدقهم بياناً .

العقل الصحيح :

العقل الصحيح في الجسم الصحيح - كلمة حق - ولكن لها تعقياً يجب أن

وهذه صراحة أصحاب النفوس الناضبة التي تمشى ضمايرها وراء حواسها ولا تسبقها ، فعالمها كله مشاهد محسوس وليس لها عالم مغيب مأمول ، وخلانقها تستمد القوة من خارجها وليس لها من قوة دافعة في باطنها .

لهذا لا تعجب من اقتران . ناء الانجليز بقوة السليقة في الشعر والدهاء البديهي في السياسة ، ولا تعجب من اقتران الصراحة الفرنسية بالفصاحة المزوقة التي لا عمق لها والجرى في السياسة وراء « النظريات » التي تعوزها الخبرة العملية والأصالة الفطرية وتتعالى عن منطق الطبائع الفعال في شؤون الأمم على ما فيه من غرارة ظاهرة . ز . الحيلة مضحكة .

الكد والتسرف :

إن في الشغل الشاق من البهيمية بقدر ما في الترف والتهالك على الشهوات ، وما أقرب الكادح المستغرق في عمل يذنه من المترف المخلد إلى لذاته !! ذاك يحتمل التعب لأنه جسد صرف وهذا يخلد إلى الدعة واللذة لأنه كذلك جسد صرف . فيها شبيهان على بعد ما بينهما في الظاهر . ولذلك يوجدان جنباً إلى جنب في المدنية المضحلة . وكلاهما تنبئك حاله عن روح ميتة لا مطلب لها وراء مطلب اللحم والدم .

الدم المهدر :

كان الملوك الأقدمون يهدرون دم من يغضبون عليه فلا يطالب أحد بحقه . وهذه العادة باقية . فالعرف اليوم يهدر دم من يخرجون عليه ولا يقرونه على عيوبه ، فإذا حقوقهم كلها مضية وإذا الإساءة إليهم محللة لمن يشاء . وكأنما الناس لا ينتظرون إلا الترخيص من العرف ليستجيزوا هذه الإساءة التي لا تجوز .

المذاهب الحديثة :

إذا نجم للمذهب أعداء فقد ولدت فيه جرثومة الانتصار لأنه لا يثير العداوة إلا القوة ، والقوة تجذب وتدفع .

طرق المزاحمة :

طريقتان للمزاحمة في الحياة : أن تجذب مزاحك إلى الورا فلا تتمكن من سيقك ، وأن تتجاوزته في خطوة فتسببه . والظاهر أن أولى الطريقتين هي الطريقة الغالبة في بلاد الشرق .

اليأس والأمل :

اليأس الكبير خير من الأمل الصغير ، ومن العجائب أن الأمم المعنة في الضعف والاضمحلال لا يكثر بينها اليأس فيما تزاوله من شؤونها لأن مطالبها صغيرة ، والوسائل إلى هذه المطالب خسية لاتعجزها ، بل مما يعين عليه الضعف وفسولة الطبع .

الزهد المريض :

قد تمرض النفس فلا تشتهي شيئاً فإذا شغيت طلبت غذاءها كما يمرض الجسد فيعاف الطعام فإذا اشتهاه كان ذلك من علامات الإبلال .

مزية الخطأ :

إن الحيوانات لاتخطئ في أعمالها وإنما الخطأ مزية الارتقاء - وكلما عظم الإنسان كثر تعرضه للخطأ في أعماله لأنها تعظم وتعدد جوانبها وتتباعد أقيستها فيطرقها الزلل من حيث تداخلها أسباب الكمال .

يتبعها ويتممها ، وهو أن العقل الصحيح والعقل الممتاز ليسا بشيء واحد . قد يكون العقل صحيحاً ولكنه غير ممتاز وقد يكون ممتازاً ولكنه غير صحيح - ولا بد للناس من تصحيح الأجسام والعقول ، ولاغنى لهم عن ثمار العقول الممتازة . فلنطلب كلا منها في موضعه ولا نرجح الصحة على الامتياز إذا كانت لاتغنينا عنه ولا تبلغ شأوه في كل حال .

الطاعة :

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الأمم القوية ، والأمم التي لا طاعة فيها لا يعرف أفرادها الواجب ولا يلتزم أحد فيها حده . إذ الطاعة هي أن يعرف كل إنسان حده لنفسه يلتزمه وحده لغيره يحترمه ، وحيث لا واجب ولا تبعه لا يكون عمل شريف ولا فضيلة نبيلة . على أن فرقاً بين الخوف والطاعة فإن الخوف اضطرارى والطاعة اختيارية .

الحقائق والشعر :

ليس الشاعر مطالباً بالقضايا العلمية ولا بالدقة التاريخية ، ولكن هل هو مطالب بنقض القضايا المقررة ومسح الأخبار الثابتة ؟ ليس من الضروري أن يقول لنا الشاعر أن (٥ + ٥ يساوى ١٠) . ولكن هل من الضروري أن يقول أن (٥ + ٥ يساوى ٨ مثلاً أو ١٢) ؟ وإذا لم يذكر الشاعر في قصيده أن نابليون ولد في سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا فليس من يلومه على هذا الإهمال ، ولكن هل لو ذكر أنه ولد في القرن الخامس للميلاد ببلاد اليابان أترأه كان يسلم من اللوم لأنه ليس بالعالم المحصص للقضايا ولا بالمؤرخ المحقق للأخبار والأقدار ؟

يجب أن لا يخالف الشاعر ظاهر الحقيقة إلا ليكون كلامه أوفق لباطنها ، فأما أن يتخبط في أقاويله ميمناً وشمالاً مخالفاً ظاهر الحقيقة وباطنها ، مدابراً أحكام الحس والعقل والصواب لغير غرض تستلزمه خدمة الحقائق النفسية ، أو تصوير الضمائر الخفية فذلك سخف ليس من الشعر ولا من العلم .

المذاهب الحديثة :

إذا نجم للمذهب أعداء فقد ولدت فيه جرثومة الانتصار لأنه لا يثير العداوة إلا القوة ، والقوة تجذب وتدفع .

طرق المزاحمة :

طريقتان للمزاحمة في الحياة : أن تجذب مزاحمك إلى الورا فلا تمكنه من سبقك ، وأن تتجاوزته في خطوة فتسبقه . والظاهر أن أولى الطريقتين هي الطريقة العنيفة في بلاد الشرق .

اليأس والأمل :

اليأس الكبير خير من الأمل الصغير ، ومن العجائب أن الأمم المعنة في الضعف والاضمحلال لا يكثر بينها اليأس فيما تزاوله من شؤونها لأن مطالبها صغيرة ، والوسائل إلى هذه المطالب خسيسة لاتعجزها ، بل مما يعين عليه الضعف وفسولة الطبع .

الزهدي المريض :

قد تمرض النفس فلا تشتهي شيئاً فإذا شفيت طلبت غذاءها كما يمرض الجسد فيعاف الطعام فإذا اشتهاه كان ذلك من علامات الإبلال .

مزية الخطأ :

إن الحيوانات لاتخطئ في أعمالها وإنما الخطأ مزية الارتقاء - وكلما عظم الإنسان كثر تعرضه للخطأ في أعماله لأنها تعظم وتعدد جوانبها وتتبعده أقيستها فيطرقها الزلل من حيث تداخلها أسباب الكمال .

يتبعها ويتمها ، وهو أن العقل الصحيح والعقل الممتاز ليسا بشيء واحد . قد يكون العقل صحيحاً ولكنه غير ممتاز وقد يكون ممتازاً ولكنه غير صحيح - ولا بد للناس من تصحيح الأجسام والعقول ، ولاغنى لهم عن ثمار العقول الممتازة . فلنطلب كلا منها في موضعه ولا نرجح الصحة على الامتياز إذا كانت لاتغنينا عنه ولا تبلغ شأوه في كل حال .

الطاعة :

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الأمم القوية ، والأمم التي لا طاعة فيها لا يعرف أفرادها الواجب ولا يلتزم أحد فيها حده . إذ الطاعة هي أن يعرف كل إنسان حداً لنفسه يلتزمه وحداً لغيره يحترمه ، وحيث لا واجب ولا تبعه لا يكون عمل شريف ولا فضيلة نبيلة . على أن فرقاً بين الخوف والطاعة فإن الخوف اضطراري والطاعة اختيارية .

الحقائق والشعر :

ليس الشاعر مطالباً بالقضايا العلمية ولا بالدقة التاريخية ، ولكن هل هو مطالب بنقض القضايا المقررة ومسح الأخبار الثابتة ؟ ليس من الضروري أن يقول لنا الشاعر أن (٥ + ٥ يساوي ١٠) . ولكن هل من الضروري أن يقول أن (٥ + ٥ يساوي ٨ مثلاً أو ١٢) ؟ وإذا لم يذكر الشاعر في قصيده أن نابليون ولد في سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا فليس من يلومه على هذا الإهمال ، ولكن هل لو ذكر أنه ولد في القرن الخامس للميلاد ببلاد اليابان أتراه كان يسلم من اللوم لأنه ليس بالعالم المحصص للقضايا ولا بالمؤرخ المحقق للأخبار والأقدار ؟

يجب أن لا يخالف الشاعر ظاهر الحقيقة إلا ليكون كلامه أوفق لباطنها ، فأما أن يتخبط في أقاويله يميناً وشمالاً مخالفاً ظاهر الحقيقة وباطنها ، مدبراً أحكام الحس والعقل والصواب لغير غرض تستلزمه خدمة الحقائق النفسية ، أو تصوير الضمائر الخفية فذلك سخف ليس من الشعر ولا من العلم .

لذة المطالعة

إننا نقدر الكتاب بما يوجهه لا بما تمل عليه حروفه ومعانيه . وإن القارئ وهو يطلع الكتاب قد يترافق في ذهنه كتاباً غير الذي يعرّوه ويشتم فيه من العائق غير ما أراد مؤلفه ولكنه يحسب أنه يقرأ كتاب المؤلف وينسب الفضل فيما يشعر به من اللذة إليه ، وربما تناول أحدنا الكتاب التميمي في ساعة ضجره ثم أقفله وهو يتأفف . ويتناول الكتاب الغث وهو منشراح الحاطر مفتوح نوافذ الذاكرة فيتراح إليه وتتوارد على ذهنه الحواطر والطرف من كتوز الذاكرة المدفونة ، فيبقى على الكتاب وكاتبه ، وإنما اللذة لذته لا لذة الكتاب أو صاحبه ، ومن ثم كان الكتاب لا تعرف قيمته البتة من قراءة واحدة . ووجب على الناقد أن يكرر قراءته في حال سأمه ونشاطه قبل أن يحكم عليه .

وأذكر أنني أعرضتني الكتب يوماً فعمدت إلى قائمة بعض المكاتب الإفريقية فوجدت أضعفها يشوق وتامل كأنها سفر مفعم بطلل الأخبار وحلو الفكاهة . وكنت إذا استوقفتني اسم كتاب فيها تمل لي مصنفه وسمحت لي آراؤه ومواقفه في حياته ولطائف ما يؤثر من نكاته وأعماله . فكنت كأني عاشق قديم يراجع أسماه أحيائه فيقف عند كل اسم منها وفترة تسترسل فيها نفسه فتهم بخياله في فجاج الماضي ، فيجمع تاريخ أتمواقفه في لحظة . ويستثمر لذة كل قبيلة والنزامة ، وغبطة كل نظرة وابسامه ، ولو أننا نحكم على الكتاب بما يولينا من المسرة والرضى لكان طابع تلك القائمة من أئمة الكتاب في العالم .

كلام الناس

من الناس من يعلم براءته من وصمة ، فإذا سمع قولاً يسمونك بها صغرت في عينيه وهو أعلم بكتبتهم وانفراهم عليك .

تنازع البقاء :

رجلان دخلها مساو وبيتها واحدة . أحدهما يفتق مطالب الحياة فيرى أبنائه تربية حسنة ويروح عن نفسه ومرض جسمه وعقله ويلتذ جمال الفنون والآداب . والآخر غبي ثقيل الطبع يدخر ثلثي دخله ولا يفهم للرياضة والمطالب النفسية معنى - أي هذين يصارع صاحبه في ميدان الحياة ؟

خطأ المذاهب :

مصدر الخطأ في مذاهب الإصلاح الاجتماعي أو الديني أن دسة هذه المذاهب يبتون مذاهبهم على النظر إلى غرض الإنسان من أعماله لا إلى الدافع الذي يستأفه إلى الإيمان بتلك الأعمال ، ولو فطنوا إلى قوة سلطان المواقف وأن أغراض الإنسان بنت درافعه في الحقيقة لأصلحوا كثيراً من أغلطهم النظرية أو لاتفنوا على الأقل إلى الجهة التي يجب الالتفات إليها والصدور عنها .

الكتيب :

إن الكتيب مقام سليمانبة لانزال الأرواح والوجدانات محبوسة فيها حتى تنك أرسادها فتطلق من معقلها وتشتب في قارئها فتستعيد حياتها فترة قصيرة في نفسه . ولو كانت تلك الوجدانات والمواقف تجيش في صدور الكتب كما كانت تجيش في صدور أصحابها لأحرقت صفحاتها زفرات الوله والوجد ، ولسودت وجوهها لواعج العم والمذاب ، ولأصم الأذان ماينبت من أحنائها من التآوه والأبين ، وقتت الأكياد ما يرتفع من جلودها من الشجيع والخنين ، بل لكان يفرح الناس منها فزعهم من أمباح الموق . وتبرن عليهم أن يبروا بساحة الرغبي بعد مقابلة شمعاه ولا يبروا بباب مكبة .

وليس هذا الإعجاب بالعملة الزائفة وإنما هو عملة صحيحة مقومة يقبلها كل إنسان جزاء لأعماله .

وهناك ضرب من الاقتصاد الشعوري غير مقصود في حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطبيب فنسان يفيد بعلمه ولو لم يلق هتافاً وتهليلاً ، أما شارلي شابلن فهل تراه يسخو بجوابه بغير الهتاف والتهليل؟؟ أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذي يضحك الناس فيه والوقت الذي يهللون له فيه وهتفون؟؟

المكابرة :

المكابرة قرينة الضعف في كل حال ، وهي تمويه لا حقيقة ، وحيلة لا قوة ، وتسليم لا مقاومة . وكل الفرق بين مكابرة وتسليم ، أن التسليم صريح واضح ولكن المكابرة تسليم مرء يخاف ظهور ضعفه فلا يعترف بنفسه ، مثلها كمثل الدخان الذي يفشيه المنهزم بينه وبين عدوه مداراة لهزيمته . ومن عكف على أن يقول : لست ضعيفا لست ضعيفا ، فإنما يقول بلسان أفصح وأصدق : لست قويا لست قويا . وما رأيت إنساناً يكابر فاحتجت بعدها إلى دليل على صغر عقله وضعف نفسه .

شارلي شابلن :

عجبت إحدى الصحف الفرنسية من الحفاوة التي قوبل بها شارلي شابلن في لندن وقارنت بين فتور الجماهير قبل أصحاب الفضل عليها من المخترعين والمصلحين وبين شغفها بالمضحكين وتهليلها لهم وإقبالها العظيم عليهم ، وضربت الصحيفة مثلاً بالطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس فقالت وهي تستغرب ما تقول : ترى لو كان هذا الطبيب بين الجموع المهللة لشارلي شابلن أما كانوا ينحونه عن الطريق ويزورون عنه ليقبلوا على بظلمهم العزيز؟؟

نقول ليس ذلك بعيد . ولكن هل من الظلم حقا أن يظفر شارلي شابلن بذلك الإعجاب وأن يجرمه أمثال فنسان في حياتهم؟؟ لعمري أن الإنسان ليرى شيئاً من العدل في هذه الأطوار التي تشاهد في الجماهير ، فإن الممثل الهزلي لن يظفر بعد موته بكثير ولا قليل من الإعجاب الذي هو حقيق به . فمن الإنصاف أن يكافأ في حياته هذه المكافأة على إضحاك الناس وتسرية همومهم وتشريط عقولهم وقلوبهم وماهو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن في هذه الدنيا المغفمة بالشواغل والهموم ، والأمر على خلاف ذلك مع فنسان وأمثاله فإن ذكرهم لا ينسى بعد موتهم والإعجاب بهم يبقى زماناً وهم تراب في لحودهم .

الفهرست

صفحة	
٥	مقدمة وإهداء
٧	نظرات في فلسفة المعري (١)
١٥	نظرات في فلسفة المعري (٢)
٢٧	النسوى
٣١	آراء في الأساطير
٤٢	الألعاب الرياضية
٤٥	المواكب
٤٩	الثقة بالناس
٥١	مغنى المجالس
٥٦	كتاب البؤساء
٥٦	١ - نظرة في أدب هيجو
٦٠	٢ - ترجمة الجزء الثاني
٦٦	على أطلال المذهب المادى
٧٣	الوضوح والغموض
٧٨	الاشمئزاز
٨٠	ساعات بين الكتب
١١٢	جمال الطبيعة
١١٨	الرسائل
١٢٩	نهضة المرأة المصرية
١٣٥	سر تطور الأمم
١٥٣	الفضائل الجنسية
١٥٧	مصطفى كمال

تبييه

الفصول المتقدمة هي التي استطعنا إثباتها في هذه المجموعة . وليست هي كل ما عددناه للنشر ولكنها كل ما وسعته الصحائف . وسنضم البقية مع ما يضاف إليها من الفصول الجديدة إلى مجلد آخر . أما هذا المجلد فمن موضوعاته ما كتب هذه الأيام ومنها ما كتب منذ عشرة أعوام ، وقد رجعنا إلى بعضها بشيء من التحوير والزينة لتبليها أقرب ما يمكن أن تكون من رأينا وقت ظهور الكتاب ، واستغفينا بذكر تواريخها عن ترتيبها على حسب مواعيد كتابتها . أما ترتيب الموضوعات فيغيبنا عنه ما بيننا من التناسب والاشترار في منحها .

(المؤلف)